جهاد شعب الجزائر

١٣

المجاهدة الجزائرية



بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

المجاهدة الجزائرية
(والإرهاب الاستعماري)

بسّام العسلي

دار النفائس

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو ـ ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م
الطبعة الثالثة : ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م

الإهداء

إلى أرواح الشهيدات المجاهدات من حفيدات خولة والخنساء .

إلى العربيات المسلمات اللواتي حفظن لجزائر المسلمين أصالتها الثورية . وفجرن فيها ينبوع التضحية والفداء .

إلى المؤمنات المسلمات اللواتي لا زلن على العهد بهن دائماً ، يحفظن لجزائر المسلمين دينها وقواعد صمودها ومجدها وعزها والعزة لله ولعباده المؤمنين .

بسام

المقدمة

احتلت الثورة الجزائرية مكانتها السامية بين ثورات العصر الحديث ، وبمثل ما كانت هذه الثورة جبارة ، وعملاقة ، كان دور المرأة فيها جباراً ، وعملاقاً . وللمرأة الجزائرية في نسيج الثورة ولحمتها قصة مثيرة لا بد من التعرض لها .

لقد ران على جزائر المسلمين حين من الدهر ، أحاق فيه بالعرب المسلمين بلاءٌ لا يوصف ، فقد استطاع الاستعمار الفرنسي تدمير المجتمع الجزائري بطرائق مبرمجة رهيبة ، فتمزق هذا المجتمع أحزاباً وشيعاً ، وانحرف من انحرف ، واستسلم من استسلم ، ويئس من يئس ، إلّا قلة عمّر الإيمان قلوبها ، وأنار الإسلام بصيرتها ، فمضت مجاهدة تبشر بمولد الفجر الجديد للجزائر ، وتعمل له . وكانت (قسنطينة) على وجه التحديد هي مقر الدعوة الجديدة ، وكان (عبد الحميد بن باديس) وإخوانه العلماء هم طلائع التبشير بفجر اليوم الجديد ـ فجر الثورة الكبرى . تلك حقيقة باتت معروفة ، ومسلّم بها ، لا تقبل الجدل أو النقاش . ولكن ، وحتى من قبل أن تتفجر بواكير اليقظة ، كانت هناك (الأم الجزائرية) متقوقعة في منزلها ، منعزلة عن دنياها ، تمارس دورها

الرهيب بعيداً عن عيون الناس الباحثة عن الطريق القويم . لم يكن هناك (تنظيم) أو (اتحاد) يوجهها . لقد استخلصت كل الحقائق من خلال تحليلها السليم للأمور ، تحليل القلب المؤمن والعين المبصرة . والتقت كل النساء ، المنعزلات ، المتقوقعات ، على الهدف ، من غير مشاورات تمهيدية ، ولا مقررات تنفيذية . وأمكن لها بذلك بناء قاعدة الثورة في منزلها . فاتصلت قواعد المنازل ، وتشكلت القاعدة الصلبة .

من هذه القاعدة ، أشرق الفجر الجديد في الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤ ، عندئذ بدأ التحول ، وانتقلت (الأم الجزائرية) من قاعدة عملها السرية - إذا صح التعبير - إلى ميدان الجهاد العلني ، فمضت تؤجج الحماسة في النفوس ، تدفع فتى العشيرة لحمل السلاح ، وتودّع الأب والابن والأخ وهي ترسلهم إلى ميادين القتال ، ثم هي تحمل السلاح في معاقل الثوار ، وتلقي القنابل في المدن وتقوم بكل الأعمال الخطرة ، وتقبل التضحية بمثل ما كانت عليه أختها المجاهدة في صدر الإسلام .

ويجن جنون الاستعمار . لقد كان يتوقع كل شيء ، إلّا أن تكون الفواطم (جمع فاطمة) على مثل هذا الإقدام ، وبمثل تلك الجرأة ، فيزج قواته في حرب وحشية ، يكون للمرأة فيها قسط كبير .

لم يكن تجريد العذارى من طهرهن ، حباً في الانتقام فحسب ، ولا رغبة مجونية عارضة فقط . إنما لتدنيس حرمة هذه التي صانها الإسلام وشرّفها ورفعها إلى قدرها الذي تستحقه . واحتملت المرأة ، صابرة ، كل ما لحق بها من الإهانات ، وكل ما ارتكب بحقها من الجرائم ، فعرفت زنزانات التعذيب ، وتعرضت للقتل ، وعاشت حياة السجون والمعتقلات ومعسكرات الترحيل والانتقال

وكانت معاناتها أكبر وهي ترى ما يحل بقومها وأفراد عشيرتها وأبنائها وإخوانها . فكانت في كل مواقفها جبارة ، وصامدة ، وقوية . وأكدت بذلك أنها الطاقة غير المحدودة للبذل والعطاء .

لكم تعرضت المجاهدة الجزائرية ، ولكم عانت ، ولكم احتملت من ظلم الاستعمار وجبروته . لقد عرفت الحروب ، كل الحروب ، ألواناً من البؤس والشقاء ، كان للمرأة فيها نصيب كبير ، غير أنه ما من تجربة مرت بها المرأة يقيناً ، تماثل أو تشابه تجربة (المرأة الجزائرية) لا من حيث اتساع أفق هذه التجربة ، ولا من حيث شدتها وقوتها ، ولا من حيث الوضع الخاص الذي تتمتع به المرأة المسلمة في منزلها ومجتمعها .

وتمضي سبعة أعوام ونصف تقريباً ، والجزائر المجاهدة تخوض حربها الضروس ، وتصمد المرأة الجزائرية لأهوال هذه الحرب ومآسيها بصبر لا يوصف . وتصل الثورة إلى نهايتها الظافرة .

وتبدأ مرحلة بناء ما بعد الثورة . وهنا لنا كلمة في نهاية البحث .

لقد انتهت الثورة بالنصر ، ولا زالت الحرب مستمرة .

والدروس المستخلصة من (جهاد المرأة الجزائرية) كثيرة ، وفيرة ،

غير أن هناك درس يتصدر الدروس المستخلصة من التجربة الذاتية .

لقد حققت المرأة ما حققته بفضل تمسكها بأصالتها ، وبفضل محافظتها على قواعد صمودها . ولا بد لها ، حتى تستطيع متابعة دورها الحضاري من إعادة تقويم مواقفها ، ودعم الدروس المستخلصة من تجربتها .

إن التقليد الظاهري هو آفة مجتمعنا العربي - الإسلامي الذي يعاني ما يعانيه في إطار الحرب الشاملة التي حلت فيها (وسائل علم النفس) و (وسائل علم الاجتماع) محل (الأسلحة التدميرية التقليدية) .

والمرأة العربية المسلمة - لا في الجزائر وحدها - وإنما في كل بقاع العالم العربي - الإسلامي مدعوة اليوم ، وبإلحاح ، لممارسة دورها ، لأنها الأكثر قدرة - بحسب ما برهنت عليه التجربة الجزائرية - على (بناء المستقبل) .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

بسام العسلي

﴿ إنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً . وَلَكِنَّ ٱللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَآءُ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة النور ـ الآية ١٩ ـ ٢١)

الفَصْل الأوَّل

١ ـ المرأة الجزائرية على مخططات الاستعمار .
٢ ـ المرأة الجزائرية ـ أصالة عميقة الجذور .
٣ ـ لوحة شعبية للمجاهدة الجزائرية .
٤ ـ زغاريد النساء ـ اليويو ـ .
٥ ـ رسالة من (مجاهدة) .

١ ـ المرأة الجزائرية على مخططات الاستعمار

أثارت المرأة الجزائرية خيالات الكتاب والباحثين ، الشعراء والروائيين ، بفضل ما أظهرته من ضروب الشجاعة في ميادين الصراع المختلفة ضد الاستعمار وقواته الفرنسية . فكان لها في كل مجال دورها : حملت السلاح مقاتلة في السهول والجبال ، ودفعت الابن والزوج ، والأخ والأب لحمل السلاح وخوض القتال ، واستقبلت موت الأبناء والأحباء بمثل ما استقبلت (الخنساء) نبأ استشهاد أبنائها الأربعة ، إذ أطلقت مقولتها الشهيرة ، والتي باتت قدوة لكل مجاهدة : « **الحمد لله إذ شرفني بشهادتهم** » . لقد ماتت الخنساء ، وصمت عنها التاريخ ، غير أنها بعثت في الجزائر بألف خنساء وخنساء . فكانت ترافق المجاهدين إلى معاقلهم وصياصيهم ، تشاركهم مشاق الجهاد وتقدم لهم الدعم ، وتقوم بالأعمال التي يصعب على المجاهدين في كثير من الظروف الاضطلاع بها ، كإخلاء الجرحى والعناية بهم . ودفن الشهداء ، وتأمين الإمداد والتموين للمجاهدين ، ونقل الأسلحة والذخائر ، وتأمين الاتصالات وتنسيق التعاون بين فصائل وسرايا وكتائب مجاهدي جيش التحرير الوطني ، ونقل الوثائق بين القيادات ، وتنظيم التظاهرات في

المدن ، ومطاردة القوات الاستعمارية في كل مكان ، بالمراقبة والمتابعة ، وإطلاق الزغاريد (اليويو) التي طالما أثارت حماسة المجاهدين في ميادين الجهاد ، وفي قاعات المحاكم عندما كانت (محاكم التفتيش الحديثة) تعقد جلساتها التظاهرية للحكم على المجاهدين والمجاهدات .

وذهل العالم ـ الغربي والشرقي ـ على السواء لهذه الظاهرة . لقد اشتركت المرأة في الحروب الحديثة ، ودخلت في صلب تنظيم القوات المسلحة ، غير أنها لم تتمكن من الوصول والارتقاء إلى مستوى المجاهدة الجزائرية ، لا في قدرتها على احتمال كرة القتال ، ولا في صمودها ضد وسائل القمع والإرهاب ، ولا في صبرها على نوائب الاستعمار وكوارثه .

وكان ذهول الاستعمار الفرنسي أكبر من كل تقويم . ذلك أن هذا الدور الذي اضطلعت به المجاهدة الجزائرية قد جاء ليؤكد (سقوط كافة المخططات الاستعمارية) التي استهدفت تدمير أصالة الجزائر من خلال الحرب المنظمة ضد المرأة الجزائرية حتى تتحول إلى (دمية لا تصلح إلاّ للعبث) على نحو ما هو عليه حال (الغربية) التي دفعت إلى ما تكره تحت شعارات (الحرية والتحرر) و (الحضارة والمدنية) حتى باتت مكبلة بالقيود الثقيلة التي لم يعد باستطاعتها التحرر منها ، أو الانعتاق من ثقل وطأتها ، وباتت (حياة المرأة الشرقية ـ المسلمة) هو الحلم الذي تتطلع إليه المرأة (في مشرق الأرض ومغربها) والشواهد كثيرة لا مجال هنا لذكرها .

المهم في الأمر ، لقد عرفت فرنسا ، ومنذ بداية استعمارها للجزائر ، أن إحكام قبضتها على (جزائر المسلمين) إنما يكمن بالقدرة على (تدمير أصالة المرأة الجزائرية) . ولم تكن أسئلة

(الجنرال دوماس)[1] التي وجهها إلى (الأمير عبد القادر) ضرباً من العبث أو إرواء الفضول ، أو بهدف (البحث الموضوعي) عن (المرأة الجزائرية المسلمة) وإنما كان وسيلة ـ في جملة الوسائل ـ لإحكام المخططات الاستعمارية ضد المجتمع الجزائري المسلم .
كان (الجنرال ـ دوماس) من أكبر القادرة الفرنسيين في الجزائر ، اشتهر بوحشيته في الحروب ، وتعلم اللغة العربية ، واطلع على أحوال المواطنين الجزائريين المسلمين ، فوجّه إلى الأمير (عبد القادر) مجموعة من الاسئلة تفضح ـ في حد ذاتها ـ النوايا الاستعمارية ضد دين الإسلام ـ عامة ـ وتخدم قضية الحرب الشاملة من خلال التركيز على قضية (المرأة المسلمة) . وقد أجاب الأمير عبد القادر ـ ببلاغته المعروفة ، وحجته القوية ، ـ فدحض المزاعم المطروحة من خلال الأسئلة . وقد يكون من المناسب التعرض لبعض هذه الأسئلة وما جاء في الرد عليها ـ بإيجاز ـ قدر المستطاع[2] :

سؤال : قد رأينا المسلمين يتزوجون من غير أن ينظر أحدهم إلى من يريد أن يتزوج بها ، وربما عند الاجتماع يجد كل منهما في الآخر ما ينفره منه وذلك يؤدي إلى سوء المعاشرة مدة حياتهما أو الفراق لا محالة .

---

(١) الجنرال دوماس : (DUMAS ALEXANDRE DAVY DE LA PAILLETERIE) قائد فرنسي ، من مواليد جزيرة سانت دومينك (١٧٩٢ ـ ١٨٦٠) . من دهاقنة الاستعمار وقادة حربها في فترة التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر .

(٢) نص الاسئلة ، وإجاباتها كاملة في : تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ـ ص ٣٩١ ـ ٤١٠ .

وكان في جواب الأمير عبد القادر : ورد في الحديث الشريف : « إذا أراد أحدكم أن يتزوج بامرأة فلينظرها ، فإنه أحرى أن تدوم الإلفة والمحبة بينهما » ومن كلام العرب : « كل نكاح وقع من غير رؤية فعاقبته هم وغم » وكذلك « . . . والمرأة لا تخطبها حتى تسأل عن منصبها وخلقها » وكذلك : « الندامات ثلاثة : ندامة يوم وندامة سنة وندامة العمر ـ وندامة العمر هي في أن يتزوج الرجل من غير نظر ، ولا سؤال خبير » .

سؤال : يتزوج المسلمون من غير أن يأخذوا من الزوجات مالاً ، والزوج هو الذي يدفع للمرأة الصداق . وبذلك تكون ملكه أو بمثابة الأشياء التي تشترى ؟

وتضمن الجواب : « من كلام العرب : إذا خطب الرجل المرأة وسأل عن مالها ، فهو سارق لص » ومن كلامهم : « يلزم أن يكون الرجل فوق المرأة بثلاثة أشياء ، المال والسن والشرف ـ وإياك أن تتزوج المرأة التي تنظر لما في يديها » واعلم أن العرب لا يسألون عن المال لشدة حبهم لنسائهم ، ولو دفع الرجل للمرأة قناطير من الذهب والفضة ، لا يحسبها ملكه ، ولا يجعلها بمثابة الشيء المشترى ـ كما زعمت ـ .

سؤال : رأيت الناس يلومون العرب على ضربهم نساءهم ، وعلى تكليفهن في الخدمة فوق طاقتهن ، وعلى قلة المبالاة بهن ، وهم مستريحون ، لا يخدمون ولا يعملون شيئاً ؟

وتضمن الجواب : لقد نهى الشرع عن ضرب النساء ، وقال الرسول ﷺ : « لا يضرب النساء إلاّ أشرار الرجال » و « أوصى بهن خيراً » وتضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تحض الرجال على معاملة

النساء بالحسنى . وطلب الرسول ﷺ من المسلمين ، احتمال الأذى منهن بقوله : « من صبر على خلق امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب على بلائه » وأما خدمة النساء وتكليفهن فوق طاقتهن وعدم خدمة الرجال فهذا أمر لا نعرفه وما رأيناه .

سؤال : بنات الأكابر من المسلمين لا هم لهن إلاّ في زينتهن وتبرجهن ، بحيث أنهن لا ينظرن إلى غير ذلك . ولا يحسن بالمرأة أن تهمل أوقاتها وتقضيها في البطالة فإن ذلك ينشأ عنه شرور كثيرة .

وتضمن الجواب: إن المرأة المسلمة لا تترك الخدمة، سواء كانت من بنات الأكابر أو من بنات الأصاغر. وما سمعنا بامرأة معرضة عن الخدمة مقبلة على اللهو والبطالة. وحكي أن امرأة من العرب كان أبوها أميراً وزوجها أميراً، وهي تغزل الصوف. فقيل لها: لماذا تغزلين الصوف، وأنت شريفة، غنية عن الغزل؟ فقالت: «إنـه يطرد الشيطان، ويقطع حديث النفس» ومن أقوال العرب: «خير لعب المرأة بالغزل والإبرة» وأما اشتغال المرأة بالزينة في أوقات مخصوصة فهو مطلوب منها، لأن التزين من الأسباب التي تدوم بها الإلفة والمحبة بين الزوجين. ومن كلام العرب: «عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله» ويلزم الرجل أن يتزين لزوجته بما هو من زينة الرجال.

سؤال : نرى الرجل المسن من المسلمين يخطب البنت ويتزوجها ، ولكن هذا لا يقع عند النصارى ، إذ لا يصح أن يتزوج شيخ هرم بنتاً هي في عمر أولاده أو أحفاده ؟

وتضمن الجواب : هذا عيب ، وقليل من المسلمين من يفعله ، وعندنا ، إذا صبغ الرجل شيبه ، وتزوج من فتاة وأوهمها أنه شاب ، فإن الشرع يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله ، وكذلك المرأة العجوز إذا

تزوجت شاباً صغيراً ، حيث يتخذها الناس هزءاً وسخرية .

سؤال : المرأة عند النصارى تحب على ما فيها من الخصال الحميدة ، وأما عند المسلمين فإنها لا تحب إلاّ على حسب جمالها ، في الكثير وفي القليل ، على حسب أصلها .

وتضمن الجواب : قال الرسول محمد ﷺ : « تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها ، فعليك بذات الدين » وقوله : « لا تنكحوا المرأة لمالها ، فلعل مالها يطغيها ، ولا لجمالها فلعل جمالها يرديها ، وانكحوا المرأة لدينها » .

سؤال : يقال عن العرب أن الرجل لا يحترم زوجته ، ولا يحسبها إلاّ كخادمة له ، ولا يشاورها ولا يقربها إلاّ عند قضاء شهوته ، ولا يعتد بكلامها . وعندنا الأمر بخلاف ذلك ، فنشاور المرأة في كل شيء ، وهي رئيسة البيت . فكيف ينظر العرب إلى المرأة هذه النظرة ؟ .

وتضمن الجواب : قال رسول الله ﷺ : « ما أكرم النساء إلاّ كريم ، ولا أهان النساء إلاّ لئيم » وكان الرسول ﷺ يرفع امرأته على يديه حتى تركب على البعير . وكان أمير المؤمنين ـ معاوية بن أبي سفيان ـ يقول : « النساء يغلبن الكرام من الرجال ويغلبهن اللئام منهم » ومن أقوال العرب : « يلزم الرجل أن يفعل مع امراته كل ما يحببها إليه حتى يكون هو أحب الناس إليها » واعلم أن العرب يطلقون لنسائهن حرية التصرف في البيت حتى تكون المرأة في بيتها مثل الحاكم على رعيته .

سؤال : الذي يظهر أن غيرة المسلمين على نسائهن هي غيرة كبيرة ، حتى أنهن لا يخرجن إلاّ ملتحفات ولا يظهرن لأصدقاء

أزواجهن ولا لأقاربهم ، ولا لأقاربها ، وعندنا النساء يخرجن باديات الوجوه يحضرن الحفلات ، ولا يحجبن أنفسهن عن قريب أو بعيد ؟ .

إن غيرة المسلمين ليست كبيرة ، وإنما هي ميزان الوسط . والغيرة وهي كذلك ممدوحة ، تفرض على الرجل ألا يتغافل عن مبادىء الأمور التي يخاف عاقبتها . ومن كلام العرب قولهم : « لا تبالغ في الغيرة على زوجتك فيرميها الناس بالزنا » وقال الحكماء : « كل أمة كانت الغيرة في رجالها ، كانت الصيانة في نسائها ، والغيرة في القلب كالقوة التي في البدن ، تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة كان الهلاك ، وإذا ذهبت الغيرة كان الفساد » .

سؤال : إن الطلاق عند المسلمين كثير . وعندنا لا يكون أبداً ، ونحن نلومكم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الأولاد أيضاً لكونهم يقعون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم .

وتضمن الجواب : للطلاق محاسنه ومساوئه ، وهو أكره الحلال إلى الله ، وفي قوله ﷺ : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش » ومن أمثال العرب « إذا لم يكن وفاق ففراق » . فالطلاق راحة للرجل إن كانت امرأته خبيثة ، وقد أذن الله للمرأة المسلمة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا حصل لها من جهته ضرر . وهناك ديانات غير الإسلام تسمح بالطلاق .

وأسئلة أخرى منها :

- إن المسلمين لا يورثون البنت مثل الذكر ، فكيف ذلك والكل أولاده ؟

- إن نساءنا يدخلن المدارس ويتعلمن الكتابة ويحصلن على

المعارف والآداب ، بخلاف نساء العرب . فإن العربية إذا التقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة ، وكثيراً ما تسقط لعدم معرفتها ، وجهلها بأوضاع الحيلة ، وإن كانت المرأة العربية أعرف من غيرها بآداب المحبة ؟

نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة . وأما نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال ؟
- يقال إن المسلمين يمنعون نساءهم من الدخول إلى المساجد إذا كنّ صغيرات وجميلات ، ولا يمنعونهن من السفر إلى الحج ؟
- بلغنا أن بعض الناس يقولون أن النساء لا يدخلن الجنة . وما يكون مصير المرأة التي تتزوج بأكثر من رجل ؟
- يقال أن المسلمة إذا ماتت لا يخرج الناس في جنازتها مثل الرجل ، فهل هذا صحيح ؟
- إن كثيراً من المسلمين لا يأنفون من تزويج المرأة الساقطة إذا تابت ، ولا ينقص ذلك من قدرهم . بخلاف النصارى ، فإن الذي يتزوج بالساقطة منهم يبتذل بين الناس ، ولا يبقى له اعتبار عندهم ؟
- المرأة عند النصارى يسرها ما يسر الجنس ، ويحزنها ما يحزن الجنس ، وهذا التجاوب يقوي الزوج على الحرب مع بني جنسه والدفاع عن بلاده ، وأما المسلمة فقد لا تلتفت إلى ذلك ؟ . . .

يستطيع كل انسان أوتي قدراً من العلم والمعرفة ، والعلم بالإسلام وشريعته ، والمعرفة بالحياة وطبيعتها ، أن يجيب على هذه الأسئلة ويدحض ما تضمنته من مزاعم باطلة وافتراءات فاحشة على الإسلام وأهله ، فكيف برجل مثل الأمير عبد القادر ، وقد امتلك ناصية العلم والمعرفة ؟ ! وليس المهم على كل حال ، الدخول في محاورات ومناقشات للمفاضلة بين ما يطبقه الغرب من قوانين وشرائع

على مجتمعه وبين ما يلتزم به المجتمع العربي ـ الإسلامي من فضائل ، فالقضية ليست قضية جدل أو نقاش أو حوار للتعارف وإقامة الجسور ، إنما هي قضية تدمير لكل ما يمكن إقامته من جسور بين فضائل عربية إسلامية وبين تقاليد وعادات غربية وقد انتصر الغرب عسكرياً ، فأخذ في تحسس الطريق التي تمكنه من تحقيق انتصاراته الأخرى حتى تستقر له الأمور . وقد جاءت الأحداث المتتالية طوال ليل الاستعمار لتؤكد تلاحم الحرب الصليبية بالحرب الاستعمارية .
وعلى هذا ، وإذا كانت إجابات الأمير عبد القادر هي إجابات العلم والمعرفة للدفاع عن عالم الإسلام والمسلمين ، لا في الجزائر وحدها ، فإن الأسئلة بدورها ، وإن كانت من أجل اكتساب المعرفة بالجزائر ، ومجتمعها ، فإنها كانت من أجل الهجوم على عالم العرب المسلمين بداية من الجزائر ، ونهاية بالمشرق العربي ـ الإسلامي .

* * *

ومضى قرن من عمر الزمن على استعمار فرنسا للجزائر ، ونجحت السلطات الاستعمارية في تغيير الكثير من معالم المجتمع الإسلامي الجزائري . غير أن شيئاً لم تتمكن من بلوغه هو تدمير قلعة الصمود من الداخل ، فقد اعتزلت المرأة المسلمة بنفسها ، وتقوقعت في معقلها ، متحصنة بدينها ، متدرعة بإسلامها . وقد برزت هذه الظاهرة بشكلها الواضح للمجاهد التونسي المولد ، والجزائري الموطن ، عندما قدم الجزائر منفياً (مبعداً) سنة ١٩٢٥ . فقال ـ بعد أن وصف فئة من الشباب الجزائري الذي انساق مع تيار الاستعمار ، وما وصل إليه حالهم من السقوط والانحلال ـ : « **أما السيدات ، فلم يختلطن بمستعمر ، ولم يعرفن أجنبياً ، ولم يترددن على مدرسة ـ**

أجنبية ـ ولم يدخل العبث والرجس بيوتهن ، فكن من أطهر وأجمل وأجل ما يستطيع الإنسان ذكره عن سيدة كاملة ، مسلمة ، عربية ، تقية ، نقية ، طاهرة ، ورعة ، حفظت من جزائر الأجداد دينها وإيمانها وعروبتها وعزتها وشرفها . وورثت عنها ابنتها تلك التقاليد ، وتلك الأخلاق »[1] .

لقد كانت خميرة الثورة كامنة هنا ، في معقل صمود المرأة الجزائرية المسلمة ، فلا غرابة في أن تقفز المرأة الجزائرية إلى موقع الفداء والتضحية عندما تتوافر لها الفرصة . ويعود الاستعمار إلى محاولاته التقليدية في محاولة تدمير قلعة الصمود من الداخل ـ عن طريق المرأة . وعرف قادة الثورة الجزائرية ذلك ، فكان في جملة توجيهاتهم :

« تنحصر مهمة الممرضين والممرضات والهلال الأحمر والصليب الأحمر في جلب الأخبار من النساء لما تسمح به مهمتهم من التمكن باتصال جميع طبقات الشعب ، وإظهار مزايا فرنسا للمواطنين من عطف وشفقة ومعالجة وتوزيع للأدوية مجاناً » .

« تقوم النساء من جواسيس العدو ، ببث روح التفرقة بين النساء ورجالهن ، وخلق سوء التفاهم ، وحمل النساء ـ المسلمات ـ على أن يشتكين ببعولتهن إلى مكاتب الشؤون الأهلية ـ الساس ـ وأن يقمن ـ أي الجاسوسات ـ بمراقبة زيادة الأطفال والنساء في العائلات ، ومن أين طرأت هاته الزيادة . وبالاتصال بنساء المجاهدين . والإيحاء إليهن بكل ما من شأنه التأثير عليهن ،

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) سنيد ـ ١٩٧٧ ـ ٢ / ٣١ ـ ٣٢ .

وتحويلهن عن عقيدتهن ، ويقلن لهن إن أزواجكن قد تزوج البعض منهم بالتونسيات أو المغربيات ، وهجروكن »[1] .

وتفشل كل جهود الاستعمار في تحطيم قلعة الصمود الجزائرية . وتخرج المرأة الجزائرية المسلمة مرتدية عباءتها التقليدية (الغندورة) لتتصدى بصدرها لرصاص العدو . وتسقط شهيدة ، فيما كانت أختها تعاني ألوان العذاب تحت سياط الجلادين . إنها صورة خالدة لم ترسمها ريشة رسام ، ولم يحدد معالمها خيال شاعر ، ذلك لأنها صورة واقعية ترتبط بتراث أصيل يضربُ في جذوره عميقاً إلى أعماق التاريخ الإسلامي في الجزائر . وإذا كانت المرأة الجزائرية ـ جاهلة للحضارة الغربية ـ فما أغناها عن معرفة تلك الحضارة التي لم تحمل إلى بلادها إلاّ الانحلال والتمزق والضعف . ولعلها لم تدرك ذلك في بداية الأمر بعقلها ، غير أنها أدركته بقلبها المؤمن ، فكان إيمانها هو مصدر معرفتها .

---

(١) المرجع : (التعليمات السوداء) نشرة سرية داخلية صادرة عن أركان حرب جيش التحرير الوطني الجزائري ـ الولاية السادسة ـ ١٥ /٦ /١٩٦١ ص ٤ و ٥ .

٢ ـ المرأة الجزائرية
(أصالة عميقة الجذور)

لم يكن وضع المرأة الجزائرية ، قبل اندلاع الثورة التحريرية ، إلّا جزءاً شديد التلاحم بالوضع العام الذي كانت عليه الجزائر في كل مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبوضع الإنسان الجزائري بصورة خاصة . ويفرض ذلك بالضرورة العودة إلى الوراء ، عبر المسيرة التاريخية ، لمعرفة مكانة المرأة الجزائرية في مجتمعها . ولما كان من المحال الإحاطة الشاملة بوضع المرأة التاريخي ـ دون إهمال أي جانب ـ نظراً لما تفرضه هذه المحاولة من خروج بالبحث عن هدفه ، ونظراً لما يتطلبه ذلك من إسهاب يتطلب بحثاً مستقلاً ـ بحد ذاته ـ فقد يكون من المناسب تقديم صورة مختصرة لا تفقد على الرغم من إيجازها الأبعاد التكاملية ، ولا يضيع فيها وضوح المعالم . ولا تغيب عنها عملية الربط بين الشكل والمضمون . ويمكن في هذا المجال العودة إلى نقطة زمنية معينة تعتبر البداية لما هو معروف من تاريخ الجزائر .

لقد تميز المجتمع الجزائري ـ قبل الإسلام ـ بكل خصائص المجتمعات القديمة ومميزاتها ، وتوافرت لهذا المجتمع عوامل جيواستراتيجية واقتصادية وسياسية وثقافية أسهمت في تكوينه تكويناً

منفتحا يضم كل المقومات الإنسانية . ولقد شهدت ذرى الأوراس ، من عليائها ، تفتح الحضارات التي تنساب على السفوح والسهول الساحلية ، بداية من القرطاجيين ونهاية بالرومانيين ـ ثم البيزنطيين بعد انهيار روما على أيدي البرابرة الغربيين ـ ونجم عن هذا التفاعل بروز شخصية إنسان المغرب عامة وإنسان الجزائر منه خاصة ، حيث تميزت هذه الشخصية بمرونة الإنسان البدائي وبساطته المدفوعة بالفطرة إلى التطور والتجديد والاندفاع . غير أن هذه الشخصية احتفظت أبداً باستقلاليتها ، لقد كانت الجبال هي المعاقل الحقيقية التي لم تتمكن الحضارات القديمة من بلوغها ، وبقيت السهول هي منطقة الاحتكاك وأداة الاتصال بين سكان البلاد الأصليين وبين موجات الحضارات المتصارعة على سفوح البحر .

في هذا المجتمع كانت المرأة تتمتع بالاحترام والتقدير ، وتحظى بالرعاية ، مسموعة الكلمة ، قوية الشخصية ، ولعل كل ذلك ، هو الذي جعلها القاعدة القوية لخلية المجتمع الأساسية (الأسرة) . في هذا المجتمع ، الذي تهيمن عليه القوة والمثل العليا ، وتبرز فيه قيمة الحرية وتعشقها ، كانت المرأة تبعث الحياة ، وتشارك في كل صغيرة وكبيرة . فكان ركوبها للخيل ومشاركتها في الزراعة والحرب أمراً طبيعياً مثل عنايتها بطفلها . ولتكون الصورة التي حفظها التاريخ لمكانة المرأة أكثر وضوحاً، خلال تلك الحقبة التاريخية ، يمكن تذكر (الكاهنة) التي تربعت على عرش الجزائر من دون الرجال . ويمكن اعتبار التعرض لسيرة من هذا النوع دليلاً على ما كانت عليه المرأة الجزائرية القديمة من القدرة والكفاءة ، وليس ذلك فحسب بل إنه دليل أيضاً على ما كانت تحظى به المرأة من المكانة حتى أن مجتمعها القبلي ملّكها عليه ، وحكّمها في الوطن

والرقاب والأموال . ولم تكن لهذه المرأة القائدة ميزة الشجاعة والبطولة فحسب ، بل كانت تعمل بفكرها الثاقب أيضاً ، وموقفها من الفتح الإسلامي خير دليل على ذلك ، فقد تصدت الكاهنة لقوات المسلمين بحزم وشجاعة . واستطاعت إلحاق الهزيمة بهم إذ اعتبرتهم موجة من موجات الغزاة ، ثم تعرفت على الإسلام والمسلمين من خلال (خالد بن يزيد) الذي تبنته وجعلته كواحد من أبنائها . وعندما عاد (الحسان بن النعمان) لاستئناف الفتح (سنة ٨١ للهجرة) وعرفت الكاهنة أنه لا قبل لها بمقاومة جحافل المسلمين ، ولا قدرة لها على مقاومة التطور الذي يحمله الإسلام ، دفعت بابنيها مع (خالد بن يزيد) للالتحاق بجيوش المسلمين . ورفضت الفرار ، حتى لا تحمل عار الهزيمة ، وخاضت المعركة في سفوح الأوراس وهي مقتنعة بخسارة المعركة مسبقاً . ولقيت مصرعها (عند بئر الكاهنة) تاركة للمجتمع الإسلامي القدرة على النهوض والارتقاء ، فكان مصرعها هو نقطة الالتقاء بين عالمي (الجاهلية والإسلام) فوق الثرى الجزائري . وكانت مقاومة الكاهنة شبيهة بمقاومة (هند بنت عتبة) . غير أن الأولى لم تستطع التكيف مع المجتمع الجديد ، في حين ارتضت الثانية لنفسها الاسلام ديناً .

وقام المجتمع الاسلامي في المغرب العربي - الإسلامي وفي الأندلس ، واحتفظت المرأة المسلمة (عربية وبربرية) بكل الفضائل التي تضمنها الإسلام ، وأصبحت هي القاعدة الصلبة التي توحد ولا تفرق ، تجمع ولا تبدد ، في الأخوة لله ودينه ، وانصهر هذا المجتمع تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وأصبحت قيم المجتمع وفضائله راسخة الجذور في المجتمع المتكامل . وكانت عملية الربط بين الدين الإسلامي وبين الجهاد في سبيله إرثاً ثابتاً تتناقله الأجيال عبر

توجيه الأمهات وأحاديث الجدات .

وتحول المد إلى جزر ، ووقعت الجزائر أول ضحية لهذا التحول . وهنا عادت (المرأة الجزائرية) لممارسة دورها التاريخي اعتباراً من اللحظة التي اجتاحت فيها قوات الاستعمار (الجزائر المحروسة) يوم ٥ تموز - يوليو - ١٨٣٠ . والأمثلة عن هذا الدور متوافرة بكثرة ، لعل من أبرزها وأكثرها شهرة هي قصة إحدى بطلات الجزائر (لالافاطمة نسومر) التي قادت المجاهدين والمسبلين الجزائريين في ثورة عارمة (عام ١٨٥٧) ضد قادة الجيش الفرنسي - جنرالاته - فكانت مثالاً رائعاً لجهاد المرأة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي . ولم يكن استشهادها هو مجرد إضافة لموكب الشهيدات المدافعات عن الدين والوطن ، وإنما إعلاءً وتأكيداً لمكانة المرأة المؤمنة القائدة في مجتمع المجاهدين .

ومع التركيز على ذكر المرأة في ميادين الجهاد ، فإن الأمر الواضح هو أن هذه المرأة كانت عضواً فعالاً في المجالات التعليمية (الثقافية) والاجتماعية والاقتصادية قبل الغزو الفرنسي الاستعماري . وكانت لها مكانتها اللائقة بها في أسرتها ومجتمعها ، وكانت تشارك في جميع الأعمال - الشاقة وغير الشاقة - مما تتطلبه حياة الريف . وكانت في المدينة أيضاً تتبوأ مكان الصدارة في مجالات الثقافة والفكر والأدب ، مما ساعدها على الإسهام في رفع المستوى الاجتماعي للوطن الجزائري . لقد فرض الاستعمار الفرنسي شكله البغيض ، وطبق مخططاته الجهنمية ، على شعب الجزائر ، الذي عاش فترة تاريخية مظلمة ، وذلك لأنه لم يكن استعماراً مادياً (اقتصادياً) فحسب وإنما كان أيضاً استعماراً معنوياً (روحياً) واستعماراً استيطانياً ، كاد أن يقضي على أصالة هذا

الشعب ويزيل شخصيته العربية الإسلامية المميزة ، والمتمثلة بدينه ولغته وتاريخه وتقاليده ، التي تحتل الحرية فيها المرتبة الأولى .

لقد استعمل المستعمر ضد الجزائر والجزائريين مختلف أساليب الظلم والوحشية ، وحاول تجريدهم من المقومات والمبادىء الوطنية ، بتبديل علمهم ، ومحاربة دينهم ولغتهم ، وقلب نظام حياتهم الاجتماعية فقراً وحرماناً ، وحضارتهم وتطورهم تخلفاً وانحطاطاً . ثم بعد أن تم له ذلك بدأ يوهمهم أنه الكريم صاحب الغاية الحضارية السامية . وصار يعطيهم جرعاته المسمومة باستمرار من فكره ولغته وتقاليده طمعاً في الوصول إلى عملية (فرنسة عامة) . فهل تم له ذلك بالنسبة للمجتمع عامة وللمرأة بصفة خاصة ؟

إنه بالنسبة للمجتمع لم يقدر إلّا على تشويه السطح والمظهر ، أما المضمون والروح فبقيت نقية أصيلة ، وكان يوم ثورته أهم عوامل انتصاره .

وأما المرأة ، فنجدها رغم جهلها ، وحالة التخلف والجمود التي تجرعت منها أكثر من أخيها الرجل ، بسبب وضعها داخل البيت ، ينقسم كفاحها ضد عمليات القمع والتشويه الاستعماري إلى نوعين اثنين :

أولهما : كفاح ظاهر ومباشر ، ويتميز في المظاهرات والتنظيمات والنشاطات الحزبية والإصلاحية .

وثانيهما : كفاح ضمني وغير مباشر ، وهو ذلك الموقف الإيجابي الذي وقفته كمسؤولة عن مقومات الأسرة وعاداتها وتقاليدها الروحية والحضارية . وبالتالي موقفها إزاء مقومات وخصائص المجتمع عامة ، **حيث أشاحت بوجهها عن كل ما هو أجنبي واستعماري بما في ذلك الثقافة والتعليم ، متفطنة لدور الإغراء**

والإثارة الذي يمثله المستعمر معها قصد كسب ثقتها ، لأنها على رأس خلايا المجتمع . ولقد رأى أنه لا طريق أحسن وأضمن للوصول إلى تدمير شخصية هذا الشعب وأصالته وفضائله إلاّ بالاستيلاء على عقل المرأة ، حتى تكون بعد ذلك أداة لتحويل الأسرة وبالتالي المجتمع عن هذه الأصالة . ولقد تعمدت ـ أكثر ـ التمسك « بالحجاب » واستماتت أكثر في التمسك ـ بالعادات والتقاليد حتى لا تترك للمستعمر ثغرة ينفذ منها لمحاربة شخصيتها .

هذه لمحة تاريخية وجيزة عن دور (المرأة الجزائرية) عبر التاريخ ، والتي برهنت عن وعيها ووطنيتها واستماتتها من أجل الحفاظ على الوطن وقيمه وشخصيته . وما المرأة المجاهدة إلاّ امتدادٌ طبيعيٌ لتلك المرأة الجزائرية التي ما بخلت يوماً أو تأخرت عن العطاء والتضحية .

* * *

لقد كانت الحرية أبداً هي الشيء الذي لا بديل له لتقدم العقل وتطور الروح . وقد كان غياب الحرية باستمرار هو أداة تجميد العقل وإصابة الروح بالشلل . وبرهنت التجربة التاريخية عامة ، وتجربة التاريخ العربي ـ الإسلامي منها خاصة بأن أي تقدم للبشرية ، وأي تطور للإنسانية مرهونان بالحرية والعدالة . والحرية شيء لا بديل له ، لأنه ليس كالأشياء الأخرى التي تكتسب بالبيع والشراء ، وإنما هي شيء لا يمكن تحقيقه إلاّ ببذل الأرواح والدماء رخيصة في سبيله ، شيء لا يمكن شراؤه ولا بيعه ولا التفاوض على كسبه . وهنا يمكن القول بأنه ليس من قبيل المصادفة أن ترتبط الدعوة إلى تحرير الوطن بالدعوة إلى تحرير المرأة . وقد كان ذلك هو هدف جهاد المتعلمين والمفكرين والمصلحين . بل إن الرواد الأوائل الذين

تصدوا للدفاع عن المرأة كان معظمهم من المدركين بثاقب فكرهم مدى الحاجة إلى تحرير المرأة كضرورة اجتماعية وحضارية من أجل اللحاق بالمجتمعات الإنسانية المتقدمة . وهكذا ، فعند اندلاع الثورة التحريرية ، كان المناخ الاجتماعي الذي تعيشه المرأة متشبعاً بالاستعداد للتفاعل والحركة والعطاء . مثلها كمثل الجماهير الجزائرية بصورة عامة . لتعيش أخصب الفترات في تاريخ الجزائر الحديث . ووجدت لها المتنفس في غرة نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٤ .

إن عدد النساء في كل بلد يقدر بنصف سكانه على الأقل ، وبقاؤهن في الجهل والسلبية والتواكل يعد حرماناً من الانتفاع بأعمال نصف المجتمع ، ويكون سبباً في فشل عمل الرجل ذاته بنسبة كبيرة .

بهذا المفهوم المنطقي للثورة استقبل مناضل ومجاهد ثورة الفاتح من نوفمبر (تشرين الاول) ١٩٥٤ ، أخته وأمه وابنته ، ملقياً عليها أعباء كثيرة من مسؤوليات الصراع المسلح . وكانت عند حسن الظن بها . وقد اشتركت جندية وممرضة ومسؤولة عن التموين والسلاح . ومسؤولة عن الاتصالات السرية في جميع جبال الولايات الست ، زيادة على دورها المعروف في المدينة كفدائية ومسبلة . وكان ما كان . . . مما يقابل الكفاح والفداء من معاملات استعمارية ضد كل الثوار . فعذبت المرأة أشنع أنواع التعذيب . ولفظت روحاً سعيدة مع أنفاسها ، لأنها لم تعترف على مواقع إخوانها . واستعملت معها أبشع وأقذر أشكال الإهانة لإنسانيتها وطبيعتها ، وعوملت بوحشية وعذبت بالسجون والمعتقلات وحكم عليها بالإعدام . ورغم ذلك بقيت صامدة حتى النصر .



البيعة الشعبية (الفواطم) تحمي الثورة وترفع رايتها

وقد كانت (صحوة الموت) بالنسبة للاستعمار الفرنسي في الجزائر هي ثورة المستوطنين في ١٣ - أيار - مايو - ١٩٦١ . وإسقاط الجمهورية الرابعة في فرنسا واستيلاء ديغول على الحكم . يومها ، فتش الاستعمار في دفاتره القديمة عن كل سلاح يحاول تجربته لآخر مرة . ومن بينها سلاح (السفور) و(تحرير المرأة) .

وعقد (سوستيل) اجتماعات أطلق عليها صفة (شعبية) حشد الناس فيها بالقوة ، وخطب داعياً إلى (تحرير المرأة الجزائرية) . وتحت ضغط السلاح ، أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب وإحراقه ، في حركة مسرحية ، أمام الجماهير بعد انتهاء الخطب في ساحة أفريقيا بالعاصمة (الفروم سابقاً) . وكان هذا الحادث كله كأنه الإشارة السرية ، ففي اليوم التالي لم تظهر امرأة جزائرية واحدة في الطريق سافرة ، حتى اللواتي كن قد أسفرن عن وجوههن قبل الحادث عدن إلى الحجاب . كانت مظاهرة تقول للمستعمر أن الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر ، ولكنها تخلعه في ساحة القتال ، لترتدي ثياب الجهاد والاستشهاد .

لقد توافرت مجموعة لا نهاية لها من الشواهد التي تبرز دور المرأة أثناء الحرب ، وما تميزت به من الإقدام وروح التضحية . فوقفت نساء المدن وهن يتحدين قوة العدو التي كانت تواجههن وكن يزحفن للقاء الموت من أجل الكرامة . ولا زالت ذكريات المرأة الريفية نابضة بالحياة وهي تحتمل كل الصعوبات ، وتعاني من كل ويلات الاستعمار . وتضحي بنفسها وأولادها وزوجها لمساعدة المجاهدين . وكم من مرة رأت كوخها وهو يحترق أمام عينيها . أو أطفالها يقتلون ، أو زوجها وهو يحفر قبره بيده . ورأينا المرأة الجزائرية في الجبال وهي تحمل السلاح أو تعمل كممرضة أو

طبيبة ، وهي تنتقل من دشرة إلى أخرى . وخاضت المرأة المعركة بجميع جوانبها ، بكل حزم ، مثلها كمثل الرجل ، يداً بيد . وصمدت لكل أهوال الحرب حتى ساعة النصر . وبرهنت بذلك أنها عضو كفء لتحمل أصعب المسؤوليات ، وتنفيذ أخطر أعمال الفدائيين وسجل لها التاريخ ذلك بأحرف لا تنسى على مدى الأيام . وأصبحت قدوة يقتدى بها ، ومثالاً تحتذي به كل نساء الشعوب الباحثة على الكرامة والحرية[١] .

---

(١) ـ المرجع : (المرأة الجزائرية) ـ بتصرف ـ وزارة الإعلام والثقافة ـ الجزائر ـ ١٩٧٦ ص ٩ ـ ١٤ و ٢٠ .

٣ ـ لوحة شعبية
للمجاهدة الجزائرية

« يا نساء ولولوا . . . نحي علينا الغمة ! »

ويرتفع صوت امرأة ثانية ، يغلفه الانفعال ذاته ، فيجيب بلهجة نصف آمرة ، ونصف متوسلة :

« لا ، لا ! الدياب يهجموا علينا » الذئاب ستهجم علينا لتأكلنا ، لتطردنا من المحكمة !!

يا للحوار العجيب !

كان ذلك يوم ١٢ كانون الثاني ـ يناير ـ **١٩٥٩** . حيث كانت المحكمة العسكرية تعقد جلساتها بشكل استثنائي في قصر العدل في مدينة الجزائر لمحاكمة (الاتحاد العام للعمال الجزائريين) . وكان الجو هو الآخر غريباً . الجمهور واقف ، كثير العدد ، ومعظمه من الجزائريات المحجبات . إن الصورة التي أعطيت عن زمن السلم تذكر بقصيدة الشاعر الفاسي الذي غنى « الجمعة ، يوم خروج الريم » الغزلان البيضاء التي تشاهد أيضاً في مدينة الجزائر حول الحمّامات وقبو القطار ، وضريح سيدي ابراهيم ـ قرب الأميرالية ـ أو حول جامع سيدي محمد في « البلكور» . لكن الصور الخيالية تتلاشى عندما يتجه النظر تحت تأثير قرقعة السلاح ، إلى جموع

الجنود والشرطة ، اللابسين ثياباً مدنية ، يحاصرون جمهور المحكمة النسائي . إنه لمن الأقرب إلى المعقول والواقع أن يتذكر المرء اللوحة الشهيرة التي رسمها مواطننا (الحاج إتيان ديني - الرسام والكاتب) وجسد فيها رؤ ياه السياسية والجمالية لسكان الجزائر الأصليين ، فقد صور جزائرياً مقيداً يمشي بين فارسين من فرسان الجيش الاستعماري ، على طريق النفي إلى سجن في الصحراء .

إنها لوحة حية للجزائر المجاهدة ، فالنسوة المجتمعات تراهنَّ حول السجون ، وحول الثكنات ، وحول مراكز التعذيب وحول معسكرات الاعتقال والمحاكم العسكرية ، لذلك كن مرهفات الحساسية إزاء التكريم العلني الذي أداه لهن الجميع . فقد عمدت (جبهة التحرير) وهي في قفص الانهام ، إلى تمجيد وطنية الجزائريات اللواتي أعطين الثورة - قلبهن وروحهن - مجاهدات وفدائيات ، مجندات ومقاتلات .

ذلك هو المنبر التقليدي - الكلاسيكي - للثوريين . إن الاستجواب يستحيل مديحاً هجومياً للثورة التي لا تقهر . ولقد لجأت جبهة التحرير إلى استخدام جميع الوسائل لبلوغ غايتها ، وهي استقلال الجزائر .

* * *

مارس الفدائيون في المدن دور قوة مغناطيسية ، بصورة طبيعية تماماً ، وكللتهم نساء بالمجد الصوفي ، وهو ذات المجد الذي يكلل هامات المجاهدين المرتدين لثياب الجنود النظامية . إن المحبة الجماعية ، الدينية والوطنية ، للمجاهد ، تتحد بنوع آخر من التقدير ، هو الإعجاب بوجه المحرر الذي ضرب في كل يوم موعداً له مع الموت . وتجذرت هذه المشاعر في أعماق قلوب الشعب ، وكان



خطوات ثابتة ـ في موقف يثير الهلع وسط الاستعماريين

التعبير عنها لدى هذا الشعب هو في التضامن العملي مع الأبطال . لقد كان الولاء والشجاعة ونكران الذات من الصفات النادرة جداً في ظهورها سنة ١٩٥٤ ، فأصبحت ابتداء من سنة ١٩٥٦ ، وعند ولادة فرق الجهاد في المدن عملة رائجة ، كثيرة التداول . وللمسلمات حساسية خاصة تجاه القدر الذي رسمته السماء للمحارب الذي جعل منه الإسلام بطلاً مثالياً غير خاضع لعوامل الضعف البشري . وهن يؤ وين منقذي الوطن المدنس ، ويوفرن لهم الطعام ويخدمنهم ، ويعالجن الجرحى ، ويخبئن الهاربين والمطاردين . وأصبحت النساء المسلمات بطريقة عفوية ، مساعدات ورديفات للفرق المسلحة ، يؤمّن الاتصال العاجل ، بل ينقلن حتى السلاح أو الذخيرة. وهن يعتنين بأيتام الأمة الجريحة ، وأبناء الشهداء ، الشهداء الناصعي الجبين والقلب ، والذين يمكن دفنهم بثيابهم . فهم ـ وفقاً لما سنه الشرع ـ في غنى عن مراسم دفن الموتى ـ التقليدية ، ولا حاجة لتكفينهم بالأكفان البيضاء الناصعة .

وهكذا فإن إرهاب المدن لم يتدخل بشكل كيفي في عملية تطوير المقاومة الإجماعية للشعب ، وإنما هو آنطلق من قلب الجماعة ، ووفق التأييد الجماعي ، حيث الظروف الموروثة مباشرة من المجتمع الإسلامي ، تتيح المجال أمام المساعدة المتبادلة . ويمكن إيضاح هذه العلاقة الجدلية المتبادلة من خلال مثلين عكسيين :

في الحالة الاولى : يظهر إرهاب المدن وهو يمارس دور الوازن السياسي للقوى الشعبية .

في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٦ ، حدثت الاعتداءات الأولى على الأوروبيين ، وكانت أعمالاً انتقامية مشروعة . فلقد كانت جبهة

التحرير الجزائرية قد أعلنت في بياناتها أنها ستثأر للمجاهدين (زيانان) و(فراج) جنديـي جيش التحرير اللذين وقعا في الأسر وهما في ثيابهما العسكرية ، وأعدما بالمقصلة ، خلافاً للأعراف الدولية في ما يتعلق بأسرى الحرب .

وفي تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٦ ، حدث أول اعتداء غاشم ! جريمة رهيبة ! أول قنبلة استعمارية ! فقد وضعت ليلاً في شارع (طيبة) ولما انفجرت دمرت بضعة منازل عربية وذهب ضحيتها (٥٣) شخصاً وسقط مئات من الجرحى . وثارت ثائرة (حي القصبة) وعم السخط ورغبة الانتقام كل السكان . ولم يهدىء هؤلاء غير التدخل المباشر ، التدخل الجسدي والسياسي للفدائيين والفدائيات . وجاء كاتب فرنسي ليعالج الموقف : « حيال اللامبالاة العامة ـ ظاهرياً ـ في موقف الرأي العام الفرنسي ، والسلطات العامة الفرنسية ، نجد أن المسلمين في اضطراب شديد : لقد دب فيهم الشعور بأنهم أُسلموا ، دون حماية ولا سلاح ولا عون شرعي من أي نوع كان ، إلى الجريمة بكل معنى الكلمة ، إلى التقتيل ، وعندما انفجرت بدورها ، بعد ذلك بشهرين ، القنابل الأولى لجيش التحرير الوطني الجزائري ، استقبلت بالترحاب الحار في أوساط أكثر فأكثر أهمية بين أوساط الرأي العام عندهم ، ولا غرابة بعد هذا أن يظهر واضعو القنابل بمظهر ـ حماة الشعب ـ و ـ الأبطال الوطنيين[١] ـ » .

لا شك مطلقاً في أن ذلك الاتصال الحميم مع الجماهير ، أو بالأحرى تلك الحياة داخل الشعب هي التي جعلت جبهة التحرير

---

(١) جرمين تيون (الأعداء الإضافيون) باريس ١٩٦٠ ص ١٧٦ ـ ١٧٧

الوطني قادرة على تجنب الموجة الحيوانية التي أطلقتها منظمة الجيش السري الفرنسي . ولقد عمل إرهاب المدن ، إرهابنا المحرر ، كصمام الأمان . وأتاح للمواطنين الذين أرهقهم الصراع غير المتكافىء ، وأثارهم الظلم الفرنسي الذي استمر يمارس ضغطه على الأفريقيين دون الأوروبيين ، أن يفجروا كبتهم ، وأن يحتفظوا برباطة جأشهم ، وأن يتقيدوا بالانضباط الثوري . أجل ! لقد تصرفت (فرق الموت) في كل من (الجزائر ووهران وقسنطينة وتيزي أوزو وسطيف الخ . . .) تصرف القوى السياسية حتى تحول دون وقوع مجازر طائفية . واعترفت بذلك صحيفة فرنسية ، ولو أن الاعتراف بهذه المأثرة قد تأخر كثيراً ، حيث ذكرت ما يلي :

« لا ريب في أن الانضباط الصارم الذي تتحلى به جبهة التحرير الوطني هو الذي كبح جماح المسلمين عن القيام بعملية انتقام من الأوروبيين . حيث كان تأثير الجبهة أقوى بكثير من عامل الخوف من الجيش الفرنسي[٧] » .

نصل الآن إلى الحالة المعاكسة ، وهي أن القوى الشعبية بالمقابل ، تؤمن إيماناً مطلقاً بالقوة غير المحدودة لإرهاب المدن .

واذا كان واضعو القنابل يظهرون بمظهر (حماة الشعب) فإن الطاقة البشرية ستكون ، بالتالي ، دائمة التفجر ، ولن تنضب . إنه (الاختيار) الذي يلغي الذريعة السخيفة التي يتذرع بها العقداء السافلين ـ الكولونيلات ـ وهم يحاولون تفسير التجدد الدائم للباحثين عن الخطر والعذاب والاستشهاد ، بأنه نتيجة الإكراه لا الاندفاع . إن تجميع الفدائيات يتم وفقاً لاختيارهن المطلق الحرية . ويمكن في

---

(١) صحيفة (الإكسبرس) الفرنسية ٨ /٣ /١٩٦٢

هذا المجال ذكر أسماء الفتيات (ملقيات أو قاذفات القنابل) اللواتي نجون من الموت ، واللواتي رفضن العودة إلى العمل حيث فقدن القدرة على المجازفة بحياتهن من جديد ، أو القيام بتنفيذ الواجبات بما يتطلبه تنفيذها من الشجاعة إنه مثل بين الأمثلة عن المشاركة النسائية في انطلاقة الثورة العملاقة . وفوج المجاهدات من بنات المدينة هو على صورة الإجماع الشعبي كله . وبالإضافة إلى تنوع أصولهن أو طوائفهن ، هناك التنوع الإجماعي (فبين المجاهدات الفتاة والأم) أو المهني (طالبات حقوق أو طب ، موظفات ، عاملات في المنازل ، خادمات أو ممرضات طالبات ، معلمات بالفرنسية أو بالعربية ، عالمة ، مذيعة وممثلة ، مولدة، طبيبة . .) هذه ثروة ساحرة من إنكار الذات على الصعيدين الشخصي والعام. إن الجزائريات ، كل الجزائريات ، قد انتزعن حقهن بالمواطنة الكاملة غير المنقوصة . وسيكملن ذكرى الشهيدات الخالدة . ذكرى الشقيقات الشهيدات في قلب المعركة التحريرية . وهذه بعض الأسماء في قائمة طويلة ومقدسة .

زاهية ، سقطت شهيدة وسلاحها في يدها إلى جانب رامل .
حسيبة بن بو علي ، دفنت حية مع علي لا بوانت (عمر علي) ومحمود ، ١٧ سنة ، وعمر ١٣ سنة .

ورويدة مداد ، ألقيت من الطابق الثاني من مركز التعذيب في مدرسة ساروي .

بهية ، بترت ذراعاها ، وأحرقت ساقاها بلهيب الغاز المذيب للمعادن .

أما الناجيات من الموت ، اللواتي سبق أن أصدرت المحاكم العسكرية الاستعمارية أحكاماً بإعدامهن ، فقد كن يعرفن كيف يؤثرن فينا ، كأن يروين لنا ، بمنتهى التواضع ، قصص نشاطهن المحفوف بالمخاطر . إننا سنعود ـ في الفصل الثاني ـ لنكتشف مرة أخرى في أدب المقاومة شهاداتهن المباشرة حيث الكلمات العادية ، البسيطة ، تتحول في روايات (سجن فرين) وسواه من المعتقلات الى قصائد شعرية تعجز عن بلوغها كلمات الشعراء ، وتصوراتهم المبدعة المجنحة .

لقد كان إرهاب المدن هو الخميرة المولدة للبطولة الثورية التي تفتحت على تحولات اجتماعية مذهلة .

* * *

يختلف الواقع النفسي ـ السياسي اختلافاً تاماً عن الفكرة التي يكونها عنها (الشيوعي الفرنسي) أو (الجزائري المهاجر المتفرنس) حين يتحدث عن جزائر يجهلها .

لقد نصبت الثورة نفسها ، بمراقبة جبهة التحرير الوطني ، مدافعة عن ذاتها ، لتنقذ كرامة المجموع وكرامة الفرد . وكل جزائري ، وكل جزائرية ، واعيان إلى ضرورة التنكب عن العفونة للوصول إلى التقدم والنهضة . ليس صحيحاً أن الفعالية هي بالضرورة غير صافية . إن السلوك الجماعي والفردي للمجاهدين يثبت على الضد ، أن الصفاء هو الفعال . وكيف يمكن الشك في هذه الحقيقة عندما لا تكون أعمال الفداء والجهاد والقتال المسلح امتيازاً خاصاً بالرجال ؟

النساء حاضرات في كل مكان من الثورة الوطنية . لحسن الحظ ! ذلك أنه إذا ما أريد تقدير المقاومة الإنسانية الخارقة حق قدرها . فإنه لا بد من التذكر أبداً تلك المخططات الرهيبة التي وضعها (لاكوست) و(غي موليه) . والتي أشارت إليها كاتبة فرنسية ـ بموضوعية ووضوح في صحيفة شيوعية :

« **الخلاصة : تلقى الجيش الفرنسي أمراً في أيلول ـ سبتمبر ـ من العام ١٩٥٦ يقضي بإبادة العناصر القيادية السياسية ـ العسكرية للثورة ـ العصيان ـ وبكل الوسائل . والترجمة العملية لمضمون العناصر السياسية ـ العسكرية المقصودة ، هو جميع شخصيات المدن وصفوتها ونخبتها ، وجميع الشباب المتعلم**[١] » . ودعمت الصحيفة الشيوعية المشار إليها وجهة نظرها على (جريمة الحرب) . وأبرزت الاستنتاجات الخاطئة التي استخلصها الضباط الفرنسيون أثناء إبادتهم للمواطنين الرجال إبادة منهجية منتظمة . حيث أخذ هؤلاء الضباط ينبشون شعرهم ـ كعادتهم ـ كلما باغتتهم المفاجآت غير السارة ، وكان نوع المباغتة في هذه المرة جديداً عليهم . وهو كما ورد في المصدر الفرنسي : « **من الممكن أن يكون هؤلاء المحاربين نساء . ففي يوم ٨ أيار ـ مايو ـ ١٩٦٠ ـ نشبت معركة ضارية في ـ ميديا**[٢] **ـ وكان عدد من النساء المسلمات يقاتلن جنباً إلى جنب مع فرقة من فرق جيش التحرير الوطني الجزائري**[٣] » .

---

(١) السيدة جرمين تيون (لانوفيل كريتيك) النقد الجديد ـ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٦١ ص ١٨ .

(٢) تقع مدينة (ميديا) على بعد ثمانين كيلومترا إلى الجنوب الغربي من مدينة الجزائر .

(٣) لانوفيل كريتيك ـ الجيش الفرنسي واستراتيجية جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٦٠ .

وهذا مثل آخر غير معروف . عثر الجيش الفرنسي على وثيقة نادرة في حقيبة أحد المحافظين السياسيين (الموجهين) الذي وقع شهيداً في أحد الكمائن التي نصبها الجيش الفرنسي لرجال المقاومة في (تابلات) وكانت هذه الوثيقة النادرة تتضمن خطة العمل السياسي العسكري المتعلقة بمنطقة الجزائر العاصمة حيث أعلنت وفاة (جبهة التحرير الوطني ـ في العاصمة) مرات عديدة ، ثم لا تلبث أن تبعث من مرقدها . ولكن ما أثار فضول ضباط (الحرب النفسية) هو أن الوثيقة كانت مكتوبة بخط امرأة . وهذا لمما يدعو إلى العجب مرتين ، فحتى الآن لم يعط جيش التحرير الوطني دليلاً بمثل هذا الوضوح على قبوله الجناح النسائي بين صفوفه . إنه يقبل المعونة النسائية كقوة دعم إضافية ، ثانوية ، ولبثت هذه ـ الترقية أو الترفيع للمرأة ـ تشغل بال (العارفين العالمين) بشؤون (النفسية البربرية ـ الإسلامي) . ثم من تكون هذه المرأة . **أتكون ـ فاطمة ما ـ رئيسة للشبكة ؟ .**

تم اعتقال (الزعماء الإرهابيين) دون سواهم ـ في الليل ـ وسط تحركات للقوى العسكرية نظمت بدقة ونفذت بمهارة . وأخضعت الموقوفة للتعذيب طوال اثنين وعشرين يوماً . لكن المرأة لم تغير حرفاً واحداً مما قالته في البداية . إنها لم تحاول أبداً أن تمثل دور (جان دارك) بحسب تعبير أحد الجلادين الذين عذبوها . ولم تكن سوى ضابطة ارتباط . ولم يجدوا في بيتها قطعة سلاح أو قنبلة أو منشوراً أو شيئاً من ملفات ـ أرشيف ـ جبهة التحرير الوطني . أما فيما يتعلق بخطة العمل التي عثر عليها في الجبل ، فإن دورها فيها كان مقتصراً على (إعادة نسخ) نص تم إتلافه فيما بعد لتضييع كل أثر من آثار واضعه . واعترفت بأنها سبق لها أن أمضت في السجن عاماً كاملاً .

لكن ألم تعلن المحكمة العسكرية الفرنسية براءتها ؟ إنها أم لأربعة أولاد ، تعمل خياطة ، درست المرحلة الابتدائية ولكنها لم تحصل على الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) .

ووقع ضباط (الحرب النفسية) الفرنسيين ضحية تخيلاتهم المريضة وافتراضاتهم الخاطئة . إنه لم يكن باستطاعتهم تصور ارتقاء المقاومة الجزائرية وارتفاعها إلى مرتبة سامية . إذ كان مثل هذا الارتقاء في اعتبارهم هو امتياز لحضارة متفوقة : كالمقاومة الفرنسية في عهد إحتلال النازية لفرنسا ، أو مثل المقاومة الصينية أو حتى الفييتنامية ؟ وأخذوا يعيبون على أنفسهم أنهم اعتقدوا إلى حين بأنه من المحال على مسلمة مغربية ، حتى لو كانت تمتلك ثقافة جامعية ، أن تبرهن على قوة عقلية تجمع إلى إرهاب المدن النشاط النقابي المنظم ، كنجدة عائلات المعتقلين الذين عاقبوا جندياً حاول تلطيخ ذكرى المجاهد الشهيد (عيسات ايدير) النقابي الذي مات ضحية الغدر . وكتأليف جميعة لتظاهرات النسوة مطالبات بحماية الفتيات ضد وقاحة الأرزال والزعران ـ من الفرنسيين . .

كان ذلك في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٩ . وإن قبول امرأة في مركز مسؤول ، تحتل فيه المبادرة محل المشورة ، إنما هو اختيار أكثر مما هو رمز . إنه برهان على النضج الاجتماعي ، وتهديم لأسطورة ـ تخلف ـ الجنس الضعيف . وإعلان عن مدى مشاركة الجزائريات في إرهاب المدن والأعمال الجماعية .

حدث في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٦٠ . حادث (عجائبي) باغت الأعداء والانهزاميين الذين كانوا قد اعتقدوا بنصر المظليين نصراً نهائيـاً إبّان معركة الجزائر العاصمة . حتى أن بعض العقول الكبيرة كانت قد بدأت اعتقادها بفشل إضراب الثمانية الأيام ، فيما

كان نجاح ذلك الإضراب العام يبلغ غايته : وهي إظهار جبهة التحرير الوطني أمام الامم المتحدة بأنها الممثلة الحقيقية والوحيدة للشعب الجزائري[1] .

وظلت روح الثورة الجزائرية تشع بالأمل ، على الرغم من الوحشية الرهيبة الفظيعة . وظهرت حيويتها المتجددة أبداً ، في الشوارع تحت أشكال مواكب وطنية تلوح فيها النساء بعشرات الأعلام الخضراء والبيضاء . . .

هذا الانبعاث الذي تم لجبهة التحرير الوطني بفضل التعبئة الشعبية ، ولم يتردد ضباط (الحرب النفسية) بإصدار بيانات تزعم أن سبب بروز هذه الظاهرة هو دعم الحزب الشيوعي الجزائري للثورة . بالرغم من معرفة هؤلاء الضباط لما كان يقدمه الشيوعيون من مقاومة للثورة . وكان الضباط في حاجة (لمشجب) يعلقون عليه أسباب فشلهم ، على أن يكون لهذا المشجب هيبة دولية ، حتى يعطوا فشلهم طابعاً بطولياً ، فلم يجدوا غير مشجب الشيوعية الذي يعطي العمل الثوري طابعه الدولي[2] .

---

(١) جاء في صحيفة (لوموند) ٢١/٢/١٩٦٢ للكاتب (روبير غوتيه) : « يستطيع زعماء الجبهة المباهاة بمالهم من تأييد شعبي واسع . وقد أثبتت إضرابات كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٦ وإضرابات كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٦٠ . أن أوامر الزعماء تلقى أكبر عدد من الآذان الصاغية . وقد ذهبت كل المحاولات التي بذلت لتكوين قوة ثالثة إدراج الرياح » .

(٢) تم في هذه الفقرة ، والفقرة التالية ، الاعتماد بصورة أساسية على كتاب (الجهاد الأفضل ـ عمار أوزيغان) دار الطليعة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ نيسان ـ ١٩٦٤ ص ٢٠٥ ـ ٢٣٤ .

٤ ـ زغاريد النساء
(اليويو)

نحن بنات تبع وحمير　　وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر　　اليوم تسقون العذاب الأكبر

ذلك هو نموذج من رجز الحرب ، أطلقته المجاهدات في سبيل الله يوم فتح الشام . وكانت خولة بنت الأزور ، وعفرة بنت غفار ، وأم إبان بنت عتبة ، وسلمة بنت النعمان تتقدمن جموع النساء وهن تحملن أعمدة الخيام لقتال الروم . وتشتد المعركة في اليرموك ، وتقف مجموعة من النساء خلف المجاهدين ، وهن تستثرن الحماسة بما ترتجزنه من الشعر ، وما تطلقنه من الزغاريد :

أين أين عز الإسلام والأمهات والأزواج .
قبح الله رجلاً يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته .
والله لستم بعولتنا إن لم تمنعونا .
يا هارباً عن نسوة ثنيات　　فعن قليل ما ترى سبات

ويبقى الرجز ، وتبقى صيحات النسوة ، من الظواهر المميزة لحروب الإسلام والمسلمين ، حيث وقفت المرأة إلى جانب الرجل ، تشاركه أمجاد انتصاراته وتشاطره مرارة هزائمه وانتكاساته ويغمض التاريخ عينه في إغفاءة ، ليستيقظ على رؤ ية الصورة ذاتها ،

ولكن مع بعض التطور . لقد بقيت المرأة الجزائرية صامدة صابرة على البلاء ، مقتدية بسيرة خولة وهند وسلمة في الحروب والمعارك ، غير أن طبيعة المعركة تغيرت وأسلوبها تبدل وسلاحها تطور . وكذلك تطور (أسلوب الرجز في الحرب) . فحلت الزغاريد ـ اليويو ـ وكان الرجز التقليدي . وكانت هذه الزغاريد ـ سلاحاً حير الاستعماريين وأرهب جنودهم . ولم تفت صحيفة (لوموند الفرنسية) الإشارة إلى غيظ جند الاستعمار وعجزهم أمام صرخات (اليويو) الداوية تطلقها (فاطمات هستيريات) .

إنها لظاهرة مذهلة ! كيف يمكن للتغريد الشعبي ـ الفولكلوري ـ في حناجر المسلمات الجزائريات أن يحطم أعصاب المرتزقة محترفي القتل ، ويشعل نار الغضب وكراهية المرأة في قلوب الضباط المتخرجين من كلية الحرب (سان سير) ؟ .

كانت (اليويو) قبل الثورة صيحة فرح تطلقها المغربيات المسلمات في الحفلات التقليدية : في الخطبة والعرس والولادة والختان والعودة من الحج ، الخ . . . ثم صارت الهتافات المعبرة عن الفرح نادرة في سنة ١٩٥٥ . ثم اختفت نهائياً من الحياة الاجتماعية الجزائرية باختفاء كل مظهر من مظاهر المرح واللهو اختفاء عفوياً ، تلقائياً ، ابتداء من الغناء ومروراً بالرقص الشعبي ونهاية بالموسيقى وعزف الناي وقرع الطبول . ولم يكن ذلك بوحي من (سوق عكاظ جبهة التحرير الوطني) . إن ما أوحى بالرقابة الذاتية هي الحشمة وحدها . هذا الشعور بالحياء الذي يمتزج في الإنسان بخوفه من احتقار نفسه إذا هو أظهر فرحه الأناني ، والتعبير الصامت عن التحسس العميق بأحزان الأمة . لقد ابتلعت المآسي والأحزان كافة ظواهر الفرح .

إنه لتحول عجيب ! إن عودة (اليويو) بذلك الشكل المباغت هي في حد ذاتها لغز غامض يثير التساؤل والدهشة . لا سيما وأن هذه العودة ترافقت مع تصعيد الحرب الرهيبة . وهذه هي (الولولة) القديمة البريئة والهزيلة ، والتي لم تكن تتجاوز حدود المنازل ، قد تحولت بغتة إلى (صيحة حرب) تطلقها جوقة من النساء ، جوقة لا يحصى عدد أفرادها ، جوقة خفية ، مثل زئير الهزة الأرضية ، أو تفجر البركان من أعماق المدينة كلها .

إن (المثقفين الفرنسيين) بارعون ملاعين ، لديهم خبرات كثيرة في شؤون العالم . فقد تعلموا جميع أنواع حيل الحرب في صراعهم مع شعب الهند الصينية (فيتنام) . وكثيراً ما كان الفلاح الفيتنامي أو المرأة الفيتنامية يضللانهم ويحيرانهم . فكيف يتحسبون لما قد تبتكره (الفواطم المسلمات) من أساليب للعمل محض جزائرية ، جديدة في مفهومها ، جديدة في تطبيقها ، جديدة حتى في بساطتها وديناميكيتها وفعاليتها ؟ . . . كيف يفسرون هذه القدرة (ولولة النساء أو زغاريدهن) على مسح عقدة الخوف ، وإطلاق المجال لآلاف الثوار (الفلاقة) للعمل في (المدن المقموعة ـ المكبوتة) . والتصدي لوسائل الفاشيين المرعبة ، وإيقاف تظاهرات الاستعماريين ؟

لقد أصبحت صيحات (اليويو) مصدر وحي للشعراء الناشئين في جزائر الثورة ، إذ وجدوا فيها تعبيراً عن عبقرية الشعب الخلاقة المبدعة المجددة ، فهل يمكن وضع تحديد أو تعريف لهذه الولاويل أو الزغاريد الوطنية ؟

انها المد المعروف ، المألوف ، لحرف واحد على أنغام عديدة يؤديه شخص واحد ، ثم يشاركه عدة أشخاص ثم يتسع المد ويكبر

شيئاً فشيئاً ودون توقف . فكلما توقف أو انتهى فريق من إرسال النداء ، تولى فريق آخر المهمة عنه ويرتدي (اليويـو) مسحة من الـرتـابـة ، غيـر أنهـا رتـابـة زائفـة ، وغيـر حقيقـة ، فـالصـوت يتبـدل بتبدل قـوة الاصـوات المختلفـة وكثـافتهـا وتنـوعهـا . كمـا يحـدث في جـوقـة مؤلفـة من عشـرين ألف مغنيـة . إنهـا فـرقة (كـورال) لا مثيل لهـا في العالم تنشـد (اليويـو) بـطريقـة مثيرة للأعصاب بقدر ما هي مؤثرة في النفس ، تصل قوية فتهز أعماق الوجدان ، وتخاطب العقل فتصفعـه وتفقده الشعـور والإحساس .

و (اليويو) تحمل معان مختلفة ، فهي في وقت واحد (صفارات الإنذار) و(أنين التأوهات الساحرة) و(زئير الغضب) و(تلاوة مقدسة) . ولقد مارست (اليويو) المعادية للاستعمار تأثيراً لا يقاوم . وكانت قادرة باستمرار على التقمص في البطولة الجماعية .

وقد أعجزت (اليويو) حتى خبراء (السكان الأصليين) عن فهمها . ووقف الرجعيون والصوفيون السياسيون في حيرة من تفسيرها : أهي نوع من الوباء ؟ أم هي نوع من الذهول المعدي ؟ أم هي نوبة من نوبات جمهور هادر ؟ أم هي مس من فعل الشيطان ؟ . . . على أنه ليس ما هو أقرب من (اليويو) إلى العقل . وليس أكثر منها وعياً وهدوءاً كوسيلة جديدة وفذة من وسائل العمل الجماعي . وتعبئة مجموع سكان (قصبة) ما ، أو مدينة ما ، و(اليويو) أيضاً صرخات مشحونة بالمعاني المحددة المتنوعة بحسب الظروف . فقد تكون (كزقزقة العصافير) في الليل ، إشارة إنذار تعلن قدوم دوريات الأعداء ، أو (صرخة تحذير) من أجل تجنب خطر كمين أو تهديد صادر عن (منظمة الجيش السرية ـ الإفرنسية) . وهي أيضاً (نداء للمساعدة) أو (استنفار للمقاومة) ضد الاعتقالات . وهي فوق ذلك

كله (تقدير إجماعي لبطولة جيش التحرير الوطني ومآثر رجاله) .

وحين يتظاهر الوطنيون فاتحين صدورهم لنار المظليين الوحشية وقنابل المتطرفين الجبناء المختبئين وراء الشرفات والمتاريس . كانت (اليويو) تتصاعد من الجزائريات وهن على سطوح منازلهن أو في نوافذ غرفهن أو حتى وهن سائرات في الطرقات ، فتكون صرخات تشجيع في بداية الأمر ، ثم تتلاحق من غير توقف ولا انقطاع لتتحول في النهاية إلى نوع من الصلاة على الشهداء ، تمجيداً لتضحية فتيان العشيرة الذين مضوا للقاء ربهم وقد نالوا (خير الحسنيين) .

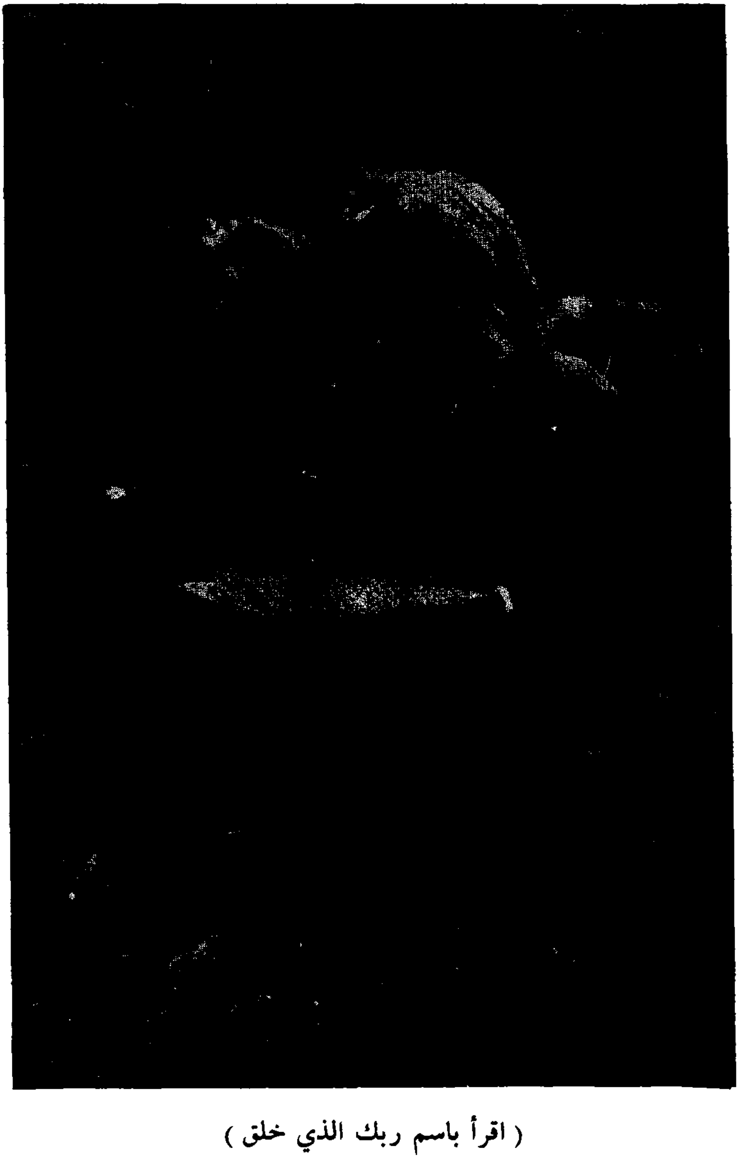
كانت هذه (اليويو) أقوى من الرصاص الذي عجز عن إسكاتها ، فكانت تخترق آذان قاتلي الأطفال والنساء مجرمي الحروب الاستعمارية ، فترهقهم وتعذبهم وتبقى كابوساً يطاردهم حتى في أوكارهم ومعسكراتهم . وكان (يويو) النصر بالنسبة لهؤلاء الذين (أكلوا خبز المساوىء) هو الرعب المسيطر في العاصفة . مع **هذا الوسواس بأن هناك موسيقى قادرة على تدمير كل شيء . موسيقى الثورة الجزائرية الأصيلة ، والتي ترافقها تهاويل أحلام تتراقص فيها نيران هائلة . كما لو أن تفتح الجزائر الشعبي ليس إلاّ امتداداً لذلك الموج العربي - الإسلامي الذي أتعب الدنيا ولم يتعب ، وهو ما شكل مصدر الرعب للاستعماريين . قبل الثورة وأثناءها وبعد انتصارها .**

٥ ـ رسالة من مجاهدة

(بلا حقد ولا شفقة)

ذلك هو الشعار الذي أطلقته مجاهدة جزائرية للتعامل مع الأعداء . وتبناه مجاهدو جيش التحرير وطبقوه . ومن هذا المنطلق ذاته ، منطلق القوة والثقة ، كتبت أخت مجاهدة كانت تعمل ممرضة مع المجاهدين . والهدف من رسالتها هو الإبقاء على الذكريات ـ ذكريات الجهاد ضد الاستعمار ومآسيه ـ حية ، قومية ، تحفز أبداً للبقاء في حالة استنفار حتى يتم القضاء على رواسب الاستعمار وذيوله . وكان في رسالة الاخت المجاهدة :

« انتشر في شهر آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ خبر هام عرفته الجزائر كلها ، ثم وصل إلى أسماع العالم جميعه . وكان هذا الخبر يتلخص بأن القوات الاستعمارية قد ألقت القبض في إحدى (عمليات التهدئة ـ ببني مصرة) على ثلاث ممرضات أسماءهن : (فضيلة مسلي) و (صافية بو عزيز) و (مريم بو المهيوب) . وانتهزت الصحافة الاستعمارية الفرصة ، كعادتها ، وفسرت وجود الفتيات بين المجاهدين تفسيرات دنيئة منحطة . ولم يخجل السادة العاملون في صحيفة (صدى الجزائر ـ ايكور الجير) والعاملون في الصحف



(اقرأ باسم ربك الذي خلق)

الأخرى التابعة للدوائر الاستعمارية من أنفسهم وهم يطلقون الافتراءات الفاحشة .

ويعرف الشعب الجزائري كما يعرف الرأي العام العالمي أن المستعمرين الافرنسيين قد أفلسوا ولم يبق لهم من وسيلة لمواجهة ثورة الشعب الجزائري غير الدس الرخيص وإشاعة النوايا السيئة . ويلزمنا أن نعترف أن للحادثة أهميتها . إذ كيف يمكن للفتاة (الموريسكية) أن تحمل السلاح وتناضل مع المجاهدين ؟ تلك خيبة أمل قاسية هزت أسس اللعبة الاستعمارية في وقت احتصار الاستعمار . ولقد خطت الجزائرية بفعلها هذا خطوة حاسمة . فلقد ظهرت على حقيقتها . ومن هنا فقد أصبحت مريم وصفية وفضيلة رمزاً للمرأة الجزائرية الأصيلة . تلك المرأة التي حاول الاستعمار الكريه أن يدمرها بمختلف الوسائل والسبل . وفشل الاستعمار في محاولته التي استمرت طوال (١٢٦) سنة . واحتفظت المرأة بأصالتها الجزائرية . وهذا الشعور بالأصالة هو الذي يوحد اليوم بين نساء الجزائر ، لا فرق بين من تسكن المدينة أو تقيم في القرى ، حيث تشتركن جميعاً في الجهاد لتحرير وطننا . . الخ »

* * *

تلك مقتطفات من رسالة (أخت مجاهدة) غير أن هذه الرسالة لا تكفي لإعطاء صورة كاملة عما قامت به المرأة الجزائرية المجاهدة . ولعل في (القصص الوثائقية) الواردة في القسم الثاني من هذا الكتيب ما يغطي هذه الناحية . وتبقى هناك نقطة ثانية وهي ما تعرضت له الجزائر المجاهدة وثوارها من معاناة مريرة عبر (الإرهاب الاستعماري) وهو موضوعٍ (الفصل الثالث) من هذا الكتاب . ولئن كان هذا الإرهاب مركزاً ضد المجاهدين والفدائيين

والمسبلين ، غير أنه كان أكثر شمولاً بحيث لم ينج منه أحد من أبناء شعب الجزائر. وبديهي أن تحتمل (المرأة الجزائرية) القسط الأكبر من الضغوط الناجمة عن هذا الإرهاب . علاوة على ما لحق بها من الضغوط المباشرة و(المعاناة الشخصية) .



حملت المرأة السلاح ووقفت الى جانب الرجل

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ .

(سورة البروج ، الآية ٨ ـ ١٠)

الفصل الثاني

١ ـ قصة (عقيلة) وزوجها (الملازم سي الأخضر) .
٢ ـ من ملف الذكريات مع (فضيلة سعدان) .
٣ ـ نساء جزائريات في (معسكر الاعتقال) .
٤ ـ أم الشهيد .
٥ ـ مجاهدة وأم شهيد .
٦ ـ جميلة بو حيرد .

١ ـ قصة (عقلية) وزوجها
(الملازم سي الأخضر)(*)

كانت (زمورة) في صيف سنة ١٩٥٩ خاضعة للاحتلال العسكري الإفرنسي . وقد نظمت القوات الإفرنسية أمورها على النحو التالي : تمركزت القوة الرئيسية في الثكنة الكبيرة بقيادة النقيب ـ الكابتن ـ (أموريك) . في حين احتل (المكتب الثاني ـ أو الاستخبارات العسكرية) بناء هو عبارة عن بيت قديم كان يقيم فيه القائد ثم أعيد إصلاحه ليفي بالمتطلبات التي يحتاجها رجال الاستخبارات . وقد تمركزت فيه وحدات فرنسية ، ووحدات من (الحركيين) واجبها الرئيسي هو القيام بدوريات ليلية لاعتقال المواطنين واستجوابهم وتعذيبهم بمختلف الوسائل : (بما فيها إرغام المعتقلين على شرب البترول وماء جافيل وتسليط الكهرباء على الأعضاء التناسلية والأجزاء الحساسة من الجسم) . وأخيراً كانت

(*) كاتب القصة هو (لقمان بن هيزيا) وقد وقعت أحداث القصة في قرية (زمورة) التي تبعد مسافة (٣٣) كيلومتراً عن (سطيف) . والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED ALGER. (1977) P. P 319- 328.

هناك (الوحدة الإدارية الخاصة)[1] ورمزها (س . آ . س) وهي تمارس دور عمدة الإقليم ، وتنافس المكتب الثاني أو الاستخبارات في مجال اضطهاد المواطنين وتعذيبهم . إذ كان أي مواطن مضطراً لسبب من الأسباب أن يلجأ اليها من أجل الحصول على وثيقة إدارية ، أو من أجل قضية روتينية ـ رتيبة ـ من أمور الحياة اليومية ، وعندها يجد أن موظفي هذه الوحدة غير متعجلين أبداً لمساعدته أو تسهيل مهمته ، وقد يجد النقيض من ذلك ، إذ أن هؤلاء الموظفين الجالسين وراء مكاتبهم ليسوا إلاّ عسكريين ينتظرون كل فرصة لإجراء استجواب دقيق مع من تعرض له حاجة للاحتكاك بهم ، فيطرحون عليه الأسئلة من كل نوع ، والتي لا علاقة لها أبداً بالقضية التي جاء المواطن يلتمس المساعدة من أجلها . وكان يرأس هذه الوحدة ملازم من أصل كورسيكي (**اسمه سكاربانكي**) سبق له أن عاش سنوات في المغرب ، وتعلم فيه اللغة العربية فكان يستخدم بعض العبارات (كلازمة أو متكأ) في حديثه للتظاهر بالبساطة ، عندما كان يتجول في الأسواق ويختلط بالناس ، على أمل الوصول إلى أسرارهم . غير أنه لم يكن من الصعب على القرويين البسطاء اكتشاف أمره ، والحذر منه ، إذ كانت لكنته الكورسيكية تفضحه عندما يحاول نطق اللغة العربية ، لا سيما عندما يقحم نفسه في حديث له أهميته ، ولم يبق على القرويين سوى التزام الصمت والتظاهر باللامبالاة عندما يتعرض لهم الملازم (سكاربانكي) .

وكان سكان قرية (زمورة) شأنهم شأن كل سكان القرى ، على

---

(١) الوحدة الإدارية الخاصة : SECTION. ADMINISTRATIVE SPECIALISEE ورمزها (S.A.S)

علاقة وثيقة بالثوار (الماكي) . وكان رجال الحركة (التابعين للقيادة الإفرنسية) يعرفون أن المجاهدين يترددون على القرية للتزود بالطعام والمواد التموينية . وقد رغب (الملازم سكاربانكي) إعادة تجميع القرويين الذين يسكنون البيوت المنعزلة في القرية ، غير أن سكان هذه البيوت رفضوا بدافع وطني الجلاء عن منازلهم أو إخلائها لأنها كانت تتيح لهم فرصة الاتصال بإخوانهم الثوار .

* * *

كان من بين سكان قرية (زمورة) فتاة جميلة تحمل اسم (عقيلة) وهي زوجة المجاهد (الملازم حمد الأخضر) تعارف الناس على مناداته باسم (سي الأخضر) واشتهر بإرباك الدوريات الإفرنسية وإزعاجها وتدميرها ، لا في الجبال فقط ، وإنما في داخل القرى أيضاً .

عرف الحركيون (أو رجال الحركة) بأمر الحب العاصف الذي يحمله (سي الأخضر) لزوجته . فعملوا فوراً على إخطار رجال المكتب الثاني (الاستخبارات) (والوحدة الإدارية الخاصة . س . آ . س) . ومنذئذ أصبحت (عقيلة) رازحة تحت عبء كابوس ثقيل ومرعب لا يحتمل ولا يطاق ؛ إنها محنة قاسية في أن تثور شكوك السلطات الإفرنسية حول الزيارات المتكررة التي يقوم بها الملازم (سي الأخضر) لزوجته (عقيلة) . لقد أخذت دوريات رجال الاستخبارات ورجال . س . آ . س في التردد باستمرار ودونما انقطاع للبحث والتفتيش والتحقيق . وتعرض أهل القرية كلهم لهذا الضغط ، ذلك، أن جند العدو كانوا يعرفون تلك الروابط الوثيقة التي تشد هؤلاء الجبليين إلى الثوار المجاهدين . وكان لهذه الاجراءات ذريعتها لدى الإفرنسيين الذين كانوا يخافون من هجوم مباغت ،

بالإضافة إلى رغبتهم في القبض على واحد أو أكثر من (العصاة ـ أو الغلاقة)[1] واعتقال أولئك الذين يساعدونهم أو يعملون على إيوائهم .

وعاشت (عقيلة) في حالة رعب دائم : الرعب من القتل ، والرعب من أن يصل زوجها في زيارة غير متوقعة ، فيصطدم بدورية الأعداء التي باتت كثيرة التردد على منزلها . وفي الحقيقة ، فإنه لم يحدثَ شيء من ذلك ، غير أن ما عاشته خلال تلك الفترة كان أكثر قسوة من الرعب ذاته ، لقد جفاها النوم ، فباتت دائمة السهاد ، حتى إذا ما استنزفت أعصابها ، أغمضت عينيها قليلاً ، فالخوف من زيارة أخرى غير متوقعة ، والخوف من أن يجدها الجنود نائمة في سريرها ، والخوف من كل مجهول ، كل ذلك كان يعذبها ويطرد النوم عن عينيها ، فتقفز من مقعدها لتستوي واقفة على قدميها تحملق فيما حولها لتتبين أنه لم يتحقق شيء من مخاوفها ـ حتى الآن على الأقل ـ وكانت (عقيلة) على حق في خوفها . . فهي زهرة شابة جداً ، لم تتجاوز العشرين من ربيع عمرها ، ذات قامة متوسطة (طولها ١٦٠ سم تقريباً) لها بشرة بيضاء صافية ينعكس عليها سواد شعرها الفاحم وعينان سوداوتان واسعتان ولهما نظرات أخاذة . وقد أخذ الهواء الجبلي النقي والرطب على عاتقه إكساب وجنتيها اللون الوردي ، مما كان يثير الشعور بأن وردتين جميلتين قد احتلتا مكانتهما على وجنتيها . وكان ذلك الشعور يظهر وهو أقرب الى الحقيقة عندما كانت

---

(١) العصاة ـ أو الفلاقة (FELLAGHAS) اصطلاح أطلقه بعض القادة الإفرنسيين على الثوار الجزائريين ـ المجاهدين ـ استصغاراً من أمرهم ، وتشبيهاً بهم بقطاع الطرق ، ثم أصبح استخدامه عاماً من قبل الاستعماريين لوصف (المجاهدين الجزائريين) .



قوة الحياة على حدود الوطن ـ عائدون ولكن مع الحرية ـ

(عقيلة) تبكي فتنساب منها الدموع لتتوقف على الخدين ، كما يتوقف ندى الصباح على أزرار الورد في بدء تفتحها . وكانت يداها وقدماهامكتنزتين باعتدال وكذلك ساقيها الرشيقتين . مما كان يشكل مع قوامها الأهيف ، الرشيق ، وصدرها البارز ، لوحة تمثل كل ملامح الأنوثة الطاغية . ولم يكن ذلك كله ليغيب عن أنظار الجنود الإفرنسيين والجنود الحركيين ، فيثير فيهم الغرائز الوحشية الشريرة . وشعرت (عقيلة) بذلك ، فأهملت نفسها طوعاً ، وامتنعت عن النظافة والاغتسال ، وقررت عدم استبدال ثيابها القذرة . فباتت ذات رائحة منفرة لا تستثير إلاّ عواطف الاشمئزاز .

انصرفت (عقيلة) إلى العمل ، تغرق همومها فيه ، وتلاحقت لياليها المسهدة البيضاء ، بعضها يمسك برقاب بعض ، وتتابعت عليها الكوابيس تتصل بعضها ببعض ، فكانت أقل ضجة تثير فيها الرعشة ، وأية صرخة أو طلقة نار تقلب كيانها رأساً على عقب .

هكذا عاشت (عقيلة)فترة متطاولة من المعاناة،تشاركهاهمومها أمها العجوز ، المضطربة العقل ، لما انتابها من الهموم . وكانت (عقيلة) تمضي لياليها في نسج الصوف ، وكثيراً ما توقفت عن عملها ، وهي مستغرقة فيه ، بسبب اقتحام دورية من رجال (س . آ . س) أو (الاستخبارات) باب منزلها ، بصورة مباغتة (فقد أرغمت على ترك باب المنزل مفتوحاً ، وعدم إغلاقه وإقفاله بالمفتاح) . وعندئذ تبدأ عملية استجوابها بالأسئلة المعروفة وغير المعروفة من كل نوع : هل أقبل زوجها لرؤ يتها ؟ هل تعرف مركز إقامته ؟ الخ . . وهددوها ، ثم أخذوا في إزعاجها ، وكثيراً ما حاولوا التغرير بها وخداعها غير أنهم كانوا ينصرفون من غير أن يظفروا منها بما يريدون . غير أنهم لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا ، وبمعدل أربعة

إلى خمسة مرات في اليوم والليلة . ويعاودها الكابوس في كل مرة بعد انصرافهم . وتنتابها المخاوف من جديد . ولم تكن هناك دورية واحدة هي التي تتردد على منزلها ، فقد كانت ـ على الأغلب ـ ترى في كل مرة وجوهاً جديدة . وكان (الحركيون) في جملة من كان يتردد عليها ، غير أن هؤلاء كانوا يستخدمون أساليب مغايرة ، فكثيراً ما كانوا يحاولون التبسط معها وملاطفتها وكسب ثقتها ، ويعدونها بألف أمنية وأمنية جميلة ، على أمل الحصول منها على بعض أسرارها ، أو بعض المعلومات عن زوجها ، أو حتى تكون (مطواعة لهم ورقيقة في تعاملها معهم ،على الأقل ؟) غير أنه ما من أحد منهم ظفر منها بنائل . واستطاعت (عقيلة) بالرغم من كل ذلك المحافظة على موقفها بثبات . ولكن إلى متى ستستمر في احتمال هذا الشقاء ؟ وما هي حدود قدرتها على التعايش مع هذه المعاناة ؟ وحتى متى تستطيع العيش تحت التهديد المستمر بالقتل ؟ كانت يد القدر معها ، فاستجابت لها ، ومهدت لها طريق النجاة ، ولكن كيف ؟

* * *

كان (سي الأخضر) ورجاله يتابعون من مواقعهم في الجبال كل ما كان يدور حولهم . وكان أنصارهم من رجال القرية ينقلون إليهم تباعاً كل ما تتعرض له (عقيلة) وما تعانيه على أيدي رجال الدوريات الإفرنسية . بما في ذلك التردد المستمر على منزلها في الليل والنهار ، وما يرافق ذلك من تهديد وإغراء ، وتحقيق واستجواب ، وإهانات ومحاولات انتهاك او اغتصاب . . .

أدرك (سي الأخضر) أن زوجته باتت تتعرض لخطر حقيقي ، كما عرف بأنه من الخطر أيضاً محاولة القيام بزيارتها ، فقرر مع رجاله تقديم يد المساعدة لها والإسراع لإنقاذها . وشرع بجمع المعلومات

الدقيقة عن الموقف العسكري في القرية ، ونوع الدوريات التي تتردد على منزل زوجته ، وعدد أفراد هذه الدوريات ، وكذلك المواعيد الليلية والنهارية للدوريات وكذلك كل ما هو ضروري من المعلومات لوضع مخطط من أجل دخول القرية . وعلم (سي الأخضر) بأن هذه الدوريات عادة ما تكون من (س . آ . س) أو (المكتب الثاني) وأحياناً من (الحركيين) . كما علم أيضاً بأن معدل الزيارات الليلية هو أقل من معدل الزيارات النهارية .

وما أن توافرت كافة المعلومات الضرورية حتى قرر (سي الأخضر) ورجاله الانتقال إلى العمل ، ووضع مخططهم موضع التنفيذ .

شكل (سي الاخضر) القوة التي ستذهب الى القرية من ستين مجاهداً ، كلهم من الفرسان ، المسلحين أفضل تسليح ، والذين تملؤهم الحماسة ولديهم الاستعداد للقيام بأي عمل من أجل انقاذ زوجة قائدهم الشابة (عقيلة) . وسارت هذه القوة في عتمة الليل المظلم، حتى إذا ما أشرفت على القرية، عين (سي الأخضر) عـدداً من رجاله لإكمال المهمة وهي (اختطاف زوجته) في حين بقي هو وبقية رجاله في أسفل القرية ، بانتظار عودة المنفذين ، وعلى استعداد للتدخل إذا ما تطلب الأمر ، وتسارعت الأحداث . وكان (سي الأخضر) قد قرر التوجه بنفسه من أجل إحضار زوجته ، وبرفقته عدد من المجاهدين ، إلّا أن رجاله منعوه من تحقيق رغبته ، لأنهم كانوا يعتقدون ، بالرغم من تقديرهم لخطورة هذه المهمة ، أن هناك أعمالاً أخرى أكثر أهمية تتطلب وجوده ، من أجل مستقبل الوطن بكامله . وأن مجاهديه أكثر حاجة لشجاعته ولكفاءته العسكرية القيادية ، ولجرأته في مواجهة مواطن الخطر . وهكذا ، وفي تلك

الليلة الخالدة التي ستبقى ذكراها ماثلة أبداً في أذهان أهل قرية (زموره) ، هكذا في الحوليات التاريخية للقرية ، اتخذ الرجال قرارهم ، وأقدموا على اقتحام الخطر الداهم واتجهوا نحو المنزل الذي تقيم فيه (عقيلة) .

كانت الليلة مظلمة كمداد الحبر الأسود ، أو كدخان الحريق ـ الشحار ـ . وكانت الريح تعصف بقوة غير معهودة حتى أنها اقتلعت ألواح التوتياء التي تغطي سقوف المنازل وقذفت بها كما تقذف الرياح أوراق الأشجار الميتة في فصل الخريف . وبلغت شدة الريح من القوة مبلغاً كادت معه تقتلع الأبواب الخشبية من جدران المنازل ؛ غير أن المجاهدين ، انطلقوا لتنفيذ مهمتهم كما هي عادتهم ، في تلك الليلة ، غير عابئين بما حولهم ، ذلك أنهم رجال (سي الأخضر) . رجال الجبال والريح والطبيعة القاسية ، وها هم يمضون إلى هدفهم ، ولا يهمهم شيء إلّا تحقيق النجاح في تنفيذ مهمتهم . ولدى اقترابهم من المنزل ، أطلقوا بعض الرصاصات في الريح ، وقذفوا قنبلة يدوية في الفضاء ، بهدف خداع قوات الافرنسيين ودورياتهم من جهة ، ولاقناع القرويين بأن هذه القوة تقوم بدورية من الدوريات العادية التي يقوم بها (الروم) .

وصلت أصداء الطلقات وصوت انفجار القنبلة إلى رجال (المكتب الثاني) ورجال (س . آ . س) غير أن أحداً لم يحرك ساكناً لاعتقاد كل طرف من الطرفين أن الآخر هو الذي قام بذلك ، على نحو ما جرت عليه العادة ، بهدف إيقاظ انتباه القوات العسكرية المقيمة في الثكنة ، وإدخال الذعر إلى نفوس القرويين وإقناعهم بالعدول عن أية محاولة (لتعكير الأمن والنظام) الذي حرصوا على إقامته .

لقد كان كل شيء منظماً بدقة ،ومر كل شيء بسرعة ، ومن غير مجابهة أي عقبة ، كانت (عقيلة) تمارس عملها العادي في حياكة ـ نسج ـ الصوف ، وذلك على الرغم من شعورها بحاجتها الشديدة للنوم . وجاءت أصداء الطلقات وصوت انفجار القنبلة واقتراب وقع خيول الفرسان من منزلها ، فأثارت في نفسها كل المخاوف ، وأخرجت من ذاكرتها كل صور الكوابيس والهواجس التي كانت تنتابها . ولم يساورها الشك أبداً أن ذلك من فعل دورية من دوريات العدو ، أو (الحركيين) . فتوقفت عن العمل ، واكتسى وجهها شحوباً لا يشابهه إلّا شحوب وجوه الموتى ، وأصاخت السمع . . . ومرت عليها وهي على هذه الحالة دقائق قليلة خيل إليها أنها قرون طويلة لا تكاد تنتهي . لم تتحرك أبداً ، لأن الخوف شل قدرتها على الحركة ، فثبتها على الأرض ، ومنعها من القيام بأية إيماءة ، كان نفسها يتردد بصعوبة ، كما لو أن التنفس العميق يفضحها أو يخونها ليكشف عما يعتمل في صدرها الذي بات يتقلص بشدة حتى كاد يخنقها . . . الانتظار ولا شيء غير الانتظار . . . في توقع الرعب .

ولم يكن الشك يراود (عقيلة) أبداً في أن تلك الليلة ستكون بالنسبة لها (ليلة المصير) . إن خط سير حياتها يجب أن يتغير ، يجب أن ينتهي الخوف من الجنود الأعداء ، وسينتهي معه التحقيق والاستجواب ، وما يرافقه من ضربات وإهانات وبؤس وشقاء طالما نزل بساحتها وأصاب أمها العجوز ، سينتهي كل ذلك .

وصل المجاهدون ، وتوقفوا أمام منزل (عقيلة) . وظهر مصادفة شاب يافع غير بعيد عن المكان ، فاستجوبوه . ولم يعرف الشاب الفتى أبداً أن هؤلاء الذين يستجوبونه هم مجاهدي (سي الأخضر) . وظن أنهم من الحركيين (رجال الحركة) جاؤ وا

كعادتهم لتعذيب (عقيلة) وإزعاجها . فاتجه اليهم ، وربت رجل على رأسه ، وأمره بفتح الباب من الداخل . وتملك الخوف الفتى الشاب من أن يسقط صريعاً ، ولم يتمكن من رفض تنفيذ ما طلب إليه تنفيذه . ومضت ثوان قليلة ، وانفتح الباب على مصراعيه . واقتحم الرجال المنزل تاركين للشابة (عقيلة) الشعور بأنهم من رجال (المكتب الثاني) أو (س. أ. س) . وقد جاؤ وا لإلقاء القبض عليها واعتقالها . وكانت الظلمة قاتمة بحيث كان من الصعب على المرء رؤ ية ما هو أبعد من خطوتين عن مكانه . وبوغتت (عقيلة) بقدر ما بوغتت أمها من هذا الاقتحام لمنزلها بمثل هذه القوة ، فشرعتا في العويل والصراخ بكل ما تملكانه من القوة . وأخذ الرجال (عقيلة) وسحبوها الى خارج المنزل ، واقتادوها إلى حيث ينتظرها (سي الأخضر) ورجاله .

لم تفهم (عقيلة) لعبة الخداع (ولم تكن لديها القدرة على فهمها وإدراكها) وظنت كعادتها أن مختطفيها من الإفرنسيين ، فأرسلت صرخات حادة تفتت الأكباد . واستمرت في الصراع كاللبوءة وهي بين يدي مختطفيها محاولة الإفلات من قبضتهم ، هذا فيما استمر الرجال على صمتهم ولا ينبس أحدهم ببنت شفة . وأيقظت صرخات (عقيلة) سكان القرية كلها ، وظن هؤلاء بدورهم أن (الحركيين) قد جاؤ وا لاعتقال البائسة (عقيلة) . ولم يكن باستطاعة أحد منهم التدخل ، فكلهم يعانون من هذا الضيق ، وكلهم يعيشون مع هذا الكابوس المرعب . ولو أن (صرخات عقيلة تركت في أعماق النفوس أثراً لا يمحى) وفقاً لما ذكرته (الممرضة رتيبة) التي كانت تعمل في المركز الطبي . وتمكنت (عقيلة) من الافلات من قبضـة مختطفيها ، وأسرعت الى منزل مجاور لمنزلها حيث



ومجاهدات في خدمة المجاهدين

كانت تقيم فيه (الممرضة رتيبة) وعائلتها وأبوها الذي كان يعمل خبازاً للقرية . وأخذت (عقيلة) في ضرب الباب بكل قوتها وهي تصرخ « لقد جاء العسكر لاعتقالي » .

أسرع المجاهدون للامساك بزوجة (سي الأخضر) من جديد ، واقتيادها إلى حيث بقية المجاهدين الذين يقفون بانتظار وصولهم . ومضت دقائق قليلة . وتوقف الصراخ بصورة مباغتة . ولم يعد هناك من يسمع إلاّ صفير الريح وهي تعصف بسقوف المنازل . لا صراخ ، ولا همس ، لقد أصبحت (عقيلة) في أيد (مأمونة) .

أردف (سي الأخضر) زوجته على حصانه ، وأعطاها منديله (فولار) الاخضر القاتم ، ومضى مع رجاله على الطريق ، محاولاً تضليل هؤلاء الذين قد يطاردونه ، حتى إذا ما وصل إلى نقطة يتفرع عنها دربين من المسالك الضيقة ، ترك أحدهما ، وسار على الآخر الذي يصل إلى (تاسامرت) التي تبعد مسافة كيلومتر تقريباً عن (زمورة) .

في هذه الفترة ، كانت القوات الإفرنسية تحاول معرفة حقيقة ما حدث ، وأمضت وقتاً غير قصير حتى أدركت الموقف ، وإذ ذاك بدأت عملية المطاردة ، غير أن الوقت كان متأخراً جداً . فقد وصل (سي الأخضر) ورجاله في هذه اللحظة إلى مسافة بعيدة جداً بات من المحال معها اللحاق به . وعلاوة على ذلك ، فقد سار (سي الأخضر) على دروب جبلية ضيقة لا تستطيع السير عليها إلاّ قطعان الماعز ، متجنباً ورجاله السير على الطريق الرئيسية التي يعرفها القرويون باسم (طريق البيلك) والتي غالباً ما تسير عليها السيارات الخفيفة للجيش الإفرنسي ـ الجيب ـ وهي تقوم بدورياتها الرتيبة .

توجه (الملازم سكاربانكي) ومعه بعض رجاله في صبيحة اليوم التالي لمقابلة خباز القرية ، (والد رتيبة) وهدفه معرفة ما إذا كان قد عرف بأمر حضور (سي الأخضر) إلى القرية . وكان الخباز يتمتع بسمعة طيبة في القرية ، فأنكر أن يكون على معرفة بالأمر ، وقال له : بأنه يعتقد ، مثله مثل أهل القرية جميعاً ، بأن رجال (المكتب الثاني) أو رجال (س . آ . س) هم الذين جاؤوا لاعتقال (عقيلة) . وهكذا فإن أهل القرية ، لم يعرفوا إلّا بعد هذا الاستجواب ، بحقيقة ما حدث . لقد استطاع (سي الأخضر) السخرية من شجاعة الجنود الإفرنسيين ، واقتحم عليهم ملجأهم ، وانتزع زوجته من تحت مخالبهم وهو تحد حقيقي لمحترفي العسكرية الإفرنسية وقادتهم من أصحاب (الأدمغة المفكرة) .

عرفت (أم عقيلة) ما عرفه الجميع عن أمر اختطاف ابنتها ، غير أنها أصرت بالرغم من ذلك ، على القول بأن (الروم) هم الذين اختطفوها ، سواء كان المتحدثون معها من أهل قريتها ، أو كانوا من رجال الدوريات الإفرنسية ـ بصورة خاصة ـ ممن استمروا في التردد على المنزل لاستجوابها .

* * *

وصل (سي الأخضر) مع رجاله إلى قرية (تاسامرت) واستراح قليلاً . ثم استأنف السير حتى وصل (بيرقسطلي) الواقعة على بعد (٦٤) كيلومتراً من (زمورة) . ومن هناك ذهب (سي الأخضر) إلى رجل كان يعرفه جيداً ويثق به ، إنه (سي طيب) المعروف بقامته الضخمة ولونه الأسود وشاربيه الكثيفين . وأوكل اليه أمر العناية بزوجته والسهر عليها . وبدأت (عقيلة) منذ هذه اللحظة حياتها السرية في المقاومة .

كانت (عقيلة) تعمل في النهار كما يعمل كل من حولها ، متجنبة كل ما يثير شبهات القرية بأمرها أو بدفعهم للتعرف على شخصيتها . ولم تكن قرية (بيرقسطلي) أكثر من قرية متواضعة لا يزيد عدد منازلها على (ستين مسكناً) . والأمر الواضح هو أنه من المحال في قرية كهذه إبقاء قادم جديد بعيداً عن الأعين الفضولية ، أو عدم التعرف على وجوده .

وكانت (عقيلة) تعمل طوال النهار في انتظار قدوم الظلام ، حتى إذا ما هبط الليل ، خلعت عنها ثوبها (جلابيتها ـ أو دشداشتها) وارتدت ثوب القتال (لباس الميدان للجنود) ومضت مع زوجها ، حتى تعود في صباح اليوم التالي . وعندما لم تكن ترافق زوجها (سي الأخضر) كانت تعمل بوصاياه وتعليماته ؛ فتنتقل في كل ليلة من بيت إلى بيت ، وتقتصر في حديثها على الحد الأدنى مما هو ضروري . دون أن تذكر شيئاً عن المكان الذي جاءت منه ، أو تكشف عن هويتها ومن تكون ، ذلك لأن الحركيين يترصدونها، والجنود الإفرنسيين قد شددوا البحث عنها . وبات لزاماً عدم التعرض لأي خطر عن طريق ترك أي أثر قد يهتدي به(القوم) لمعرفة حقيقتها أو افتضاح أمرها .

عثرت الدوريات التي دفعها الإفرنسيون للبحث عن آثار (الفلاقة) على المنديل ـ الفولار ـ الذي كان (سي الأخضر) قد أعطاه لزوجته (عقيلة) . وسلموه إلى النقيب (آموريك) الذي قام بإعطائه الى امرأته ـ الطبيبة في المركز الصحي ـ . وعملت هذه بدورها على إظهاره أمام (رتيبة) الممرضة التي كانت تهتم بأمر (عقيلة) وتعتني بها ، وقالت لها بصوت متهدج ، وبلهجة صارمة : « انظري :ها هو منديل ـ فولار ـ رفيقتك الفلاقة ، وآمل أن تتجنبي فعل ما قامت بعمله ، وإلاّ فإنني سأفك لك رقبتك . . . » .

خلال هذه الفترة ، كانت حياة (عقيلة) في قرية (بيرقسطلي) قد شهدت بعض التغيير . إذ باتت تعمل بهدوء ، محاولة نسيان كل معاناتها وآلامها التي عرفتها هناك في قرية (زمورة) . حتى جاء اليوم الذي واتت فيه أحد الحركيين (رجال الحركة) فكرة شيطانية ، وذلك بإرسال أمه الى (قرية بيرقسطلي) بهدف التجسس على سكان القرية ، والحصول على بعض المعلومات التي قد تفيده . وكانت المرأة العجوز تعرف معظم سكان القرية ، مما ساعدها على تنفيذ مهمتها إلى حد بعيد . ولم يكن من العسير عليها التسلل إلى وسط القرويين ، واكتساب ثقتهم ، والدخول بسهولة إلى قلب منازلهم . وفي إحدى الأمسيات ، دخلت منزلاً من المنازل بحجة زيارة أصحابه ، ولفت انتباهها وجود فتاة حلوة كانت منصرفة لعملها في حياكة الصوف . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها بصرها على هذه الفتاة ، مما أثار اهتمامها . فرسمت المرأة العجوز ابتسامة ماكرة على شفتيها ، واقتربت من الفتاة ، ثم جلست إلى جانبها . ولم تجد صعوبة كبرى في اكتساب ثقة الفتاة الحلوة ، ذات النظرة البريئة والنفس الصافية . وباحت (عقيلة) بسرها .

* * *

سار الملازم (سكار بانكي) على رأس مجموعة من رجاله في اتجاه قرية (بيرقسطلي) بعد أن أعلمتهم المرأة العجوز عن البيت الذي تسكنه (عقيلة) . وعندما وصلت هذه القوة إلى القرية ، قامت بتطويق المنزل وإحكام الحصار حوله . ثم باتوا ينتظرون وأصابعهم على زناد السلاح ، وهم ينتظرون أمر الهجوم من الملازم (سكار بانكي) . وكان هذا يريد اصطياد عصفورين بحجر واحد . وكان يعرف بأن الملازم (سي الأخضر) سيأتي في ليلة من الليالي لرؤ ية

زوجته حتى يصطحبها معه . ولهذا فقد انتظر (سكار بانكي) ظهور (سي الأخضر) حتى يقتله مع زوجته . وليحقق الأمل الذي طالما داعب مخيلته منذ أن اختطفت (عقيلة) من قرية (زمورة) .

مضت الليلة الأولى ، ولم يظهر (سي الأخضر) . وفي الليلة التالية ، وصل ممتطياً صهوة جواده ، ومعه بعض فرسانه ، ودخل المنزل . وبوغت فرسان (سي الأخضر) بالهجوم عليهم ، فلم يتمكنوا من استخدام أسلحتهم ، وسقطوا شهداء على الفور . وشرع رجال (الملازم سكار بانكي) بتوجيه نيرانهم إلى المنزل الذي دخله (سي الأخضر) . وأمسك الرجل وزوجته سلاحهما بشجاعة ، ووجها نيرانهما إلى الأعداء ، فقتلا بعض الجنود الإفرنسيين . غير أن المعركة لم تستمر طويلاً . فلم تمض أكثر من ثوان قليلة حتى صمتت الأسلحة . وخيم السكون . ثم استؤنف إطلاق النار بكثافة عالية ، وتهدمت جنبات المنزل . وعاد الهدوء من جديد . وعندما تبدد الدخان والغبار الخانقين ، تقدم رجال (سكار بانكي) بخطى مترددة وجلة وأصابعهم ترتجف على الزناد . وعندما وصلوا إلى عتبة المنزل ، دفعوا الباب بأخمص السلاح . واقتحموا المنزل ، فوجدوا (سي الأخضر) و(عقيلة) وهما قتيلين وسط بركتين متجاورتين من الدماء ، وهما ممسكين بسلاحيهما اللذين أفسدهما كثرة ما أصابهما من الرصاص . وعرف فيما بعد أن (عقيلة) كانت حاملاً في أسبوعها الثالث .

* * *

اجتاحت الجزائر في يوم ٥ جويلية ـ تموز ـ ١٩٦٧ موجة من البهجة والفرح . فقد تفتحت كل الآمال ، وكل الأحلام التي طالما أحبطت خلال سنوات عديدة ، وارتفع العلم الجزائري أخيراً ، في

هذا اليوم المشرق ليرفرف عالياً فوق أبنية العاصمة كلها ، وفوق كل مدن الجزائر ، إنه علم انتصارات الشهداء الأبرار . إن الجزائر تعيش عيدها ، لقد حصلت أخيراً على استقلالها .

أخذ الاحتفال بالعيد في قرية (زمورة) طابعاً مثيراً من الفرح والسعادة . وكان لا بد أيضاً من التفكير بأولئك الذين كانت تضحياتهم هي التي مهدت لظهور فجر هذا اليوم . فقرر الفلاحون أن ينقلوا إلى قريتهم رفات أبنائهم ، ولم يتأخروا عن تنفيذ فكرتهم . وكان بين العظام التي ضمها الكفن الأبيض عظام (سي الأخضر) وزوجته (عقيلة) . لقد كان الحديث على كل شفة يتردد بذكر قصة الزوجين ، وشجاعتهما وميتتهما البطولية . ولم يتعب الناس أو يشعروا بالملل من ترديد القصة ، وتناقلها ، والإشارة في كل مرة إلى (عقيلة) الفتاة الحلوة والزوجة الأمينة التي كانت أول امرأة في القرية انضمت إلى الثوار وهي تحمل السلاح .

كان حفل التأبين الجنائزي مؤثراً وعظيماً بقدر ما كان بسيطاً . وقد أقيم في داخل الثكنة الكبرى التي ظلت حتى الأمس رمزاً للقهر والظلم . وشاركت في الحفل كل بيوت القرية التي عملت على طهو الطبق الشعبي (الكسكس) مع تقديم الحليب واللبن الرائب ـ العيران ـ . لقد قام أهل كل منزل في تقديم الطعام تعبيراً عن مشاركتهم بهذا الحدث . وفي الحفل ، كان الجو غريباً ، اختلطت فيه المشاعر بطريقة تعجز الكلمات عن وصفها ، لقد وصلت مشاعر الفرحة بالحرية والاستقلال حتى ذروتها ، غير أنها فرحة اقترنت بالحزن العميق لغياب أشخاص أحبهم الجميع ، وافتقد الجميع مكانهم بينهم .

ودخلت اسطورة البطولة للزوجين الشجاعين في حكايات

الأطفال ، الذين كانوا ينشدون قصة حياة (عقيلة) وزوجها (سي الأخضر) في أغنية ، تقول لازمتها :

عقيلة يا عقيلة .
يا من لوجناتك جمال الورد
سيأتيك سي أحمد الأخضر
ليحملك معه على حصانه



أنتم أحق مني بهذا الطعام

٢ ـ من سلف الذكريات
مع (فضيلة سعدان)(*)

لم أباغت أبداً وأنا أقتحم غرفة نومي فأكتشف بأن يد العبث قد أثارت فيها الفوضى والاضطراب . إنهما ابنتاي البالغتان من العمر ثلاثة عشرة ، وأربعة عشر عاماً ، حتى لتحسبهما أنهما توأم واحد . وها هما وقد تمددتا فوق كومة من الصور والأوراق القديمة ، التي يضمها عادة (صندوق الذكريات) وقد أفرغ من محتواه ، ونثر بإهمال على الأرض . وصرخت :

ـ لقد منعتكما من تحويل غرفة نومي إلى اسطبل ! أين هي أختكم الكبرى ؟

وقفزت الصغيرتان لدى سماع صوتي ، واستدارتا برأسيهما نحوي وقالت كبراهما :

ـ لقد أثرت الروع في نفوسنا . والتقطت ابنتي (فضيلة) طرف الحديث وقالت :

(*) كاتبة الموضوع هي مديرة لمدرسة ابتدائية ـ حالياً ـ في الجزائر ، واسمها (أنيسة زموشي) وكانت صديقة للبطلة الشهيدة (فضيلة سعدان) ـ وهي تستعيد هنا ذكرياتها عنها .

والمرجع : RÉF: RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED ALGER. (1977) P. P. 329- 341.

ـ أجل ، لقد أفزعتنا . وعندئذ قلت لهما : حسناً ، تحدثا بصوت ناعم حتى لا يستفيق أخوكما الصغير من نومه . وأثناء هذا الاضطراب ، سقطت من يد (البنات) صورة ، سارعت لالتقاطها وتأملتها طويلاً ، فانقلب كياني رأساً على عقب .

كانت الصورة تحمل خلفها الكتابة التالية : (فضيلة : ٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٦) وكانت هذه الصورة جانبية (بروفيل) التقطت لفضيلة أثناء فترة اعتقالها .

وسألت فضيلة بكثير من الفضول الطبيعي : لمن هذه الصورة يا أماه ؟

غير أنها لم تنتظر الإجابة ، بل راحت تبحث بنظرها عبر الصور المتناثرة فوق السرير . في حين كانت أصابعي تتشبث بالصورة خوفاً من سقوطها مرة أخرى ـ وقلت : ـ

يا فضيلة ! هذه هي صورة فضيلة !

وزلقت يدي إلى جيب مئزري ، ووضعت فيها الصورة ، وتراجعت مترنحة ، وتركت نفسي أهوي على مقعد كان موجوداً هناك . وهيمن علي حزن عميق ومباغت ، في حين كانت بناتي مشغولات عني باكتشافاتهن ، حتى أنهن لم يشعرن بما أنا فيه ، بل ربما نسين وجودي بينهن . وقلت في سري :

ـ فضيلة ! كنت زَهْرةً عُمرها ١٨ ربيعاً ! (لقد كنت من مواليد ١٠ نيسان ـ أفريل ـ ١٩٣٨ ، وكان مسقط رأسك في الحروش (من نواحي سكيكيدة) . كنت صبية في مقتبل العمر على كل حال .

لقد مضى زمن غير قصير على غيابك ، غير أنني أشعركم أني لصيقة بك ، كأن الأيام لم تباعد بيننا . إنك قريبة مني إلى درجة لا أستطيع تصديقها ، إنك لا زلت حية . . . كم كنت نضرة ، وكم كنت

قوية ، فضيلة ! أنت بعينيك الضاحكتين أبداً ، وبابتسامتك الساحرة الأخاذة . وما أحلى مناجاتك . وبدأ شريط الذكريات يتدفق متسارعاً :

هبطت (فضيلة) ذات صباح من معاقل (الثوار) وبرفقتها أخوها في السلاح (عمر كيخيا) . وسلكت في طريقها الدرب الذي ينتهي بالقرب من (مدينة البير) حيث كان عليها أن تأتي لزيارتنا بعد ذلك ، وكانت تتقدم وأخوها في السلاح بحذر ، ولكن كم كان أمراً مباغتاً أن يقفا وجهاً لوجه مع دورية فرنسية ، وقد أمسك أفرادها بمسدساتهم الرشاشة ، وهم على أتم استعداد لإطلاق النار عند الاشتباه بأية حركة غير طبيعية في وسط المارة . وعلى الرغم من أن الوقت لا زال مبكراً فقد كان هناك عدد من السابلة .

فهل سقط الاثنان ضحية الرعب ؟ وهل كانا يحملان وثائق سرية وأسلحة هامة على نحو ما يفعلانه في كل مرة كانا يهبطان فيها من الجبل ؟ لا هذا ، ولا ذاك ، وكل ما فعلاه هو أنهما ركضا بسرعة جنونية ، واقتحما منطقة الأبنية القديمة . ثم افترق الشابان المناضلان ، ليبحث كل واحد منهما عن ملجأ ينجيه ، وهما يعرضان حياتهما بتصميم وشجاعة لكل ما تخبئه مباغتات القدر ، ولكل ما قد يقوم به جند العدو . غير أن هذه المواجهة المباغتة وغير المتوقعة للبطلين ، لم تكن لتمر من غير أن تسترعي انتباه رجال الدورية الآلية - المتحركة - والتي كان رجالها مشدودي الأعصاب دائماً : فأطلقوا النار فوراً ومن غير تردد على الهاربين ، وانهمر الرصاص على طريق الفرار ، وأصابت إحدى الرصاصات كتف (عمر) فتركته يعاني من الآلام المبرحة طوال شهرين كاملين ، مع اضطراره للبقاء في الملاجىء السرية تحت العناية الطبية ، وكان مما زاد من آلامه

الجسمية تلك المعاناة النفسية المريرة بسبب إلزامه على البقاء من غير القيام بأي عمل أو نشاط له صلة بالصراع ضد أعداء البلاد . وطالما تذمر في تلك الفترة من حجزه ، ومن عجزه عن متابعته الصراع . لقد كان أمنه وسلامه مرتبطاً بقدرته على الجهاد .

أما (فضيلة) فقد اقتحمت بحزم كوخاً صغيراً من تلك التي تؤ وي الفقراء . فوقع نظرها فوراً على سيدة عجوز وقد جلست على جلد خروف ، وهي تدير طاحونة القمح اليدوية . فنظرت إليها بقلق خلال جزء من الثانية . لم يكن الوقت يسمح بتبادل الحديث أو شرح الموقف ، يجب الخروج من المأزق بأقصى سرعة ، وتجنب الخطر قدر المستطاع . واستطاعت المرأة العجوز الطيبة أن تدرك المأساة التي تتعرض لها الفتاة (فضيلة) ، وأمكن لها الاحتفاظ بكل برود أعصابها وهدوئها ، فقامت بحل شعر الفتاة ، حتى ظهرت بشكل (فتاة غندورة) ثم نثرت بعضاً من الدقيق عليها حتى غطتها فظهرت وكأنها تمارس عملها منذ وقت غير قصير في (طحن القمح) . غير أن ذلك لم يكن كل شيء ، فثيابها لا تزال تحمل رائحة جسدها ، وكذلك منديلها الأسود الذي سقط منها أثناء ركضها الجنوني . وشعرت (فضيلة) أنها وقعت في الفخ ، إنه خطر حقيقي في أن تترك ذلك الأثر الذي يفضح أمرها ، ويمهد لإلقاء القبض عليها عندما يصل رجال الشرطة بعد هنيهة وبرفقتهم كلابهم البوليسية وناجت (فضيلة) نفسها : (**أنقذني يا الله ! ماذا أفعل ! احفظني يارب ، وارحمني يا إلهي**) وأخذت أسنان (فضيلة) تصطك رعباً ، فهي تعرف ما قد تتعرض له فيما لو تم إلقاء القبض عليها . وفكرت للحظة في أختها (مريم) التي اختطفها الإفرنسيون بطريقة غامضة ، ثم أعلنوا عن موتها تحت التعذيب . وخطرت في ذاكرتها أيضاً ، كلمح

البصر أسماء رفيقاتها (مريم بوعطورة) و(سالمة أم حازم) اللتين لقيتا مصيراً بائساً كمصير أختها (مريم) . . . واستمرت (فضيلة) في مناجاة نفسها : يجب أن أحافظ على هدوئي ـ يا . . ما . والتفتت إلى المرأة العجوز : هل لديك مسحوق (د. د. ت) . ؟ وأجابتها هذه : شكراً لله ، لدي منه . وأسرعت العجوز الطيبة ، من غير تردد أو تلكؤ ، لإحضار المسحوق ، وأخذت في نثره حول مسكنها البائس ، ومن المفروض أن تكون رائحة هذا المسحوق قد أزالت كل أثر لرائحة فضيلة . وأثناء ذلك ، كان قلب (فضيلة) يضرب بشدة ، ويضرب ، حتى ليكاد يقفز من صدرها ، وقالت مناجية نفسها ؛ ملتجئة إلى ربها : يا الله . ساعدني حتى لا أكشف عما بي من اضطراب . وقامت (الغندورة) بإخفاء قنبلة يدوية تحت طيات ثوبها ، وأعدتها للتفجير عند الضرورة لقد صممت على عدم الوقوع في قبضة أعدائها وفيها حياة تختلج . وعادت للمناجاة : لن أموت وحدي ياما (يا أماه) وسأقتل معي عدداً من (أولاد الكلب) .

هيمن السكون والصمت على ما يجاور الكوخ ، وخاف المارة من إصابتهم برصاصة طائشة ، وقد اعتاد الجميع اللجوء إلى منازلهم في كل مرة يتناهى إلى سمعهم اطلاق النار ، أو يمرون بظروف مماثلة . ووصل إلى أسماع (فضيلة) وقع خطوات متسارعة مختلطة بعواء الكلاب ، وصوت جندي يحادث آخر ـ باللغة الإفرنسية ـ وهو يقول له : من هنا يا بول .

وأخذ الطنين يتردد قوياً في أذني (فضيلة) وهي تسمع من جديد :

ـ من هنا ـ من هنا ـ في هذه المرة لن يفلتوا من قبضتي .

وخفضت (فضيلة) رأسها ، وقد عاودتها شجاعتها ، فاستمرت

في عملها وهي تدير الطاحونة وظهر اثنان من رجال الدورية ، وهما بهيئة مرعبة ، وتحدثا بلهجة قاسية وهما يسألان بصوت واحد : هل لجأ أحدهم للاختباء عندكم ؟

وأجابت العجوز الطيبة بلهجة طبيعية تماماً : فتش ! .

وانطلق الجنديان للنظر في كافة زوايا الكوخ ، ثم اقتربا من الفتاة وأعادا طرح السؤال ذاته ، فردت هذه بإيماءة سلبية ، وهي تشد على القنبلة اليدوية بيدها الأخرى . وانطلق الجنديان نحو الباب بخطوات متعجلة وأحدهما يقول للآخر : فلنسرع للبحث في مكان آخر .

اختلطت المشاعر القوية في نفس (فضيلة) فلم تعد تعرف أتضحك أم تبكي . وتدفق الدم الى وجهها فأصبح أحمر بعد أن كان أصفر شاحباً . ونهضت وهي تقفز من مكانها وتنفض الدقيق من على ثيابها . فعانقتها المرأة العجوز الطيبة ، وقدمت إليها قدحاً من الماء مع قطعة من السكر ، وقالت لها بلهجة حنون : إشربي هذا يا ابنتي حتى تهدئي ويزول ما بك !

* * *

ألم تكن هذه ملحمة ؟ كلا ! وهي ليست أسطورة . فقد روتها لي (فضيلة) وهي لا تزال تحت تأثير الصدمة المرعبة . وتأكد لي صدق قولها من حالتها النفسية التي كانت عليها عندما أقبلت لزيارتي بعد الحادث الذي صادفها مباشرة . وقلت لها عندما أنهت حديثها :

-(فضيلة)لماذا تعرضين حياتك للخطر ،على مثل هذا النحو ؟ . .

وأجابت (فضيلة) : حتى يكون لي الحق أن أعيش بشرف . قالت ذلك بصورة عفوية ، وبلهجة تحمل معنى التوبيخ لأنني طرحت عليها مثل هذا السؤال .

كانت الصرخات المباغتة التي تطلقها (البنات) ما بين فترة وأخرى ، تكاد تبعدني أو بالأحرى تنتزعني من دائرة (صندوق الذكريات) التي أخذت في محاصرتي ، وتضييق الخناق علي . وانتزعني صوت إحدى البنات وهي تهتف قائلة :

ـ أنظري يا أماه ، كم هي شابة جميلة في هذه الصورة ؟ .

وأجبت :

هي لا تزال صبية حلوة ، لو عاشت حتى اليوم ! كم كانت جميلة ؟ وكم كانت رقيقة ؟ وكم كانت مجدة مجتهدة . إنني أكاد أراها الآن وهي تحضر حفل توزيع الجوائز في نهاية كل عام دراسي . لقد كان اسمها معروفاً من كل الأساتذة ومن كل الطلاب . كان اسمها يتردد على ألسنة الجميع **فهي** : **فضيلة . س . الحائزة على الجائزة الأولى في اللغة الإفرنسية** .

وهي فضيلة . س . الحائزة على الجائزة الأولى في اللغة العربية .

وهي فضيلة . س : الحائزة على الجائزة الأولى في الرياضيات .

وهي فضيلة . س : الحائزة على جائزة التفوق بامتياز .

كانت ذراعاها مثقلتان دائماً بالمجلدات الضخمة . وكانت دائماً تلميذة مجدة رائعة . وقيل عنها أيضاً أنها (صعبة المراس) . . . وقاطعتني إحدى البنات بقولها : ولهذا أصبحت ثائرة ؟ لا ، لقد حدث ذلك قبل إضراب الطلاب سنة **١٩٥٦** بوقت طويل . حيث وقع ما أطلق عليه إسم (العصـ . . يان) وفقاً لما كانت تصفه بهذه الكلمة المتقطعة ، الآنسة (شفز) المراقبة العامة للفتيات في معهد قسنطينة ، والتي انقطعت عن ممارسة مهنتها . كان صوتها متهدجاً

وحاداً ، لا سيما عندما كانت تتحدث إلى الفتيات الجزائريات اللواتي كن قليلات في تلك الفترة ، يعشن في وسط كله غريب عنهن .

كانت الفتيات ينتظمن في الصف ، عند العشاء ، للدخول الى قاعة الطعام باعتبارهن طالبات داخليات ـ مقيمات ـ في المعهد . حتى إذا ما جلسن إلى الطاولة ، قدمت إليهن وجبة العشاء المعروفة : الحساء ، وطبقاً لا يتغير من الطعام واللحم . وكان هذا اللحم من نوع (لحم الخنزير) في معظم الأحيان. وكانت الطالبات كثيراً ما يتحدثن بعضهن إلى بعض ـ في الفرصة ـ عن موضوع هذا الطعام . وكانت (فضيلة) رئيسة للطاولة ، وذات يوم أعلنت تذمرها بصوت مرتفع وهي تحتج قائلة : « **ما من سبب لحرماننا من لحم الخروف أو لحم البقر** » . وظهر بوضوح أنه بات من المحال الاستمرار بقبول هذا الوضع الذي مضى وقت طويل على فرضه ، غير أنه بات من الواضح أيضاً بأننا سنواجه مأزقاً صعباً وأياماً عسيرة . وقيل لنا بأن وجبة العشاء ستتغير ، وأنه سيقدم لنا طبق الطعام بصورة ملائمة . فطلبنا بحزم ألا يحتوي الطبق الأخير (لحم الخنزير) . وتم قبول طلبنا ، **غير أننا أصبنا بالإحباط عندما قدم لنا لحم** (**الكورن بيف** ، **أو العجل**) **بدمه** ، **وهو غير مذبوح على الطريقة الإسلامية** . **فرفضنا قبول الطعام أو تذوقه** ، وبدأ ما أطلقت عليه الآنسة (شفز) اسم (العصـ . . . يان) وذلك عندما اندفعت نحو (فضيلة ، صعبة المراس) وقالت لها بلهجتها الحادة :

«إنك أنت يقيناً ! أنت عنصر التحريض ! فهل تريدين شيئاً آخر ؟ ألا يرضيك شيء ؟ » .

وابتسمت (فضيلة) ابتسامة ساخرة ، ثم اجتاحتها نوبة من الغضب ، وأجابتها وهي تشير إلى (اللحم الأحمر) وهي تقول :

« **إنكم تعرفون جيداً بأن هذا اللحم محرم علينا نحن المسلمين** » . وكانت هذه الكلمات تمثل تحدياً صارخاً ، واجهته (الآنسة شفز) بنوبة من الغضب المحموم ، وقد تقلصت أساريرها ، فقالت مهددة متوعدة :

« حسناً ! سننظر في الأمر » .

قامت السيدة المديرة بجمع الطالبات المسلمات في صبيحة اليوم التالي بمكتبها . وكانت (فضيلة) كعادتها ، هي التي تولت الدفاع عن قضية الطالبات ، وهي التي وقفت في المقدمة لشرح الحقوق الشرعية للطالبات . وتضامنت الطالبات مع (فضيلة) فخرجن من الاجتماع ساخطات ، وقررن (الإضراب عن الطعام) حتى تستجاب ، طلباتهن مهما تعرضن في سبيل ذلك للخطر . وكان لا بد لهن من هذا الإجراء بعد أن أرغمن عليه ولم يبق أمامهن طريق سواه .

استمرت الفتيات الطالبات في إضرابهن ثلاثة أيام ، وعضهن الجوع بنابه ، وكانت معاناتهن مع الجوع صعبة وشاقة ، غير أنهن قررن التجلد والصبر مهما اشتد عليهن الأمر ، ومهما ساءت حالتهن . وزاد من سوء موقفهن أنهن يتوقعن تضامن زميلاتهن ، الأجنبيات غير الجزائريات معهن ، ولكن رفيقات الدراسة انصرفن عنهن ، وأظهرن عدم اكتراث بقضيتهن ، بل إنهن لم يظهرن شيئاً من الاهتمام بمصيرهن . وعلى كل حال ، فقد جاء اليوم الرابع ومعه وعد بتقديم اللحم (المذبوح والمطبوخ ـ المطهي ـ على الطريقة الإسلامية) وصاحبت الفتيات فرحات (انتصرنا) . غير أنه كان لا بد من الاستمرار في التضحية ، بالرغم من كل المعاناة وآلام الجوع ، **إذ كانت القضية هي قضية مبدأ ، كما قالت (فضيلة) . ولا يجوز أن**

نتناول أي طعام حتى يقدم لنا (اللحم من الخروف أو البقر المذبوح على الطريقة الإسلامية) .

وارتسمت ملامح الفتاة المجاهدة على شخصية (فضيلة) منذ ذلك التاريخ .

خلال تلك الفترة ، اخترت طريق الزواج في ظروف البلاد المضطربة . أما (فضيلة) فقد وجدت نفسها مرغمة على متابعة طريقها ، محاولة التوفيق بين الدراسة والصراع . وقد بدأ ذلك في شهر أيار ـ ماي ـ ١٩٥٦ ، عندما صدر الأمر إلى كل الطلاب بإعلان الإضراب العام عن الدراسة . وكان هذا الإعلان هو القنبلة المدمرة لنظام التعليم الإفرنسي ، وقد أدرك الطلاب دورهم ، وحددوا مطالبهم الشرعية .

* * *

كانت (فضيلة) من بين المحرضين على الإضراب ومن قادته ، فضحت بذلك بالقسم الثاني من شهادتها الثانوية (البكالوريا) . وبدأت الاعتقالات على نطاق واسع . وكانت (فضيلة) في جملة المعتقلين ، وألقي بها في سجن (الكدية) . واستمرت فترة اعتقالها لمدة سنة كاملة ، تعرضت خلالها الفتاة البائسة لكل أنواع المعاملة السيئة ، والأساليب الدنيئة ، والأعمال الشائنة التي يندى لها الجبين بالنسبة لفتاة صبية عذراء مسلمة . فقد شوه جسدها ، ووشم برسم أعقاب لفافات التبغ ـ السكائر ـ التي كان يتم إطفاءها على جسمها ، مما ترك على بشرتها آثاراً واضحةً لازمتها طويلاً ، وتركت حروقاً مرعبة . وأرغمت على مشاهدة التعذيب وعمليات الإعدام ـ الإبادة . وعرفت (فضيلة) من خلال تجربتها نوعاً لم تكن تعرفه من المخلوقات البشرية ، إنه نوع يتمثل فيه الحقد الكريه والقسوة

الوحشية ، وقد دعمت هذه المعرفة حجتها للصراع ، وقلبت كيانها المرهف الإحساس .

حصلت (فضيلة) بعدئذ على فترة من الهدنة ، وسمح لها بمتابعة دراستها ، بشرط ترك البلاد لفترة معينة ، إنها فتاة متعلمة ومناضلة ، وقبلت . إن هذا العرض سيزيد من صلابتها ، وسيشجعها على المضي قدماً في الطريق الذي اختارته لنفسها . وكانت هناك فكرة نبتت في ذهنها ، وأخذت تلح عليها باستمرار ، فبعد الحصول على القسم الثاني من شهادتها الثانوية (البكالوريا) ستتابع دراسة الحقوق في جامعة (كلير مونت ـ فيراند) في فرنسا .

مضت (فضيلة) الى فرنسا تاركة وراءها فراغاً كبيراً ، غير أنها كانت هناك على كل حال في مأمن ، وبعيدة عن الضغوط التي كان يرزح تحتها شعب الجزائر ، مما كان يترك نوعاً من الطمأنينة تجاهها في نفوس أولئك الذين يعرفونها ويحبونها . ومضت الأيام متلاحقة ، وأشرفت السنة الدراسية على نهايتها . وأخذنا ننتظر عودتها بصبر نافذ ، ونعد الأيام التي تقربنا من العطلة الصيفية .

كنا نردد باستمرار القول : ستكون (فضيلة) بيننا عما قريب . وكانت تصلنا ما بين فترة وأخرى معلومات متفرقة عن أختها (مريم) التي كانت تعاني بدورها من ظروف العيش في سجن المدينة . ولم يرحم أحد حياتها البائسة ، فسقطت شهيدة بين أيدي جلاديها . (مريم) تلك الصبية التي كانت تشدني إليها عواطف الصداقة العميقة . لقد انضمت إلى قافلة الضحايا الذين مضوا إلى ربهم ، إنها ضحية جديدة من ضحايا (النشاط الاستعماري) ورجاله الذين تجردوا من الضمير ، وحرموا من كل عاطفة إنسانية . ولكن المشكلة الراهنة : هي كيف يمكن إعلام (فضيلة) بموت أختها ؟ إنها

ستكون هنا بعد بضعة أيام ، لا أكثر ، فهل ستكون قادرة على احتمال هذه الصدمة الجديدة ؟ لقد كانت (فضيلة) ذات (إرادة صلبة) تدفعها للسير نحو مثلها الأعلى ، غير أن صحتها لم تكن جيدة ، وهذا ما كان يخيفنا .

عندما وصلت (فضيلة) عانقناها عناقاً حاراً حمل كل الشوق بعد طول غياب . وكنا ونحن نعانقها نخاف على قوامها الرقيق من أن يتحطم . غير أنها كانت تمتلك من الروح المعنوية العالية والفضائل الأخلاقية ما يمكنها من التعويض عن ضعفها الجسدي ، ويرفعها صعداً نحو أهدافها ، وإذا كانت لا تزال فتاة شابة صغيرة العمر ، غير أن ذلك لم يمنعها من استيعاب مشكلات بلادها ، بكل اتساع تلك المشكلات وعمقها . وكان ينتظرها ـ علاوة على كل معاناتها ـ ألم مرير لعله أكثر قسوة من كل آلامها ومعاناتها، إنه اختفاء اختها الحبيبة في ظروف تشكل مأساة قائمة بحد ذاتها . وكانت (مريم) هي الوحيدة التي تفهم (فضيلة) بعمق ، وتحبها بشغف ، وتشجعها على المضي قدماً في طريق الجهاد ، وذلك ضد رغبات كل من يحيط بهما من الأهل والأقارب وحتى الأصدقاء . وكان تأثير (مريم) على أختها (فضيلة) كبيراً ، فأخذت عنها الشجاعة والثقة بالنفس ، وغذت فيها الإيمان ، وتعلمت منها حب العمل على طريق الخير والعدل . وها هي تسير على طريقها حتى نهايته . وهو الطريق الذي سبقهما إليه عمهما (الدكتور سعدان) . ثم ها هي (فضيلة) تعلم بصورة مباغتة باستشهاد أختها (مريم) والظروف التي أحاطت بمصرعها وهي تحاول خدمة قضية بلادها . **وقالت (فضيلة) :**

« هذا شيء لا يحتمل ! من أي نوع هؤلاء البرابرة الذين يطلقون نيرانهم على الأبرياء ؟ وكيف السبيل للتعبير عن مشاعر الاحتقار

تجاه تلك الوحوش الاستعمارية ؟ كم أنت بائسة يا (فضيلة) ؟ . وما أحوجك إلى قدر إضافي من الشجاعة ؟ وكم هو صعب ما تواجهينه ؟ ولكن لا بد من مواجهة الأمر الواقع ، هذا الواقع الذي أصاب نفسك بجرح عميق سيبقى نازفاً . إبتهلي إلى الله حتى يحفظ لك ملكاتك العقلية ! .

جاءت (فضيلة) لزيارتنا في اليوم التالي لوصولها . واستقبلتها مع أفراد عائلتي . كانت منهارة القوى ، وكانت نظراتها ساهمة شاردة ، تنظر إلينا محدقة وهي لا ترانا . وكانت نفسها تفيض مرارة بأكثر مما تفيض غضباً وهي تقول : « **لقد ماتت مريم ، كيف يمكن احتمال ذلك ؟ يجب ألاّ يستمر ذلك !** » **ترى بماذا كانت (فضيلة) تفكر وهي تنطق بهذه الكلمات ؟** .

لقد كانت (فضيلة) تعيش في تلك اللحظة ذروة الانفعال ، وأقصى درجات التأثر والاستثارة . كانت دموعها تنهمر بغزارة ، فشاركناها جميعاً البكاء . وكان صوتها المختنق بالعبرات يتلجلج بكلمات أخرى غير واضحة ومتقطعة بسبب إجهاشها بالبكاء . كانت عيناها متورمتين ، منتفختين ، وصمتت قليلاً ، ثم عادت وأجهشت منتحبة ، وانتصبت واقفة وارتسمت على وجهها خطوط قاسية ، وعاد صوتها حاداً ، يشبه الزئير .

بقيت (فضيلة) شديدة التعلق بنا قدر تعلقنا بها ، فكانت كثيراً ما تفتح لنا صدرها لتبوح لنا بأسرارها . غير أنها بقيت صامتة في هذه المرة . وهي لم تكن في حاجة للإفصاح عما ستفعله ، كان تصميمها واضحاً ، يغني عن كل بيان . وعرفنا أنها لا زالت تملك معيناً لا ينضب من الحزم و (المراس الصعب) . وكل ما كان باستطاعتنا قوله لها : كوني حذرة . . .

انضمت (فضيلة) إلى الثوار الذين استقبلوها كما لو كانوا في انتظارها . وحملت السلاح في الجبال مع إخوانها المجاهدين وأخواتها المجاهدات . ولقد حملت السلاح في هذا المرة وهي أكثر ثقة بقدرتها على الانتقام من الأعداء . إنها ستنتقم لأختها (مريم) . ولن يثنيها عن عزمها شيء ، هنا ستعيش مع وطنها الحقيقي ، وطن الحرية ، وستنال حريتها وتمارسها قبل أن يتحرر وطنها .

* * *

استخدمت (فضيلة) منزلنا ملجأ لها باستمرار ، فلم تنقطع اتصالاتنا بها ، وعندما كانت تنقطع عن زيارتنا ، كانت أيامنا تمضي ثقيلة ، حزينة ، رتيبة ، . حتى جاء ذلك اليوم الحاسم عندما أقبلت علينا ، وانتحت بوالدتي (ليلى) جانباً لتتحدث إليها بأمر يهمها ، ولتسر إليها بكلمات أمكن لأذناي التقاطها : « **يجب أن أقابلك غداً على الرصيف ـ ظهراً ـ بكل تأكيد** . . . » .

وتناولنا طعام الغذاء معاً . كانت (فضيلة) على غير عادتها ، مرحة حتى أبعد حدود المرح . وضحكنا كثيراً . وتحدثنا عن أيام الدراسة في المعهد . وتذكرنا (العصـ . . . يان) والسيد (غروس) أستاذنا في تدريس اللغة العربية ، وسخريتنا منه ، وهزأنا به ، عندما كان يلقي دروسه . واستعدنا كلماته : « آنسة س ـ أو آنسة ي ـ هيا اخرجي من الدرس » « وأنت يا آنسة فضيلة ـ كوني على حذر » . وكان الأستاذ (غروس الأصلع والسمين) يصطبغ أثناء ذلك باللون الأحمر . وهو يحدجنا بنظراته من فوق نظاراته . فكان يظهر لنا وهو يكاد يتفجر غيظاً ، ثم لا يلبث حتى يعود إلى هدوئه ليشرع في توجيه نقده اللاذع ضد الجميع ، وضد أي موضوع . ويبدأ بعد ذلك برواية القصص المضحكة والتي لم يكن يضحك لها إلاّ هو وحده . وعلى

هذا خيم على منزلنا جو من المرح لم نعرفه منذ وقت طويل . وأثناء ذلك قالت (فضيلة) : « إنهم سيشرعون بإجراء المفاوضات في (مولون) وسنحصل في هذه المرة على الاستقلال بكل تأكيد » .

لقد كانت اليوم شديدة التفاؤل ، صافية النفس ، خلافاً لعادتها ، إذ كانت باستمرار تظهر مستغرقة في تفكير عميق ، وتتصرف بجدية مطلقة . وكان ذلك مبعث بهجتنا ، فضحكنا كثيراً ومن أعماق قلوبنا . وكان يوماً لا ينسى . غير أن أختي الصغرى قطعت علينا مرحنا ، وأثارت تشاؤمنا عندما قالت : « إن من يضحك الجمعة ، سيبكي يوم الأحد » . وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة .

تركتنا (فضيلة) وكلها مرح وتفاؤل ، وكانت قسمات وجهها تعكس ما يعتمل في نفسها من صفاء وطهر ونقاء ، فمضت والابتسامة الحلوة على شفتيها . لقد كانت مقتنعة باقتراب موعد السلام . فغرست في نفوسنا نواة الأمل باقتراب فجر المستقبل الذي سيشرق بإذن الله . وقالت لأمي (ليلى) التي كانت مثل أمها أيضاً ، وهي تودعها : إذن ! إلى الغد ! . وأجابتها أمي : إلى اللقاء غداً . ولما كنت على وشك الوضع لمولودي الثالث ، فإن (فضيلة) لم ترغب بالذهاب قبل أن تهمس لي بأمنيتها : « أتمنى أن تضعي لنا هذه المرة مولوداً ذكراً » .

لم أتمكن من منع نفسي عن التفكير بأمر (فضيلة) بعد أن غادرتنا ، فقلت مناجية :

« ماذا ينقصك في هذه الحياة وماذا تفتقدين ؟ إنك يا (فضيلة) فتاة لا تقاوم ! ويحبك الجميع حيثما ذهبت وأين حللت . إنك برقتك تجتذبين كل من حولك ! وباستطاعتك رعاية أسرة سعيدة . إنك زهرة متفتحة ، تعيشين في يسر وبحبوحة ! ابتسامتك البريئة تظهر غمازتيك

الحلوتين . ولون بشرتك الصافي ، وعينيك البراقتين ، وشعرك الأسود الحريري الذي يحيط بوجهك الملائكي . ويعترف كل من عرفك بأنك مثال للفتاة الجميلة والرقيقة والفاتنة . إنك تمتلكين كل شيء ؛ الأنوثة والرقة ، البساطة والشجاعة ، الحزم والعقل والذكاء والخيال الخصب ، فماذا ينقصك ؟ إن ما ينقصك هو (العدالة والحرية) . إنك لا تريدين العودة مرة ثانية إلى الوحل . ولهذا اخترت طريق الثورة ، فمضيت لإيقاظ النيام من سباتهم ، وأشعلت فيهم لهيب الثورة . لقد خضت صراعاً مريراً ، ونذرت نفسك لخدمة بلادك .

ذهبت والدتي (ليلى) إلى (الرصيف) في الموعد المتفق عليه . وكان تفكيرها مركزاً على ما ستتسلمه من (فضيلة) . إنها ستأخذ منها رزمة من البريد لتنقلها بدورها إلى (السيد العربي) .

قرأت (ليلى) وهي تقترب من مكان اللقاء ، إمارات الحزن على وجوه المارة . كان المكان مكتظاً بالناس . وقد احتشد الدهماء بأعداد كبيرة في المكان المحدد للالتقاء . وكان الناس يتحدثون بأصوات مرتفعة ، ويلوحون بأيديهم بإشارات غامضة ،وكأنهم يعلنون احتجاجهم ضد عمل من الأعمال . وانتاب (ليلى) شعور من القلق ، وتجنبت الاقتراب من الجموع المهتاجة . وكان من المحال عليها ـ في كل الأحوال ـ شق طريقها من أجل الوصول إلى حيث تريد . وصادفت رجلاً منفرداً ، وحاولت أن تعرف منه جلية الأمر ؛ وسألته : « ماذا حدث ؟ » . وأجابها هذا : قتلوا اثنين من الفدائيين ـ رجلاً وامرأة ـ . وأسروا رجلاً ثالثاً . وفي ذروة الانفعال عاودت (ليلى) السؤال : ومن يكونون ؟ . وأجاب الرجل : لا أحد يعرف أبداً ؟ فالحي مطوّق بكامله ولا أحد يستطيع أن يرى شيئاً . .

وشعرت (ليلى) فجأة بضيق يعتصر صدرها ، وفكرت على الفور (بفضيلة) . إذ كان عليها مقابلتها في هذا المكان ذاته . وتلاحقت أنفاس (ليلى) حتى لتكاد تختنق . وعادت بخطى متسارعة حتى تصل إلى منزلها ، وعندما دخلته كانت بادية الاضطراب بحيث لم تتمكن من إخفاء انفعالها . وأخذت فور وصولها بإتلاف الوثائق والرسائل التي كانت بحوزتها. ماذا حدث؟ وماذا يمكن أن يحدث ؟ . .

وهيمن على منزلها مناخ من الهياج والانفعال . وبات القلق شعوراً قاتلاً لا يمكن احتماله . وأظلمت السماء ، معلنة اقتراب هبوب العاصفة .

ماذا حدث ؟ لم يكن هناك من يجرؤ على التعبير عما كان يجيش في خاطره . كانت الحقيقة تخيفنا جميعاً . وتعاظم قلقي حتى أنني قضمت أظافري دون أن أشعر بذلك . وعلى هذا أمضينا ليلتنا ، ومضى الظلام ولم يغمض لأحدنا جفن ، كانت ليلة لا تنسى . وما أن طلع النهار ، حتى أسرعت إلى بائع الصحف الذي كان دكانه يقع في أسفل المبنى حيث يقع منزلنا . واشتريت صحيفة (ديبيش ـ دو ـ قسنطينة) وأمسكتها بضيق ، وبيد مرتجفة فيما كان جسدي كله يرتجف ويهتز بعنف ، وفتحت صفحات الجريدة ، فصدمتني على الفور ثلاثة صور تغطي الصفحة الأولى : إنها صور (فضيلة) و(عمر كيخيا) و(رواج) . **وصرخت بصوت مختنق : فضيلة ماتت ؟ كيف ، وهل هذا ممكن ؟** وشعرت بقواي تنهار حتى لتكاد قدماي تخونانى وأنا أهرب مسرعة . وأطلقت صرخة وأنا أجهش بالبكاء ، ولم أعد أرى الطريق بعد أن أسدلت الدموع ستاراً على عينيّ ، وشعرت بألم حاد في أحشائي ، لقد أخذ الجنين في التحرك بعنف ،

وكأنه يشاطرني ما أنا فيه ؛ واستمر لساني في الهذيان : فضيلة ، يا الله ، لماذا ؟ وعمر ! و(رواج) ! . . ولا زالت الصحيفة في يدي وأنا أقتحم باب المنزل صارخة ، ـ أماه ـ أبتاه ـ أنظروا ! لقد ماتت (فضيلة) .

وبكت والدتي حتى احمرت عيناها ، وانتحت بي جانباً لتقول لي : اهتمي بنفسك ، وانظري إلى حالتك . هل نسيت أنك ستضعين مولودك . . قريباً .

* * *

مضت (فضيلة) عن هذه الدنيا ، ولم تخطئها يد القدر في هذه المرة . غير أن الأسئلة لا زالت تلح علينا وتشغل تفكيرنا ، كيف ماتت ؟ وهل تعذبت قبل أن تلفظ أنفاسها ؟

وذهبت والدتي (ليلى) فوراً لتعزية والدة (فضيلة) في مصابها ، ومعرفة تفاصيل ما حـدث . وكانت الام البائسة قد جلست تحت ثقل كارثتها حتى لم تعد قادرة على الوقوف ، كانت متهدمة محطمة ، قد تغيرت كل ملامح وجهها ، وتورمت عيناها لكثرة البكاء . وكان رجال الشرطة قد وصلوا إلى هناك . لبنقلوا إليها تفاصيل المأساة الجديدة . وكانت كل كلمة من كلماتهم كافية لتمزيق أشد القلوب قسوة إلاّ قلوب الاستعماريين :

كانوا ثلاثة قد وصلوا إلى منزل (الرصيف) حيث الموعد . واكتشف الإفرنسيون أمرهم ، وأرادوا أخذ (فضيلة) وهي على قيد الحياة . فنادوها مرات كثيرة حتى تخرج إليهم ، واستمرت في الرمي حتى نفذت ذخيرتها ، ثم صعدت الى السطح وهي تصرخ بملء صوتها القوي :

لا ! . . . ثم لا ! . . . ثم لا ! . . .

وقامت القوات الإفرنسية بتطويق المنزل وإحكام الحصار حوله ، فلم يكن من الصعب تمزيق جسد (فضيلة) بالرصاص ، فهوت الى الأرض وقد فارقت الحياة .

كانت (فضيلة) تعرف أن استسلامها لأعدائها يعني البوح بأسرارها . إنها تعني الخيانة ، وليس باستطاعة فضيلة أن تخون أحداً أو تغدر بأحد .

سقطت (فضيلة) ميتة ، وغير بعيد عنها كانت ترقد جثة (رواج) وسط بركة من الدماء . أما (عمر كيخيا) فقد حاول الهرب حاملاً معه جراحه ، غير انه لم يذهب بعيداً ، فقد ألقي القبض عليه ، ولم يتأخر عن اللحاق بأخويه المجاهد والمجاهدة .

يا للمسكين (عمر) ، لقد كان يفكر وهو يهرب ـ يقيناً ـ بأمر زوجته الشابة التي ستصبح أرملة وهي في نضرة العمر ، وكذلك بابنه الصبي الصغير الذي سيتركه لقدره . ولعل شجاعته قد خانته في هذه اللحظة بالذات وهو يحاول الفرار . وعلى كل حال ، فإن (عمر) لم يقتل لسبب تافه ، وإنما استشهد مجاهداً بطلاً ، ما عرف عنه إلاّ أنه شاب شجاع حتى حدود التهور . ولقد مضى على الطريق الذي سبقته إليه بثوان قليلة (المجاهدة فضيلة) ومن قبلها شقيقتها (مريم) . وهو ذات الطريق الذي مضت عليه قافلة (شهداء الثورة) .

قدمت والدتي (ليلى) العزاء بكلمات قليلة إلى الأم البائسة بمصابها الجديد ، ثم ودعتها وعادت إلى المنزل . وقد كان مصاب أم (فضيلة) بابنتيها أكبر من كل عزاء . وإن أكبر محنة تتعرض لها امرأة هي فقد أحد أبنائها ، فكيف بها وقد فقدت (مريم) من قبل

وهي تبتلى بعد ذلك بابنتها (فضيلة) . لقد باتت أماً لشهيدتين على التتابع ! ولم يبق لها في هذه الدنيا إلاّ ابنتها الثالثة (عزيزة) وهي ابنتها البكر ، فكانت تضع رأسها على كتفي ابنتها وعلى صدرها ، ما بين فترة وأخرى ، وتبكي بحرقة ، لعلها تتنسم في صدر ابنتها ريح أختيها ، وتتشبث بها بكل ما بقي لديها من قوة ، ولعلها كانت تخشى أن تفقد أيضاً ما بقي لها من عون ومن أمل في هذه الحياة .

ومضت أسابيع ،

وجاءت ليلة تحمل معها آلام المخاض ، وشعرت بالقلق ينتابني في بداية الأمر ، واشتد الألم فأخذت أتعجل طلوع النهار . كان البيت هادئاً ، ساكناً . وتحسست الجدران في الغرفة نصف المظلمة ، وأنا أفكر في كل شيء ، إلاّ فيما أنا فيه ، غير أن نوبة من الألم زادت في شدتها على كل ما سبقها حملتني على القفز من سريري . يجب استدعاء سيارة الإسعاف . غير أن أمر منع التجول ، حظر تحرك أية مركبة أو آلية في الليل - حتى سيارات الإسعاف - فحملني أهلي إلى المستشفى التي وضعت فيها ابنتاي من قبل . وقالت لي ممرضة كنت أعرفها : إنك ستضعين لنا في هذه المرة صبياً . . . ومضت فترة قصيرة ، وضعت بعدها بنتاً - إنها ابنتي الثالثة . وسمعتهم يتحدثون من حولي :

- سنطلق عليها اسم (فضيلة) . واتفق على ذلك زوجي وأهلي والجميع ، من غير اعتراض أو مناقشة ، لقد أحبوا أن يبقى اسم (فضيلة) حياً بيننا . أما أنا ، فلم أحاول إتاحة الفرصة أمامهم لأخذ رأيي في الموضوع . وأخذت ابنتي ، وضممتها إلى صدري . لقد استشهدت (فضيلة) يوم ١٨ حزيران - جوان - ١٩٦٠ .

وها قد مضت على الحدث الأليم أربعة عشر عاماً ـ عند إعادة تسجيل الحدث من خلال ما يحتويه (صندوق الذكريات)، وأصبح عمر ابنتي فضيلة أربعة عشر عاماً . وعدت الى أولادي بعد رحلتي مع أحداث الماضي ، وقلت لهم :

ـ هيا ! أعيدوا ترتيب كل شيء .

وتمضي السنوات ، وتبقى ذكرى (فضيلة) نابضة بالحياة في قلوب كل من عرفها . إن ذكراها ستبقى ماثلة أبداً في عيون الوطن وفي عيون أبناء مدينتها . وسيذكرها أبناء معهدها كل يوم عند مرورهم باللوحة التي حملت اسمها :

(معهد فضيلة سعدان) .

٣ ـ نساء جزائريات في (معسكر الاعتقال)(*)

دخلت عربة النقل الكبيرة ـ الشاحنة ـ التي كانت تحملنا إلى درب ضيق ، ثم تباطأت في سيرها حتى توقفت ، ونزلنا الواحدة بعد الأخرى . ولم نتمكن من رؤ ية معالم المكان الذي ندخله بوضوح ، فظلمة الليل لا زالت قاتمة . وأحاطت بنا ثلة من المظليين ، وجنود حراسة المعسكر . وكان وجود جند الحرس على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا ، لأننا نعرف بأن هؤلاء الجنود لا يقومون بتعذيب المعتقلين عادة . وكان معنا في الشاحنة بعض الرجال المعتقلين الذين تم اقتيادهم نحو بناء في أقصى المعسكر . أما نحن ـ النساء ـ فقد كنا ثلاثة تم اقتيادنا إلى غرفة مستطيلة لا ضوء فيها ولا باب لها . وكانت غرفة واسعة الأرجاء ، فيها امرأتان ترقدان على غطاء وتلتحفان غطاء أبيض من الصوف . واستيقظت المرأتان عند وصولنا ، وأفسحتا

(*) قصة معتقلة قديمة أرسلتها في تقرير لها إلى (قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري) شرحت فيها ما تتعرض له النساء من العذاب في معتقلاتهن ، وما تظهره المرأة الجزائرية من الشجاعة والجرأة والصمود في مواجهة الأعداء ـ وهن معتقلات تحت رحمتهم . والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED. ALGER. (1977) P. P. 251- 263.

مكاناً رحباً لنا إلى جوارهن . لم تكن لدينا القوة للتحدث إليهن ، فقد انتابني إرهاق مرعب لكثرة السهاد والأرق ، فرحت في نوم عميق في الهواء الطلق ، لا جنود أمامنا للحراسة ، ولا أنين المعذبين ، ولا صراخ السجانين وعويلهم .

كان المعسكر لصمته وهدوئه يبدو مهجوراً ، غير أنني لم أجد الرغبة في طرح الأسئلة ، كل ما يهمني هو الاستغراق في النوم للمرة الأولى ، بعد طول السهاد الذي لازمني منذ اعتقالي . بذلك بدأت حياتنا في المعسكر ، وأمضينا الأيام الأولى في غرفتنا ، وكان كل ما يشغلنا من هموم هو التفكير بمصيرنا . ولم يكن يهمنا أبداً النظر في شروطنا الحياتية ، إذ لم نكن نتوقع ما هو أفضل : كنا ننام على الأرض ، في غرفتنا التي لا زجاج لها على النوافذ ، ونكتفي بالوجبة الوحيدة التي يقدمونها لنا في اليوم ، وهي ثابتة على الأغلب ولا تتغير (سردين بالزيت) . وشرعت كل واحدة في رواية ما تعرضت له من تعذيب ، وهي تظهر الآثار المختلفة التي تركها التعذيب على جسدها . كانت (وردة) أماً لثمانية أطفال ، وأرملة ، قتل الإفرنسيون زوجها منذ شهر ، وتركت في لحظة اعتقالها أحد أبنائها مريضاً ، راقداً في فراشه . وتعرضت لكل أنواع التعذيب (التيار الكهربائي ، نفخ المعدة بالماء ، البقاء في الحمام تحت الماء المتساقط ـ الدوش ـ الخ . .) . وعرضت علينا أثداءها وقد تلونا باللون الأسود بسبب التيار الكهربائي . وقد صدمتني نظراتها الشاردة . كانت تتلجلج وهي تبكي بحرقة عندما تتحدث عن أبنائها الذين تركتهم وحدهم ، وتتساءل : ترى من سيطعمهم ؟ .

كانت المعتقلة الثانية (واسمها ليلى) فتاة في الثانية والعشرين من عمرها . ذات شعر كستنائي ، ومزاج معتدل . وقد حاولت الترفيه

عنا قدر استطاعتها ، فذكرت لنا قصة ما تعرضت له من التعذيب بالحركات وبصورة تفصيلية ، وهي أثناء ذلك تتحدث بأسلوب ساخر ، فتسخر من نفسها قبل أن تسخر من غيرها أثناء تقليدها لجلاديها بلغة فرنسية مسحوقة . وقالت لنا كيف صعد الجنود على بطنها لإفراغ الماء الذي يملأ معدتها ، وكيف غمروا رأسها بماء المغسلة .

وكانت المرأة العجوز التي صعدت معنا في عربة النقل الكبيرة مصابة بمرض (الربو) فكانت تتنفس بصوت مسموع . وقد عذبوها مستخدمين التيار الكهربائي ، في جملة ما استخدموه ، بهدف حملها على الاعتراف بمكان ابنها وأين يختبىء ، وباتت بعد التعذيب وقد فقدت الإحساس بذراعها اليمنى . ولاحظت على ذراعي أيضاً وجود عدد من النقاط الصغيرة ، ولكن بكمية كبيرة ، ذات لون كستنائي ، وكأنها بقع من الصدأ، لازمتني عشرات الأيام ، أما المرأتين الباقيتين فقد تم تعذيبهما في مراكز أخرى من الجزائر ، وما أكثرها ، سنعرف شيئاً عنها عن طريق بقية المعتقلين .

* * *

كانت نافذة غرفتنا تطل على الساحة التي لم نكن نرى فيها أحداً من الرجال ، غير أن الهواء كان يحمل إلينا في النهار أصوات أنات عميقة ، تتزايد وضوحاً في الليل . وكان يقتحم علينا غرفتنا ما بين فترة وأخرى أحد رجال المظليين ، بهدف إثارة الرعب في نفوسنا ، والعبث أو اللهو على حساب انفعالاتنا ، فيقص علينا أنه ذاهب (لطبخ) أحد المعتقلين ، وأنه (بيده ، سيفتتح ثغرة في المعتقل تتسع لتدوير مقبض ـ مانيفيل) ثم يسأل : (هل عذبكم أحد هنا بهذه الطريقة ؟) وهو لم يجب أبداً على هذا السؤال وما يبغي منه ، فكان

يتركنا في حالة من الرعب الدائم .

كان المعسكر الفسيح جداً يمتد من أمامنا ، إنه مجموعة من الأبنية القديمة من التوتياء ، أقامها الأمريكيون في سنة **١٩٤٥** لتمركز جنودهم ، ثم أنشئت مدرسة في قسم من المعسكر بعدئذ . وكانت هذه الأبنية تتكون من (٦) الى (٨) أبنية نصف دائرية مدهونة بالكلس - الجير - وهي تصطف على كل طرف من أطراف الساحة المستطيلة ، بطول مائة متر تقريباً . وقد ضمت هذه الأبنية عدد كبير من المعتقلين . وكان هناك رقيب مظلي يسجل الداخلين إلى غرفتنا . وكنا نراهم وهم يمرون من أمام مكتبه ، ليستودعوا عنده أوراقهم الشخصية (الهويات) وكل ما يمتلكونه ، وكان الرقيب يضع ذلك كله في مغلفات من الكرتون (الورق المقوى) . وكان عدد هذه المغلفات كبير جداً .

* * *

دخلت علينا في ليلة من الليالي مجموعة من خمسة نسوة ، جاؤوا بهن من (مدرسة ساروبا) وعن طريقهن عرفنا أسماء الذين كانوا يقومون بتعذيبنا . وكنا نردد هذه الأسماء في كل مساء حتى لا ننساها . وقد أخذ عددنا يتزايد شيئاً فشيئاً . فحجزونا في غرفة خصصت للنساء اللواتي بلغ عددهن (في نهاية شهر أوت - آب) أربعين امرأة . وأصبحنا نتجمع بمجموعات متجانسة ، وغالباً ما كانت النساء المتقدمات في العمر يجلسن بعضهن إلى بعض ، تاركات للصبايا الصاخبات حرية الحركة في الغرفة . وكانت الفتاة (ف) تثير فينا الضحك ، بحيويتها المتدفقة ، وبما تمتلكه من ذكاء حاد ، فتقص علينا الحكايات والنوادر مما سمعته في (المركز) ومما كان يتناقله (المعتقلون) . ومنها حكاية ذلك الشجاع من قدامى

المناضلين والذي تم إلقاء القبض عليه بواسطة كمين محكم . فكان يحاول اكتساب عطف جلاديه عندما يسلطون عليه التيار الكهربائي وذلك بقوله : « ليس باستطاعة فرنسا حكم البلاد بهذه الأساليب الجنونية ـ الحمقاء » مع تكرار حرف الراء في (كلمة فرنسا) عندما تشتد عليه قوة التيار .

استمر القلق في تعذيبنا طوال الوقت ، ماذا سيحل بنا وماذا ينتظرنا ؟ وكم من الوقت سيمضي علينا في معتقلنا هذا ؟ وكيف لنا أن نتصل بعائلاتنا لبعث الطمأنينة في نفوسهم ؟ . . .

نظم المظليون المعسكر شيئاً فشيئاً . فوضعوا الأسلاك الشائكة فوق الجدران . ووضعوا الحديد على نوافذ الغرف . واكتفى الحرس من غير المظليين بأداء دوره في الحراسة .

كان يسمح للمعتقلين في كل غرفة (مائة معتقل تقريباً) بالذهاب مرتين إلى دورات المياه (المراحيض) . وكان رتل المعتقلين يسير بنظام ، يحيط به المظليون الذين يدفعون المعتقلين للإسراع (بأداء هذا الواجب) مستخدمين في ذلك أعقاب بنادقهم . وكان هذا (العرض) مؤلماً ، ونحن نتابعه من وراء القضبان ، بقلوب حزينة منكسرة ، هذه المزق الإنسانية ، وهي تعرج ، أو تسحب بقاياها على الأرض سحباً ، في حين يعمل الأقوياء من المعتقلين على مساعدة المرضى بحملهم من تحت أذرعهم . ويأتي الشيوخ دائماً في المؤخرة ، أما الأكثر شجاعة فيسيرون في الأمام . وكل يحمل في يده علبة معدنية تحتوي ما كان قد طرحه فيها من البراز في الليل .

لحى مرسلة ، وأجساد متثاقلة ، وعيون شاردة ، ووجوه

متغضنة ، وقامات منحنية : شباب ، صاخب انتهى إلى الكهولة في أسابيع قليلة ، إنهم يسيرون متعجلين وضربات البنادق تطاردهم ، وشتائم الجلادين وصرخاتهم تنهال على هؤلاء البؤساء من كل مكان .

مضت عشرة أيام علينا ونحن في معتقلنا هذا عندما دخل علينا الرقيب وقال لنا :

« انهضوا ـ هيا ـ وأعدوا أنفسكم » .

ودفعنا إلى الخروج ، في حالة من الهياج ، وقد كسى الشحوب والاصفرار وجوهنا . وكذلك كان شأن الرجال الذين وقفوا في مواجهتنا ، ولم تمض سوى لحظة حتى ضاقت الساحة على رحبها بالمعتقلين . وجلس رجل قصير من ذوي القبعات الحمراء ـ المظليين ـ (اسمه النقيب ـ الكابتن ـ بوتوت) وراء طاولة وضعت له في الهواء الطلق ، وقد تربع على مقعده في انتظارنا . وخيم على الساحة صمت ثقيل ، ثم نهض من مقعده ، وصاح بنبرة ثابتة ، وبصوت واضح : « هل أخرجتم المرضى ؟! إنني بحاجة إلى المرضى أيضاً . ! » وقام المعتقلون بنقل بعض الأجساد إلى الأمام من أبواب المهاجع . مما استغرق بعضاً من الوقت . وهمس البعض متسائلاً بقلق : « ماذا سيفعلون بنا ؟ » . وتقدم النقيب إلى المعتقلين قائلاً : « سوف أناديكم بأسمائكم ، فمن سمع اسمه يجيب : حاضر ، وينتقل إلى الطرف المقابل من الساحة » . وبدأ قراءة الأسماء ، في حين كنا نحتبس أنفاسنا . وأخذت إحدانا بعد المعتقلين حتى زاد العدد على الثلاثمائة . وكان النقيب يقرأ اسم أحد المعتقلين ، فلا يجيبه أحد في بعض الأحيان ، وعندها يتدخل الرقيب ليقول : « إنه في سرية أخرى » أو يهمس بكلمات لا نستطيع

فهمها فيتابع النقيب قراءة الأسماء بصوته الجهوري ولهجته الثابتة .

فكرت بمرارة بأمر تلك الظلال التي جلس بعضها إلى جوار بعض . . . وقرأ النقيب الأسماء الأخيرة بصعوبة واضحة . وانتهت (العملية) . . . ثم بدأ التدافع نحو الغرف (المهاجع) وتعثر البعض بسبب الظلمة ، ولم يتمكن المظليون من السيطرة على الموقف إلّا بصعوبة وعناء . وتبع ذلك ضجيج وأصوات قوية ، وانطلق بعضنا يعانق بعضاً مهنئين بمرور التجربة بسلام ، في وسط الظلمة بحيث لم تكن الوجوه لتتعارف ، وكانت الظلمة القاتمة تضم الجميع وتصهرهم في كتلة واحدة ، وفي جسد معذب واحد .

كانت تصلنا في كل يوم مجموعة جديدة من النساء . فنتحلق حولهن لنستمع منهن ـ قبل كل شيء ـ قصة (استجوابهن) ثم نتلقى منهن بعض الأخبار الجديدة . ونقلت إلينا بعضهن ممن جاؤ وا من (مدرسة سارويا) قصة انتحار فتاة لا يزيد عمرها على ثمانية عشر ربيعاً ، قذفت بنفسها من نافذة المدرسة حتى تتخلص من التعذيب . وكانت شقيقة أحد المجاهدين المعروفين (ز . ت . آ) معتقلة معنا ، وقد انتابها القلق على مصير أخيها ، فأعلمناها أنه بخير ، وعادت الطمأنينة إلى نفسها ، وقد لازمت الفتاة الطالبة (هـ) ذات العشرين ربيعاً ، ولم تتركها لحظة واحدة ، إذ كانت تعرف أنها مصابة بمرض (القلب) وشاهدتها وهي تقع مغمى عليها مرات كثيرة ، في إثر جلسات التعذيب .

جاءت أيضاً الفتاة (ف) شقيقة (م . ي) الذي تم تعذيبه تحت بصرنا في (مدرسة سارويا) وهي الفتاة البكر لعائلتها ، وكان أبوها في السجن ، وأختها هاربة « حيث أصابها المظليون برصاصة بعد أن طوقوا المزرعة التي كانت تعمل فيها مع ب . س . في تنظيم شبكة

من الفدائيين . وقتل ب . س بينما تمكنت الفتاة من الفرار ، حاملة معها جرحها » . ولم يبق في منزلهم غير الأم مع طفلها الصغير . وهكذا كان المعسكر يفصل بين أفراد العائلة الواحدة ، ويجمعهم في بعض الأحيان . وقد تصادف في مهجعنا وجود ثلاثة أزواج من الأخوات . وكانت منهما أختان سجن أبوهما وأخوهما الصغير الذي لا يتجاوز العشر سنين من عمره ، في المهجع المجاور . فكانت الأختان ترسلان سراً إليهما بالخبز ، وتغسلان لهما ثيابهما .

عادت الفتاة (هـ) في يوم باكية وذلك بعد وصولها إلى هنا بثلاثة أسابيع ، وكان سبب بكائها ، اكتشافها وجود أخيها الوحيد في المعتقل . إنها لم تتمكن من التعرف عليه في وسط ذلك الرتل الطويل من المحتجزين البؤساء : حتى التقى الاثنان مصادفة في المستوصف ، واعترف لها عندئذ بأنه كان يبتعد عن بصرها حتى لا يقلقها .

❊ ❊ ❊

أصبح من عادتنا مراقبة كل ما يحدث في المعسكر من أمور رتيبة عادية . وكان من أبرز ما في الحياة اليومية ذلك الاستعراض الذي يقوم به المعتقلون وهم يتجهون إلى المراحيض ـ دورات المياه ـ القذرة وغير الصحية . وقد بلغ عدد المعتقلين في تلك الفترة ، ثمانمائة معتقل في حين لم يكن هناك أكثر من ثمانية مراحيض ، فكان الخروج إلى المراحيض يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ، ولا ينتهي قبل الساعة التاسعة مساء ، وأحياناً إلى ما بعد ذلك ، بالرغم من حلول الظلام الدامس . وكان يتم في وقت مبكر من كل يوم اختيار خمسين رجلاً للقيام بأعمال السخرة ، ولدى عودتهم في المساء ، تقوم قوات المعتقل بإجراء تفتيش مباغت لأحد المهاجع الذي يتم

اختياره بصورة عشوائية . وكانت فترة الصباح تمضي عادة في المراجعة الطبية للمستوصف . ومع كل صباح كان يصل فوج جديد من المعتقلين ، عادة ما يضم ثلاثين أو أربعين معتقلاً ، فتعاظم بذلك عدد المعتقلين ، لاسيما وأنه لم يكن يتم إطلاق سراح أحد من المعتقلين . ولكن حدث ، وبصورة مباغتة ، أن تم إطلاق سراح مجموعتين كبيرتين مما أثار الأمل في النفوس . غير أن هذا الأمل ما لبث أن خاب بسبب الاستمرار في ممارسة ذلك العمل الذي لم نتمكن من التعود عليه بالرغم من تكرر وقوعه يومياً ، حيث يصل بعض المظليين من سرية الدعم ومعهم اللائحة (البيضاء المشؤومة) في أي وقت غير متوقع من أوقات الليل أو النهار ، فيصعدون مثنى أو ثلاث إلى مكتب الرقيب ، ويتسلمون منه الأفراد الذين وردت أسماؤهم في اللائحة ، بعد أن يكون قد تم إحضارهم من مهجع أو من عدد من المهاجع ، ثم يصلنا صوت سيارة (الجيب) وهي تمضي محملة بإخواننا المعتقلين البؤساء ، ليتعرضوا لجولة جديدة من التعذيب والألم . بسبب ظهور شواهد جديدة ضدهم ، أو بسبب ظهور تناقض في اعترافاتهم وأقوالهم .

خلاصة القول ، لم يكن هذا المعسكر الذي احتجزنا فيه من المعسكرات العادية ، وكان كل يوم يمر علينا يؤكد لنا هذه الحقيقة . فقد عشنا في معسكر لم تعلن عنه السلطات الإفرنسية بأنه معسكر شرعي ، نظامي ، فأطلقت عليه بخبث ولؤم اسم « معسكر الترفيه ، أو المخيم الثالث » ولكنه كان معسكر ترفيه من نوع (خاص) . يقيم فيه المعتقلون دائماً في انتظار وصول معتقلين جدد يتم إرسالهم من مراكز التعذيب والتشويه . وخلال هذه الإقامة ، كان لزاماً على جراحنا الدامية أن تندمل وتجف ، وكان لزاماً على آثار التعذيب

والتشويه في أجسادنا أن تخف وتزول حتى لا تكشف عن سوء المعاملة التي تعرضنا لها ، وحتى لا تفضح أساليب التحقيق الوحشية التي عشناها . هذا هو (معسكر الترفيه) الذي احتجزنا فيه ونحن في عزلة تامة عن العالم الخارجي ، ومن غير اتصال ، أو أخبار ، عن عائلاتنا التي اعتبرتنا بحكم المفقودين . على هذا عشنا أشهراً طويلة من الشك القاتل ، والمعاملة الوحشية . وكان عزاؤ نا في هذه الحياة المشتركة ، أننا نعيش جميعاً آلاماً واحدة ، ونمر جميعاً بتجربة واحدة ، نتعرض لما نتعرض له من أجل قضية نبيلة واحدة ، ومثل أعلى واحد .

أقيم المستوصف في غرفة صغيرة من إحدى الغرف الواقعة في مواجهة مهجعنا ، فكنا نرى من وراء القضبان الحديدية للنافذة ، عدداً من المرضى لا يقل عن الخمسين يومياً ، وقد التصقوا على الجدار ، واستندوا إليه ، بانتظار دورهم في المعالجة ، كنا نراهم في كل يوم وهم يعرجون ، وبعضهم لا يستطيعون السير فيقعدون أرضاً ، تحت أشعة الشمس الحارقة ، حتى يأتيهم من المعتقلين من يستطيع حملهم أو مساعدتهم على السير . وكانت أيديهم ورسغ أقدامهم مصطبغة بلون أحمر يكشف عن بقع كالوشم ، ترك التعذيب بالكهرباء أثراً واضحاً عليها . وكانت هذه الظاهرة تذهلنا ، وتحيرنا . فنتساءل : « لماذا يحملون جميعاً هذا الأثر على الرسغ ، رسغ القدم بالذات ، دون غيره من أعضاء الجسم ؟ » وأمكن لنا الحصول على تفسير هذه الظاهرة : « إن الروابط تخترق عميقاً في اللحم ، بسبب الاهتزازات الكهربائية ، فتتقيح الجروح ، ويضطرون إلى طلائها بالميكروكروم » . وقال لنا الرقيب المطلي الذي قدم لنا هذا التفسير : « إنهم لا يتقنون ممارسة عملهم . أما

أنا ، فأضع قطعاً من الورق المقوى ـ الكرتون ـ بين الروابط لالصاقها على الجسم حتى لا تتحرك فتترك أثراً في الجسم » .

كان هناك رقيب جزائري (اسمه س) يعمل ممرضاً ، وقد اعتقل معنا ، فكان يقوم بكل الأعمال للعناية بالمرضى المعتقلين . أما الرقيب الممرض المظلي ، فكان يأتي للثرثرة معنا ، والتسلية بنا . وبقي (س) يعيش في المستوصف ، للعناية بأمر اثني عشر مريضاً ، كلهم مصابون بأمراض خطرة ، وقد ترك كل واحد منهم على الأرض ، فوق غطاء ، وكانت حالتهم تتطلب عناية مستمرة ، ورعاية طبية خاصة . وكنا عندما نكنس الساحة وننظفها ، نستطيع الاقتراب لنشهد سبب صراخهم الحاد لشدة ما بهم من الألم .

كانوا ممددين أرضاً ، وهزالهم الشديد يفضح المرحلة التي وصلوا إليها في مرض (التدرن الرئوي) . وعيونهم ملتهبة بالحمى ، يحيط بهم البصاق . وهنا قدم مسودة ومنتفخة إلى درجة لا يمكن قياسها . وهناك ، يجلس رجل في زاوية ، يتنفس بصعوبة وقد جحظت عيناه ، وجمدت نظراته . كان أنين الأجساد يتصاعد من كل مكان في الغرفة ـ المستوصف ـ . وعلى مقربة من المدخل ، وضعت طاولة عليها كومة من المواد الطبية : كحول ، وميكروكروم ، واسبرين ، وكينين ، غير أنه لم يكن هناك شيء من المضادات الحيوية (أنتيبيوتيك) . وكان الممرض (س) يحرص على الاقتصاد في الكحول والأربطة ، فلا يعمل على توزيعها إلّا عند الضرورة . وكان المعتقلون يصطفون خارجاً بانتظار إدخالهم واحداً بعد الآخر ، حيث يعرضون على الطبيب جراحهم التي كانت بصورة عامة مركزة على أعضاء الجسم : وجوه منتفخة ، ولثث ملتهبة متورمة ، بعضهم يمشي بصعوبة قصوى بسبب ما أصاب

أقدامهم من التهاب حاد ، وارتفاع مرعب في درجة الحرارة . وهناك حروق في الأعضاء الحساسة من الجسم لا ضرورة هنا لوصفها أو التعرض لها . هذا علاوة على تلك الندب الصغيرة التي تظهر على البطن أو على بقية أجزاء الجسم . . .

كانت هذه الساحة الجديدة تشهد العجائب والغرائب ، ومنها مجنون كان يروح جيئة وذهاباً طوال النهار . فهل كان مجنوناً قبل اعتقاله ؟ أم أن التعذيب قد أسلمه إلى الجنون ؟ أم أنه يتظاهر بالجنون ؟ لقد اعتبرته ـ من وجهة نظري ـ أنه إنسان شاذ وغير طبيعي : ونظراته لا تخدع أحداً . كان يمرح في كل مكان من المعسكر بكامل حريته ، ذاهباً وعائداً ما بين طرفي الساحة وهو يقوم بحركات كثيرة ، ويقلد حركات الملاكمين على أفضل وجه ، وكان في الساعة السابعة من مساء كل يوم ، يجول حول المعسكر وهو يركض ـ رملاً ـ تحت أنظار المظليين الذين كانوا يشجعونه ويستثيرون حماسته ، فيما كان بقية المشاهدين يروحون عن أنفسهم بمتابعته والتعليق على حركاته . وكنا نتعذب كثيراً في بداية الأمر لرؤ ية هذه النفس التائهة ، المريضة ، وقد خضعت ، وهي مجردة من كل دفاع ، لهؤلاء الجلادين الذين يقومون على حراستنا . ثم لم نلبث أن تعودنا على ذلك ، فكان يدخل إلى مهجعنا كالريح العاصفة ، فيجلس للحظة بيننا ، يتحدث إلى نفسه بصوت منخفض أشبه بالدمدمة . ونقدم له الطعام ونحن خائفات وجلات تقريباً ، ثم يخرج متعجلاً نحو عالمه الخاص به .

* * *

كان طبيب المعسكر من وحدات المظليين ، طويل القامة ، نحيل البنية ، جاف الطباع ، يتحدث بقوة وبلهجة أهل (بريتانيا) .

وكان يرافق الممرض في جولاته أحياناً ، غير أنه كثيراً ما كان يتردد علينا ، إذ كان لدينا مرضانا أيضاً من النساء . فهذه فتاة شابة متزوجة ، لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، حاملاً في الشهر الثالث ، وعلى حلم ثدييها وعانتها حروق من التيار الكهربائي ، وهي تتبول دماً . وتلك سيدة نحيلة (هـ) لها من العمر أربعين عاماً ، ذات بشرة سوداء فاحمة ، تعرج على قدمها ، ومريضة بالربو ، وتلك أيضاً السيدة (آ . ت) المصابة بمرض القلب الخ . . . وكنا نتناقش معه طويلاً في وضع مرضانا ، فكان يقول : « ماذا تريدون مني أن أفعل ؟ ليس هناك أدوية ، ولا شيء ، ثم يشير إلى ذقن الممرض وهو يتابع قوله ، وعلى كل حال ، فإنهم سيموتون جوعاً ومرضاً . كان لزاماً وضعهم في المستشفيات بصورة طبيعية لأن حالتهم تتطلب عناية من نوع آخر ، وهذا أمر واضح جداً » .

اتخذنا الترتيبات لإرسال الحلوى والمربيات والحليب والخبز إلى المرضى الذين اشتد عليهم الداء ، وأمكن تأمين شراء هذه المواد سراً من الخارج . وفي إحدى الأمسيات ، كلفت (ك) بكنس وتنظيف الساحة ـ أمام المستوصف ـ وعادت من تنفيذ مهمتها مهتاجة جداً لتقول لنا : « أتعرفون من يوجد في الأسفل ، وبحالة حزينة تثير الشفقة ؟ إنه الصائغ ـ الجواهري ـ مصطفى الذي يمتلك دكاناً في شارع بوتان ! لقد عرفني ، يا له من فتى شجاع ؟ ويا له من بائس ؟ سنرسل له غداً بعض الطعام » . ولما كان البعض منا يقيمون في هذا الحي ، ويعرفون جيداً هذه الناحية ، فقد عرفوه . وقالوا إنه شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، متزوج وأب لطفلتين صغيرتين ، مستقيم في تعامله مع الناس ، ولهذا يحترمه الجميع ويقدرونه . وفي اليوم التالي ، استطاعت اثنتان منا رؤ يته والتحدث

إليه ، وتشجيعه ببضع كلمات . كان يتنفس بصعوبة ، وفي حالة إغماء ، ولم يلبث أن مات في الساعة الواحدة ليلاً . وبقيت أنوار المصابيح الكهربائية تسطع على جدران المستوصف طوال الليل . ووصل إلينا صوت سيارة (الجيب) الخاصة بالطبيب وهي تدخل المعسكر ، وبقيت غرفة الرقيب مضاءة حتى وقت متأخر من الليل . وفي الصباح ، أخذ الضجيج يرتفع بين المعتقلين وهم يتناقلون الخبر : « لقد مات الجواهري مصطفى ، الذي يعمل في شارع بوتان ، أضلاعه مهشمة وأحشاؤه ممزقة » وقامت الفتاة (ك) بجمع ثيابه .

كان مهجعنا مكتظاً بالمعتقلات ، وقد أفدنا من بعض الامتيازات ، باعتبارنا نساء ، فكان باب الغرفة يبقى مفتوحاً ساعات عديدة في النهار ، وكنا نستطيع التردد على المراحيض بحرية تامة ، ونستطيع غسل ثيابنا ، بل وحتى الاغتسال بمساعدة أنبوب مرن . وكان لدينا بعض الأغطية التي كنا نتبادلها فيما بيننا . في حين كان الرجال يتعرضون للمعاناة الصعبة أكثر منا ؛ ينامون على الأرض ، ويلتحفون ثيابهم إن وجدت معهم هذه الثياب . ولا يخرجون إلى المراحيض (دورات المياه) إلّا بنظام (الاستعراض) ، أو بالرتل ، وبمعدل مرتين يومياً ـ كما سبق ذكره ـ يحيط بهم المظليون . وتقفل عليهم الأبواب فور عودتهم ، وكانوا يتعرضون للضرب ، كما لو كانوا نوعاً من الكلاب .

جاء مظليان ، ذات يوم ، لأخذ الفتاة (ف) التي كان اسمها على (اللائحة البيضاء) وما إن نطق الديدان منادياً لها ، حتى اصفر وجهها ، وشحب لونها ، وارتدت ثيابها وهي ترتجف ، وتقدمت لمساعدتها بجهد ، وجمعت لها حوائجها بصعوبة ، إذ كنت أرتجف

بدوري من قمة رأسي إلى أخمص قدمي . وقلت لها مشجعة : « تشجعي ، تشجعي ، فلعل هناك خطأ في الإسم ! » وكان من العسير علينا تشجيعها ونحن نعرف جيداً ما ينتظرها .

خرجت (ف) . وتركتنا في حالة من القهر العميق ، والإحباط المرير ، محرومين من صداقتها فمر الوقت بنا متباطئاً ، ثقيلاً . لقد كان معنا راقصات فنانات ، ومطربة تغني الشعر العربي الغنائي ، فكانت واختها تثيران المرح في غرفتنا . وكانت الفتاة (ر . س) قد عرفت كثيراً من البلاد بسبب كثرة أسفارها ، ووفرة نشاطها ـ ديناميكيتها ـ فكانت تنضم إلينا ، وكذلك كانت تفعل الفتاة (هـ) ذات الشعر الأسود الطويل والمضفور ، والتي كان لها من العمر ستة عشر ربيعاً ، فكانت أصغر المعتقلات فينا . ولم تكن (ي ـ هـ) التي تبلغ من العمر (٦٥) عاماً لتمتنع عن المشاركة في إثارة جو المرح ، والترفيه عن المعتقلات ، وتلك هي صورة عن الطريق الذي أوصل هذه السيدة العجوز ، المحدبة الظهر ، والشديدة النحول ، للسير وحدها خلال فترة عصيبة من الحياة . ولقد اشتد بنا الزحام في هذه الفترة ، فلم يعد لدينا ما يكفي من الأغطية ؛ فكنا نستيقظ في الليل ونحن نرتعد من البرد ، ونمضي بقية الليل في رواية القصص والحكايات بانتظار طلوع النهار . ولم تجد (الأم حليمة) ملاذاً لها في أي مكان ، فنامت على زاوية من غطاء ، لم تتذمر ، ولم تعلن عن سخطها ، وعندما أفاقت في الصباح ، منحنية منطوية ، انسحبت من مكانها وهي تقول : « **آه أيتها الحرية ، كم نعاني من أجلك ؟** » وذكرتنا كلماتها هذه بما يجب علينا عمله لتوثيق الروابط فيما بيننا داخل هذه الغرفة ، وأقبل الجميع عليها ، وضموها إليهم ، وأعجبوا باتساع أفقها ، وفكرها المتفتح ، وذكرت لنا بأن المظليين قد عملوا

على تعذيبها (بالتيار الكهربائي) متهمين إياها بإيوائها لواحد من المجاهدين .

* * *

اقترب موعد عقد جلسات هيئة الأمم المتحدة ، ورافق ذلك تصعيد في حملة الاعتقالات . لقد أرادت السلطات الاستعمارية إلقاء القبض على الزعيمين المجاهدين (علي لابوانت وياسف سعدي) بأي ثمن ، وسواء أمكن القبض عليهما وهما أحياء أو أموات ، وذلك قبل عقد جلسات هذه الهيئة الدولية . وسارت عملية التعذيب بسرعة مذهلة ، وتطورت حملة الاعتقالات فشملت : الفتيات الصغيرات ، والأطفال ، والشيوخ من الرجال والنساء .

أخذ الجلادون في تعذيب الأم من أجل اعتقال أبنائها، وتعذيب الزوج أمام زوجته والزوجة أمام زوجها، والطفل حتى يستسلم أبوه. وخلال هذه الفترة اعتقلوا مجموعة من الفتيات الصغيرات بتهمة العمل في تأمين اتصالات المجاهدين أو إيواء القادة ممن تبحث عنهم السلطات الإفرنسية . كانت من بينهن (سكينة) ذات الجمال الرائع ، ونضرة الشباب المتفتح لعمر لا يزيد على السبعة عشر عاماً ، وقد اجتذبت اهتمام الجميع ، بابتسامتها الطفولية البريئة ، وعيناها الدعجاوين البراقتين . وكانت قصص التعذيب كثيرة ومتنوعة : فالفتاة (ب. ف) عذبت بالكهرباء ، والماء ، وأدخل قضيب حديدي في فرجها . وهناك قصة امرأة لها من العمر (٣٥) عاماً ، قذفت بزورق إلى عرض البحر ، وشرع جلادوها في تغطيسها بالماء حتى تعترف ، وكرروا العملية معها مرات عديدة حتى ماتت مختنقة . وانتهكت أعراض عدد كبير من الفتيات الصغيرات ، وأجلسوا الفتاة (د . أ) على عنق زجاجة مكسورة .

وسلط الكهرباء على لثتها .

ومضت على ذلك أسابيع ، وانقضى الشهر الثاني على اعتقال السيدة (و) التي باتت تنظر إلى الجميع من غير أن ترى أحداً ، كمن أصابها مس من الجنون ، وكان تفكيرها برضيعها الذي تركته في سريره قد آل بها إلى ما هي عليه من منظر لا يحتمل .

كان التوتر العصبي العام يشتد في بعض الأمسيات حتى يبلغ ذروته ، فتنفجر المناقشات الحادة بين المعتقلات لأسباب تافهة ، مثل الحصول على غطاء ، أو قطعة خبز ، أو حتى من أجل كلمة نطقت بها إحداهن على غير إرادة منها ، ودونما قصد الإساءة إلى أحد . وفي مثل هذه الحالة كان مهجعنا يتحول إلى ما يشبه (غرفة المجانين) . بعضهن يقهقهن ضاحكات ، وأخريات يرفعن عقيرتهن بالغناء ، وأخريات أيضاً يتصايحن على غير إرادة منهن .

كان (الجوع)و(الكآبة) هما وحدهما القادران على إرغامنا على التحكم بأعصابنا . فعندما نحرم من طعام الصباح ، وتأتي الساعة الواحدة والنصف ظهراً ونحن جياع ، ترانا وقد لجأت كل واحدة منا إلى زاوية وتمددت فيها ، وراحت في غفوة هي بين النوم والصحو ، مستسلمة لألم الجوع ، وخاضعة للضعف الذي لا يمكنها حتى على الإجابة إذا ما طرح عليها أي سؤال . وكان وباء (الحنين) يهبط علينا بصورة مباغتة ، فيرتفع ضجيج الإجهاش بالبكاء ، وتنطلق من العيون نظرات مرعبة . وسعيدات هن اللواتي يجدن القدرة على البكاء وذرف الدموع ، ففيها بعض العزاء لنفوسهن المعذبة . وكانت الفتاتان المغنيتان (ف)و (د) تقدمان لنا في مثل هذه الظروف مساعدة لا توصف . كانتا لا تقومان بالغناء إلاّ نادراً (وعندما تتوافر لهن الاستثارة) . وعندها تنطلقان للغناء من أجل الجميع . وذات

مساء عرفت الفتاتان بأن أمهما مريضة ، فأخذتا تنتحبان ، واعتصرنا الألم جميعاً ، إذ تذكرت كل واحدة أهلها وعائلتها ، وخيم الحزن على المعتقلات ، وشعرت كل واحدة بغصة في حلقها وهي تستمع إلى المغنيتين ينشدن (فاض الوجد يا عليا) بلهجة حزينة أثارت الحنين والبكاء . كان صوتها عذباً للغاية ، موزوناً ، قوياً ، يغيب أحياناً ليترك الفرصة أمام (المجهشات بالبكاء بحرقة ومرارة) .

لم يعد تبادل الحديث هو الشغل الشاغل للمعتقلات ، بعد مضي فترة من الوقت ، فباتت الطاعنات بالسن ـ خاصة ـ يجتررن الحديث ذاته ، وذلك بسبب الافتقار لمواضيع جديدة يمكن التحدث فيها . وها هي على سبيل المثال (السيدة ـ هـ) تتحدث في قضيتها فتستثير كل من يسمعها ، إنها لا تتحدث إلاّ « عن راتبها التقاعدي الزهيد الذي ستفقده بعد أن أفنت سنوات عمرها في العمل خادمة لأحد الفنادق » . ومع العزوف عن الحديث ، اتجه اهتمامنا نحو الخارج ، فكنا نمضي فترة بعد الظهر بكاملها أحياناً ، ونحن واقفات خلف القضبان الحديدية للنافذة ، نتطلع من خلالها إلى الحقول ، والسهل البعيد ، كان هناك (طريق الجيش الترابي) الذي يفصلنا عن تيار الحياة . وكانت بعض العائلات قد نجحت في الوصول إليه ، وصرخوا منادين أفراد عائلاتهم المعتقلين (بأسمائهم) و(بألقابهم ـ الكنية) . غير أن الجند استطاع طردهم بعيداً حتى الغابة . وكنا نجيبهم عندما ندرك أن الحرس مشغول عنا . وكان لا بد من الصراخ بقوة كبيرة حتى تصل كلماتنا إلى آذانهم .

حاولت (زوجة مصطفى) الحصول على أخبار زوجها بعد مصرعه بأسابيع عديدة ، وكانت تنادي (مصطفى) وأجابتها إحدى المعتقلات « إنه بخير ـ إنه بخير ». غير أنها علمت بقصة وفاته ،

واطلعت على مأساته ، فيما بعد ، وعندما جاءت ظروف مناسبة .

* * *

مررنا نحن السجينات بحالات متناقضة ، على نحو ما يحدث في كل سجون العالم . فقد كانت تصادفنا أحياناً بعض اللحظات الحلوة . وكنا نسافر بعيداً مع (ي) الجميلة ، ونصفق لها وهي ترقص وتغني . وتعلّمنا من (ف . ت) بعض الأغنيات الشعبية . وقضينا لحظات ممتعة مع العجوز (ي) العرجاء ، والتي كانت تقص علينا (حكايات الأساطير) بصوتها الأجش ، قبل أن ننام ، فتذكرنا بالأطفال عندما يتحلقون حول الجدة لتهدهدهم بحكاياتها الحلوة .

كنا نحتمل الجوع ، ونحتمل البرد ، ونحتمل المرض ، ونحتمل حتى (اللائحة البيضاء) . . غير أن شيئاً واحداً لم نكن قادرين على احتماله ، لشدة ما يثير فينا من الفزع ، وذلك هو (أبو شكارة ـ أو لابس البرنس)[١] . الذي ما أن تلمحه إحداهن وهو ينزل من المركبة الخفيفة (الجيب) حتى تسرع بالدخول إلى المهجع لتعلن قدومه . وعندهاتسرع كل واحدة لتمسك شيئاً تغطي به وجهها وكتفيها ، سواء كان هذا الشيء : شالاً ، أو قميصاً ، أو غطاءً صوفياً، أو معطفاً. الخ . . . حتى لا يظهر إلّا قسماً صغيراً من الوجه .

كان (أبو شكارة ـ أو لابس البرنس) يقترب من المهجعوبرفقته رجلين من المظليين ، وقد غطى وجهه ونصف جسمه بكيس مفتوح من طرف واحد ، وقد ثقب هذا الكيس في موضع العينين . وكان

(١) البرنس هنا ترجمة كلمة : CAGOULÉ وهي الثوب الفضفاض ، لا أكمام له ـ وله غطاء رأس متصل به ـ كالممطر ـ ومنه ما يستر الوجه بحيث لا يظهر منه إلّا العينين ، عادة ما يلبسه الجلادون الذين يكلفون بتعذيب الآخرين أو إعدامهم .

غالباً ما يسير مترنحاً ، يساعده المظليون في سيره ، إنه قادم ولا ريب من (حفلة تعذيب) ويداه مقيدتان الى ظهره . وكان الرجال أيضاً يبتعدون عن النوافذ لدى رؤ يته . كان الخوف يسيطر علينا جميعاً ، رجالاً ونساء . لقد جاء هذا الرجل ليكشف أمر من يعرفهم من المشتركبن معه في عمل من أعمال الثورة ، وقد غطى وجهه حتى لا يعرفه أحد أو يتعرف عليه. فيعملون على إدخاله إلى كل مهجع من المهاجع ، حيث ينتصب المعتقلون وقوفاً ، وينتظرون بقلق بالغٍ مروره ، وتجاوزه لهم بسلام . وكثيراً ما كانت بعض أخواتنا المعتقلات ، تسقطن مغميات عليهن لشدة تأثرهن برؤ ية (أبو شكارة) . ولقد كانت حالتنا الجسدية وهذا الرعب اليومي أكبر وأقوى من قدرتنا على الاحتمال . وكان ما يخيفنا هو معرفتنا بأن (أبو شكارة) قد يتهم أي إنسان ، سواء من أجل كسب الوقت ، أو ليخفف من آلامه ، أو أنه يشير إلى أحد من يعرفهم بدافع الحقد أو بدافع الغيرة ، ولهذا كانت لدينا أسباب كافية للشعور بالذعر . وكان يتم اقتياد من يشير إليه (أبو شكارة) فيأخذه معه . وأحياناً يعود (أبو شكارة) وحده ، من غير أن يتعرف على أحد ، وحتى في مثل هذه الحالة ، فإننا لم نكن نجرؤ على التفكير بما ينتظره بعد عودته إلى (التعذيب) .

استطعنا من خلال الأحاديث السياسية مع الرقيب والعريف ، أن نتعرف على هذه المخلوقات : سواء هؤلاء الذين يعملون على حراستنا ، أو أولئك الذين يعملون في تعذيبنا . بعضهم من الأيتام ، وبعضهم كانوا أحداثاً جانحين ، وبعضهم الأولاد الأكبر ـ البكر ـ في عائلات كثيرة الأولاد . وكثير من الشرسين المجرمين . وجميعهم بصورة عامة ، من الجهلة الذين يفتقرون للتكيف مع المجتمع ،

والحمقى ، وقصار الرجال ذوي النفوس الحاقدة المعقدة . وذات يوم اشتبك اثنان منهم في عراك ، خلال فترة بعد الظهر ، وأشهر كلاً منهما سكينه وهاجم بها الآخر ، في وسط الساحة ، وأسرعنا الى النوافذ ، نتابع بفرحة نابعة من القلب معركة اثنين من جلادينا . وكل منهما يذبح الآخر ويقتله .

علمت ، في جملة ما علمته ، من خلال تلك الثرثرة ، بعضاً من التفاصيل بشأن المعسكر ، ومنها : أن معسكرنا هذا هو في جملة المعسكرات التي تتكتم السلطات الإفرنسية عنها ، وتنكر وجودها . وأن الصرخات التي سمعناها في الأيام الأولى لاعتقالنا ، كانت صادرة عن مريض بتر المظليون عضوه ، وأن هناك معسكرات (سوداء) كثيرة حول العاصمة (الجزائر) وفي (البيار) و(سيدي فريج) و(لارودوت) الخ . . .

* * *

بلغ عدد المعتقلين الذين سجلت أسماؤ هم على اللوحة السوداء في مكتب الرقيب (٨٦٤) معتقلاً . وانتشر الزحار الحاد (الدوسنطاريا) بين الرجال ، كما أصيب بها بعض النساء أيضاً . غير أننا لم نستسلم لحالتنا ، واستطعنا تأمين الوسيلة للحصول على الأخبار : فكانت الصحف تنتقل من مهجع إلى مهجع ، بالرغم من التفتيش الدقيق . وأمكن للرجال أيضاً المحافظة على شجاعتهم ، والسخرية من حراسهم وجلاديهم . ومثال ذلك ، ما حدث يوم اقتاد أحد المظليين مجموعة من المعتقلين نحو مهاجعهم ، ثم طلب إلى أحدهم أن يرقص أمامه رقصاً شرقياً ، وخرج الشاب من الصف بعد لحظة من التردد ، ثم شرع في الرقص ، بينما أخذ رفاقه يصفقون له ويرددون بصوت واحد : « إلعن ولد القوم ، إلعن ولد القوم ، أي لعن

أهلكم » وأظهر المظليون سرورهم ، ولم يفهموا تلك الشتائم التي وجهت لهم . وقد أثار هذا الحادث في نفوس النساء قدراً كبيراً من الارتياح .

بوغتت النساء ذات يوم مباغتة بلغت بهن أقصى درجات الاستثارة . فقد دخلت إلى المعسكر الفتاة (ف . ت) وهي تحمل حقيبة سفر في يدها ، وعلى رأسها منديل رقيق ، يحيط بها إثنان من المظليين . ولم يكن مثل هذا المشهد مألوفاً في المعسكر . وتساءلت النساء : « ترى من تكون هذه الفتاة ، التي وجدت ما يكفيها من الوقت لوضع ثيابها في الحقيبة من أجل إقامتها البائسة في المعسكرات ؟ » . لقد كان مظهرها يوحي بأنها تعمل متنقلة في المقاومة السرية ، وأنه قد تم اعتقالها عند سفرها لتنفيذ إحدى المهمات . وعلى كل حال ، فإن فترة التساؤ ل لم تستمر طويلاً ، إذ تم إدخالها إلى مهجعنا بعد هنيهة ، وعرفنا أن اسمها هو (ف . ت) وقالت أنها قدمت من معسكر (مصوص) بعد قيامها برحلات عديدة ، وأنها تعرضت للتعذيب قبل أن ينقلوها إلى معسكرنا ، وكانت قد تعرضت من قبل للتعذيب أيضاً في معسكر (مصوص) لأنهم هناك يقومون بالتعذيب أيضاً أثناء القيام بالبحث والتحقيق في أعمال أخرى . وقالت أيضاً بأنها (جربت) خلال التعذيب كل الوسائل المتبعة ، من التيار الكهربائي إلى الماء الخ . . . واعترفت أنها حاولت الانتحار قبل أن تتعرض لتجربة التحقيق الثاني : « غير أن حديد النافذة أمسك بها ، فبقيت معلقة ، وأسرع مظلي لإنقاذها من الموت الذي كانت تتمناه وذلك في اللحظة الأخيرة » وها هي الآن تقوم (برحلتها) الثالثة . وشعرنا أنها تتألم ، وتعاني من القلق ، وطالما تساءلت : « لماذا نقلوني إلى هنا ؟ ولماذا يبدلون مركز

اعتقالي من معسكر إلى معسكر ؟ تراهم يريدون تعذيبي من جديد ؟ أم تراهم يريدون إطلاق سراحي ؟ إذا فعلوا ذلك فإن مدة اعتقالي ستكون ثلاثة أشهر منذ توقيفي في معسكر (مصوص) ! . . .

وهكذا كانت تتعلق بأكبر الآمال وهي تعاني من أشد الآلام والمخاوف حتى أنها لم تكن تعرف للنوم طعماً ، حتى علمنا بعد أيام قليلة ، ومن خلال التقاطنا لبعض أطراف الحديث الذي كان يدور بين الجلادين ، بأنهم سيعيدون الفتاة (ف) إلى التحقيق من جديد ، وقد يكون ذلك غداً . فاتفقنا مع الفتاة (ر) على التمهيد لها من أجل إعداد (ف) نفسياً للتجربة الجديدة ، حتى لا يكون الأمر مباغتاً لها عندما يحضرون لأخذها . وأمضينا ليلتنا على ذلك ، فكانت المسكينة (ف . ت) تصغي باهتمام الى التفاصيل الجزئية التي عملنا على إقحامها عمداً في قصص ما تعرضنا له من التعذيب ، وانتهى الحديث عندما قالت الفتاة (ر) الجملة التالية :

« وهكذا ! وكما ترين يا ـ ف ـ ها نحن قد تجاوزنا البلاء ، ونحن الآن في صحة جيدة . فاللحظات التعيسة تمضي دائماً ، والمهم في الأمر هو أن نضبط أعصابنا ، وأن نسيطر على أنفسنا » . غير أنها لم تدرك يقيناً ما تعنيه (ر) بكلماتها هذه إلّا بعد أن جاؤ وا لأخذها . وغابت عنا لمدة يومين ، ثم عادت ، وقد شحب وجهها قليلاً ، وقالت لنا : « قليلاً من الكهرباء ، تصوروا أنهم أخطؤ وا بي ، غير أنهم لم يكتشفوا خطأهم إلّا بعد أن عذبوني بالكهرباء » . وبقيت معنا بعد ذلك لمدة أسبوع ، أعيدت بعده إلى معسكر (مصوص) . غير أنني لاحظت أنها كانت خلال هذه الفترة : سوداوية المزاج متشائمة ، منغلقة على نفسها ـ انطوائية ـ تقية ورعة ، تسبب لها التعذيب بانهيار عصبي ، فكانت لا تتحدث إلّا عن الموت .

أفاق المعسكر ذات صباح وقد اجتاحه نبأ مفاده : « أنه سيتم إطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين » . فكان كل واحد يأمل بأن يكون اسمه في عداد من سيتم إطلاق سراحهم . وكان جرس الهاتف يرن باستمرار ، وبعثت حياة جديدة في المعسكر . وأعلن عن أسماء الذين سيخلى سبيلهم ، فكانوا مائة تقريباً ، تم جمعهم من كافة المهاجع ، وحشروا بعد ذلك في مهجع واحد ، حيث بدأ الرقيب بفحص جراحاتهم ، والبائس ، عاثر الحظ ، هو ذلك الذي لا زالت آثار التعذيب باقية واضحة على جسده، إذ كان لزاماً عليه البقاء في المعتقل حتى تشفى جراحه شفاء تاماً . ثم جاء (النقيب بوتوت) فدخل إلى المهجع ، وألقى عليهم محاضرة مستفيضة انتهت بالهتاف الذي ردده المعتقلون مع النقيب « تحيا فرنسا ، تحيا الجزائر ! » . وكان لزاماً عليهم أيضاً أن يهتفوا ـ في سرهم ـ « عاش التعذيب ! » . وفي مثل هذه اللحظة ، فقدت الكلمات معانيها ومضامينها ، وأخذ الذين أطلق سراحهم بالخروج ، ومعانقة أولئك الذين بقوا رهن الاعتقال . وكان بعضهم يذكر هؤلاء الذين سيتجاوزون بعد برهة الباب الحديدي ، فيقول لهم : « لا تنسوا العنوان » و« اذهب لزيارة ابنتي وتطمينها عني » . وكنا ـ نحن النسوة ـ نصرخ من وراء القضبان : « أيها الأخوة ! أيها الأخوة ! لا تنسوا أبداً، لا تنسوا أبداً . ما فعله هؤلاء بنا » . فكانوا يجيبون بتأثر واضح ، وبصوت مخنوق : عما قريب ، عما قريب ، سيجيء دوركم بإذن الله .

* * *

مضى شهر على ذلك تقريباً عندما تجمع المظليون الذين كانوا بقيادة (العقيد بيجارد) ومضوا لتنفيذ عملياتهم في الجنوب ، وشعرنا في المعسكر بارتياح لذهابهم ، إذ فكرنا ونحن نراهم يخرجون :

« سينتقم لنا إخواننا الثوار المجاهدون من هؤلاء ، ولكل ما فعلوه بنا » .

* * *

انتقلت إدارة المعسكر إلى جنود القبعات الخضر (المغاوير) . وتسلم الأمور الإدارية مساعد ألماني من قدامى جنود اللفيف الأجنبي ، ومعه عدد من الألمان والإيطاليين والهولانديين ، ولم يكن بينهم إلّا رقيب فرنسي . ولشد ما كانت دهشتنا ونحن نرى أن حياتنا في المعسكر بدأت في التحسن . وظهر أثر النظافة واضحاً في المعسكر، وبات باستطاعة المعتقلين حلق شعر ذقونهم (لحاهم). وقص شعورهم. كما سمح لنا بغسل ثيابنا، والاستحمام ، وحتى رعاية المزروعات والدواجن . وأجريت التمديدات الكهربائية إلى كافة المهاجع أخيراً . وتوقف الضرب حتى بات أمراً نادراً وفي ظروف غير طبيعية ، وغير اعتيادية ، وجاء يوم الجمعة بعد يومين ، فأقيمت الصلاة ليوم الجمعة في الساحة العامة للمرة الأولى . وكان هناك (مفتي) بين المعتقلين ، جمع حوله كل أولئك الذين لا زالوا يعرفون أداء الصلاة . أما الآخرون فقد جلسوا يستمعون بصمت مؤثر . وارتفع صوت (المفتي) هادراً ، مثيراً للمشاعر ، وخرجت النسوة من المهجع ، ووقفن أمام الباب ، وأقمن الصلاة . بخشوع وتأثر دفع الكثيرين منا للبكاء . وانبعث الأمل قوياً في النفوس ، والمصلون يركعون ويسجدون للواحد القهار ، تحت السماء المشرقة ، حيث أصوات المصلين ترتفع من القلوب والحناجر ، داعية الله الفرج القريب ، والنصر لعباده المؤمنين .

٤ ـ أم الشهيد(*)

أقيم الاحتفال السنوي في مدرسة (الأبيار) بمناسبة انتهاء العام الدراسي ، ونجح أولادي بمرتبة الشرف ، وبات لزاماً عليهم الاشتراك في التمثيلية التي تقرر تقديمها على مسرح المدرسة . ووزعت عليهم الأدوار التي سيمثلونها . فكان دور ابني هو القيام بدور الملك (داغوبير)[١] . وقمت بتفصيل سترة لـه ، ذات لون أزرق

(*) بقلم (أنيسة منصور) وهي تحكي قصة أم التحق ابنها . بجيش التحرير ، واستشهد ، والمرجع :

RÉCITS DE FEU (SNED) S.N. EL MOUDJAHED. ALGER. (1977) P.P.303-306.

(١) داغوبير (DAGOBERT) اسم عدد من الملوك ، أبرزهم (داغوبير الأول) ابن كلوتير الثاني وبيرتود (٦٠٠ ـ ٦٣٩) م . تقريباً . كان ملك اوستراسيا (AUSTRASIE) اعتباراً من سنة (٦٢٣) حتى سنة (٦٣٢) ثم أصبح ملكاً لفرنسا اعتباراً من سنة (٦٢٠.) واعتمد في حكمه على وزيره (سانت ايلو : SAINT-ELOI) الذي اشتهر بكفاءته . منح امتيازات هامة لكنيسة (سانت دونيس) وخاض صراعاً عنيفاً ضد (السلاف) و (الباسكيين) و (البروتون) . واستولى (عمد القصر) على السلطة بعد وفاته . ومن الضروري الإشارة إلى تركيز التعليم على تاريخ فرنسا الموغل في القدم . وتجاهل التاريخ الإسلامي في بلد المسلمين الجزائر .

جميل (جاكيت) وبنطالاً منفوخاً، على نحو ما كانوا يلبسونه في ذلك العصر ، مع قبعة سوداء . وسارت الأمور بالنسبة له على أفضل ما يرام . أما أخته فكان عليها تمثيل دور فراشة وردية اللون ، وبذلك يكون ـ ابني وابنتي ـ قد حصلا على الدورين الرئيسين في التمثيلية .

جاء موعد الاحتفال ، وغصت ساحة مدرسة (دوري) بالمدعوين الذين كان معظمهم من الفرنسيين . وكان يلزمني قدر غير قليل من الشجاعة حتى أتمكن من الاختلاط بهم ، أنا (فاطمة الصغيرة) ذات الحجاب المسدل على الوجه ، والثياب البيضاء الطاهرة ، سأظهر بينهم مثل حيوان (البطريق) . المهم في الأمر هو أن الحفلة بدأت بعزف النشيد الوطني الإفرنسي ـ المارسييز ـ ووقف الجميع ـ إلّا فاطمة الصغيرة ـ التي بقيت جالسة على كرسيها ، متجاهلة كل ما كان يدور حولها . واستدارت الرؤوس نحوها ، وهي تحدجها بنظرات ساخطة تعبر عن غيظ أصحابها ، غير أنه ما من أحد تجرأ على توجيه أية ملاحظة . وانصرفت (فاطمة الصغيرة) سعيدة إذ رأت (ابنها وابنتها) وهما يمثلان دوريهما بنجاح رائع .

كنت وأنا أتابع التمثيلية ، أفكر بأمر ذلك اليوم الذي سيأتي ، وينضم فيه أولادي إلى قوات جيش التحرير الوطني ، لخوض حرب التحرير . وقد قيل لي ، بأن فرنسياً من هذه المدرسة ذاتها ، كان رفيقاً لابني البكر على مقعد الدراسة ، هو الذي قتله في (بوغاره) التي كانت تعرف باسم (روفيغو) وأنه قتله على الرغم من أنه عرفه ، ثم تعرف على جثته .

كان لي ولدان كبيران ، ابني البكر الذي مضى مجاهداً مع إخوانه مجاهدي الجزائر ، والابن الأصغر ـ الثاني ـ والذي انضم إلى الثوار ـ الماكي ـ حتى لا يؤدي خدمته الإلزامية في الجيش



التعليم في المناطق المحررة - الإسلام ضد الجهل

الإفرنسي ، ولم يكن له من العمر إلّا عشرين عاماً . وقد أصيب ابني البكر في معركة برصاصات اخترقت صدره ، استشهد على أثرها ، ومضى للقاء ربه . لقد مات شهيداً في سبيل وطنه . وكان يسكن إلى جوارنا ضابط فرنسي برتبة رائد ـ كومندان س ـ قتل ابنه أيضاً من أجل قضية الاستعمار الإفرنسي . فكان يمر من أمام منزلنا وقد وضع على ذراعه شريطاً أسود علامة الحزن والأسى لمصرع ابنه ، وكان الألم يعتصره وهو يراني ، أنا الأم الثكلى ، إذ أذكره (بمشكلته) . وكنت أراه والألم يعتصرني أيضاً ، إذ أرى فيه قاتل ابني . ولعل كل واحد منا كان يردد في سره :

« من يرد لي ولدي الحبيب ؟ من يعيد إلي ابني ؟ ! . . . » .

كانت ذكريات ابني البكر تطوقني باستمرار ، وتعذبني . وإنني لأذكر ذلك اليوم الذي أقامت فيه المنظمات النسائية احتفالاً تنظيمياً للمرأة الجزائرية في قاعة (ورط الأبيار) . وقد أمكن لزوجي الذي كان مستشاراً للبلدية ، أن يحصل على إجازة ـ تصريح ـ من العمدة الفرنسي لعقد الاجتماع في قاعة الموسيقى . وكان علي أن أعزف على المعزف ـ البيانو ـ موسيقى أغنية (مين يجيبها لنا) . في حين كان على ولديَّ الاثنين أن يقفا مع رفاقهم بثيابهم الكشفية لحراسة المكان ، وكلهم يشعر بالفخر والاعتزاز لاضطلاعه بهذه المهمة . كانوا جميعاً يقفون بفتوة الشباب وعزم الرجال ، وقد وضعوا حول أعناقهم المناديل الخضراء ـ فولار ـ وزينوا رؤوسهم بالعصائب الحمراء ـ العقال ـ . لقد كانوا منذ ذلك الحين ثوار المستقبل . وفخر (الأبيار) ومصدر فخري واعتزازي . **ترى من يستطيع إعلامي ؟ أتراه قد تعذب كثيراً ـ ابني الحبيب ـ قبل استشهاده ووفاته ؟ لقد كان شجاعاً على ما أعتقده . ترى من يستطيع التخفيف من ألمي ؟ . . .**

إني لأذكر (يوم عاشوراء) من سنة ١٩٥٧ ، ففي ذلك اليوم ، تسارعت الأحداث بشكل مذهل ؛ إذ قام شباب الحركة الوطنية الجزائرية بخوض معركة مع قوات الاستعمار بالقرب من الفندق . وأصيب ابني الثاني بجرح في رأسه. وقام والده بالتعاون مع أحد الجيران بنقله سراً ، في اليوم ذاته ، إلى مستوصف يشرف على عيادته الدكتور الحاج ، وقام بتقديم التصريح لإجراء العملية . وعندما عاد زوجي من عمله بعد نهار حافل بالمتاعب ، وهو في حالة من الإعياء الشديد ، بوغت بوجود العسكريين الذين كانوا يطوقون المنزل . وعرف على الفور أن السلطات الإفرنسية قد جاءت للبحث عنه ، وأنهم يعتقدون بأنه لا بد وأن يكون مختبئاً في مكان ما من المنزل ، ولم يكن زوجي يخشى من البحث والتفتيش لمعرفته بأن ابنه يرقد الآن في مكان مأمون ، غير أنه بات يخشى ما هو أسوأ . المهم في الأمر ، استأذن جند الإفرنسيين في دخول المنزل ، وسمحنا لهم بممارسة عملهم الذي لا بـد لهم من القيام به شئنا أم أبينا ، فعملوا قبل كل شيء على تهدئة ثائرة كلابهم المهتاجة التي كانت تقتص الأثر . ثم قاموا بتفتيش المنزل تفتيشاً دقيقاً شمل كل زاوية فيه . وخرجوا وهم يدمدمون ، إذ أصابهم الإحباط لأنهم لم يعثروا على ضالتهم ، غير أن ذهابهم لم يصرف عنا الذعر ، فقد مضى الليل وأنا أشعر ببرد شديد كادت له عظامي أن تتجمد .

جاءني في اليوم التالي تاجر جزائري معروف جداً في الحي كله . وبعد تحية الصباح طلب إلي الإبقاء على باب مرآب السيارة ـ الكراج ـ مفتوحاً طوال النهار ، وعدم إسدال الستار الحديدي الذي نغلق به عادة المرآب على سيارتنا ، وقال لي : بأنه ستنفذ عملية أثناء النهار، وأنهم يحتاجون مرآبنا لإخفاء سيارة المجاهدين الذين سيقومون

بتنفيذ العملية . وقال لي ، التاجر أيضاً ، بأن هذا الأمر قد صدر عن (جبهة التحرير الوطني) . وكان زوجي غائباً ، وكذلك ابني ، فأخذت الأمر على عاتقي ، وقبلت تحمل المسؤولية لأنني لم أكن راغبة في أن تفشل العملية لأي سبب من الأسباب . وقامت سيارة زرقاء بالمرور من أمام المرآب أكثر من مرة للتعرف على المكان ـ وتعليمه ـ وكنت أقف في الحديقة مع أبنائي الصغار ، ونبتهل الله أن ينصر هؤلاء الفتية المجاهدين . وقام هؤلاء بإلقاء قنبلة على مقهى يقع على منعطف (سكالا) بجوار الطريق الواسع . وكان هذا المقهى هو مركز اجتماع الإفرنسيين المقيمين في الحي ، والذين يتخذون من المقهى مركزاً لنشاطاتهم وأعمالهم . انفجرت القنبلة ، غير أنها لم تحدث أي ضرر أو أذى بسبب وقوعها بعيداً عن هدفها ، فلم تتجاوز ساحة المقهى . واستنفرت القوات الإفرنسية ، ويظهر أن سائق السيارة فقد سيطرته على أعصابه ، فلم يتمكن من التعرف على المرآب ـ الكراج ـ . وأخذ بدلاً من ذلك المنعطف الأول الذي يصل إلى مرآبنا ، طريقاً وصل به الى (جبل أديس) . وأدرك السائق خطأه ، فأنزل إخوته المجاهدين وقذف بصندوق من الذخيرة في الحديقة المجاورة لمنزلنا . ورأينا الصندوق ، فأرسلت ابنتي الصغيرة لتجلب سلماً من بيت جيران جزائريين من أجل إحضار الصندوق . ونبحت كلاب الجيران الإفرنسيين نباحاً مسعوراً ، فيما كان ابني الصغير يتسلق السلم ، حتى إذا ما وصل إلى أعلاه ، كان جوارنا الإفرنسيين قد أقبلوا وقد استنفرهم عواء الكلاب ، ودخلوا الحديقة ووجدوا الصندوق . فاجتاحتهم نوبة من الفرح . واتصلوا هاتفياً بالشرطة ، وما هي الا خمسة دقائق حتى وصلت تظاهرة من رجال الشرطة ومعهم كلابهم ، وشرعوا في تطويق الحي ومحاصرته . وانصرفت وأبنائي إلى الصلاة ، نبتهل الله مرور البلاء

بسلام . وفي تلك الفترة وصل زوجي إلى المنزل . وجاء بعده ابني البكر يتيه شباباً غضاً ، وعزماً قوياً ، ويضج وجهه بنور الإيمان ، ولدى مشاهدته للجيران المجتمعين ـ من الإفرنسيين ـ توقف قليلاً وتحدث إليهم مستوضحاً الأمر ، ومتجاهلاً اطلاعه على شيء مما يحدث . وصدقه جارنا وقال له : « **أنت ، يا صغيري محمد ، إنك بعيد عن الشبهات ، ذلك لأنك لست من طبقة هؤلاء الثوار ـ الفلاقة ـ الذين لا يجيدون إلاّ القتل والتدمير** » . **ولقد كان هذا الجار غبياً ، إذ اعتقد أننا نختلف عن الثوار ـ الفلاقة ـ** . المهم أنه لم يشك بأمرنا ، وهو لم يعرف بأن ابني قد أصيب برأسه أثناء المعركة ، لأننا أثرنا ضجيجاً ، وأعلنا أنه وقع من على دراجته .

أغلقنا على أنفسنا باب المنزل ، عندما عاد الهدوء ، وأطعمت بعض أفراد العائلة ، في حين اكتفى الآخرون بتناول المهدئات ـ الاسبرين ـ والزهورات ، ثم انصرفنا إلى أسرتنا ، وجفانا النوم ، حتى تجاوز الوقت منتصف الليل ، ولم يعد هناك من صوت إلاّ أصداء خطوات الدوريات الإفرنسية وهي تقرع أرض الطريق .

❊ ❊ ❊

مضت أشهر على هذا الحادث ، وشعر ابني أن الموقف في العاصمة بات غير محتمل ، وأدرك بأنه بات لزاماً عليه العمل بصورة علنية ، والانضمام إلى المجاهدين في الجبال للعمل إلى جانب إخوانه . وودعنا في اليوم الأول من إضراب الثمانية أيام . ولم نعد نراه بعد ذلك أبداً . وانقطعت أخباره انقطاعاً تاماً ، ومضت سنتان عندما علمنا باستشهاده في جبال (حمام علوان) وفي تلك الفترة ، لم يكن قد بقي منه إلاّ عظاماً في الأرض التي أراد الدفاع عنها وتحريرها .

لقد مضى ابني شهيداً ، وابتهل الله أن يلحقني به بعد أن يمكنني من الحج إلى بيته الحرام حتى أكمل فرائضي . وأن يتقبلني امرأة مسلمة مخلصة لبلادها .



الشعب وحده هو البطل

٥ ـ مجاهدة وأم شهيد

تلك هي قصة أخرى لامرأة مجاهدة ، وما أكثر المجاهدات ، وهي أم لشهيد ، وما أكثر أمهات الشهداء ..وقد كان موطن هذه الامرأة المجاهدة وأم الشهيد في (بني جناد) إحدى ضواحي القبائل الكبرى . وعرف عنها إيمانها العميق ، وصبرها على مشاق الحياة وبؤسها ، وإخلاصها غير المحدود لوطنها ، واعتزازها بالفضائل الأخلاقية التي تحلت بها المرأة المسلمة .

لقد مات زوجها وهي صبية ، لما تتجاوز العقد الثالث من عمرها ، وترك لها ابناً صغيراً ، وقليلاً من المال لا يكاد يكفيها لتأمين متطلبات حياتها البسيطة . واحتملت كل ألوان البؤس والحرمان حتى تقدم لابنها ماهو ضروري لنموه وتربيته على فضائل قومها . ولم يكن لها ما يؤنس وحشتها ، ويبدد شقاءها ، إلاّ تعلقها بأمل نشوء ابنها نشأة صالحة ، يحظى بها برعاية الله وعنايته ، حتى يكون لها عوناً طالما بقيت على قيد الحياة . ومضت ثلاثة وعشرون سنة من عمر الابن ، وأصبح شاباً صلب العود ، وتحقق أمل الأم ، فكان ابناً فاضلاً ، مسلماً مؤمناً على خلق رفيع ، أحبه أهل قريته ، وأخذوا يضربون به المثل ، ويتخذونه قدوة يحفزون أبناءهم على تقليده

والسير على نهجه وخطاه . وكانت وطنيته الصادقة أبرز صفة امتاز بها عن أقرانه . ولم يكن ذلك غريباً عليه ، فقد بقيت أمه هي قدوته في حب الوطن ، وهي مثله الأعلى في التضحية والفداء . وكان نشاطها الدائم وحيويتها المتدفقة موجهة كلها لوطنها ولابنها ، واستطاعت بذلك ، وبفضل ما تتمتع به من سمعة طيبة ، أن تؤثر تأثيراً عميقاً فيمن حولها من النساء ، حتى تحولن كلهن إلى مجاهدات ، عندما دقت ساعة الجهاد ، ولقد عرفت السلطات الاستعمارية قوة هذه العقبة في التأثير على مخططاتها الاستعمارية . وكانت ذكرى (لا لا عائشة) وأمثالها من المجاهدات عالقة في أذهان هؤلاء الاستعماريين ، فمضوا الى اضطهاد الأم وابنها معاً ، وطالما تجرعت الأم وابنها بنتيجة ذلك مرارة الظلم الاستعماري ، من إهانة وضرب وحرمان من كل ضرورات الحياة ، وسجن الابن مرات عديدة ، غير أن ذلك لم يزدهما إلاّ إيماناً بحقهما في العيش الكريم على أرض الأجداد ، ولم يزدهما إلاّ نفوراً من الاستعماري وغضباً على أساليبه في التنكيل والتعذيب . ولما بلغت الحياة درجة لا تطاق ، وبات من المحال على الابن ان يتحرك لكسب عيشه وسدت كل السبل في وجهه ، قرر السفر إلى فرنسا ، ليبتعد عن مراقبة الطغاة الوحشية في بلده ، وليضيع في زحام المدينة الصاخبة (باريس) .

* * *

انصرف الشاب (محمد) إلى العمل في أحد معامل العاصمة الفرنسية ، ونقل معه جذوة الثورة المتقدة ليشعلها في قلوب العمال الجزائريين من إخوانه الذين ضاقت بهم الدنيا في بلادهم ، مثله ، فجاؤوا يبحثون عن الحياة في بلاد أعدائهم . واستمر في عمله الشاق مدة عامين ، يقتطع من قوت يومه ليرسل إلى أمه ما يتوافر له من

المال . وشهدت حياة الأم بعض التحسن ، فقد بات باستطاعتها امتلاك قطيع صغير من الأغنام وشراء قطعة أرض صغيرة بها بعض أشجار الزيتون . غير أن هذا التحسن لم يصرفها عن متابعة التحريض على أعدائها ، وأعداء قومها ، الذين هم سبب كل شقاء ينزل بالقبيل ، وبالجزائر كلها . لقد حددت بفطرتها ، وبمعاناتها ، أصدقاء بلدها وأعداءه ، ومضت تبشر بالخلاص عندما يتم القضاء على الاستعمار وأذنابه ومرتزقته من أبناء بلدها .

كانت على موعد مع الثورة ، وما أن انفجرت شرارتها في الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٤ ، حتى مضت الأم حاملة لشعلتها ، مبشرة بانتصارها . وفي تلك الفترة من بداية الثورة سيطر الهلع على قلوب النساء والأطفال وهم يرون الخونة وقد أقبلوا بنذالة ووحشية ، ليقتصوا من الضعفاء المحرومين من كل وسائل الدفاع . فكانت (الأم) تقف معهم ، وتنفخ روح الشجاعة فيهم ، وتبعث الإيمان في قلوبهم . وكان لا بد لها من احتمال كل أنواع الأذى بسبب مواقفها الباسلة . وعرف المجاهدون فيها شجاعتها العالية ، وهمتها النادرة وهي تقترب من عمر الشيخوخة ، فكانوا يلجؤون إليها كلما أرادوا القيام بعملية في ناحيتها ، وينزلون ضيوفاً عليها ، فتكرم وفادتهم ، وتؤمن لهم احتياجاتهم ، وتنفذ لهم كل ما يطلبون بإخلاص وإنكار للذات لا حدود لهما ، ليس ذلك فحسب ، بل كثيراً ما كانت تثير فيهم الحماسة وهي تنشدهم الأزجال باللغة القبائلية ، تتغنى فيها ببطولات جيش التحرير الوطني ، ومجاهديه الغر الميامين . كانت تفعل ذلك كله ببساطتها الريفية ، حتى إذا ما حاول أحدهم امتداح صنيعها ، أسكتته بسرعة . وقالت إنها لن تكون جديرة بالمديح إلاّ إذا التحق ابنها في صفوف المجاهدين . وكان

هناك هاجساً يناديها باستمرار من أعماق نفسها ، بأن تستدعي ولدها للالتحاق بالثورة . واستجابت لنداء ضميرها ، فكتبت رسالة الى ولدها الوحيد ، تحرضه على العودة ، وتؤكد له أن الموت في سبيل الوطن هو الحياة الخالدة التي لا نهاية لها . وأن الإحجام عن هذا الواجب المقدس هو خيانة لا تعادلها خيانة . وأنها ـ هي ـ لا تشعر بأنها أدت واجبها في الحياة ، إلاّ إذا أمكن لها أن تضحي بنفسها وبولدها ، أعز من في الدنيا عليها ، من أجل الله والوطن .

* * *

وتصل الرسالة إلى (العامل محمد) فسرعان ما يتأثر بمضمونها ويستجيب لدعوتها ، لقد كان في الحقيقة يعاني صراعاً بين البقاء في فرنسا من أجل إعانة والدته ، وبين العودة للعمل في ميادين الجهاد . فجاءت الرسالة لتحسم الصراع ، ولتنهي المعاناة ، وما هي إلاّ أيام حتى يكون (العامل محمد) قد وصل الى قريته ، واستقر الى جوار والدته . وكان في نيته أن يمضي أياماً قليلة إلى جانبها ، يعوض بها بعض ما انتابه من الشوق إليها ، بعد غيابه الطويل عنها . ولكن ، وفي اليوم الرابع لوصوله ، جلست إليه . تحفزه على المضي لما جاء من أجله ، وتزوده بنصائحها وتوجيهاتها . ويقف الابن ، وتقف الأم تودعه ، وتبتهل الله له النصر ، وتواعده على لقاء ، إما في البيت وقد تحرر الوطن ، وإما في الجنة ، وقد رضي الله عنه وعنها .

أصبحت قصة (العامل محمد) وأمه ، أغنية حلوة على لسان أهل القرية ، يرددونها باعتزاز فتثير حماسة الجميع ، الرجال والنساء ، الشيوخ والأطفال . ويلتقط أحد الخونة أطراف القصة ، وينقلها ـ بأمانة وصدق ـ للسلطات الإفرنسية ، وتحركت هذه على الفور ، فأرسلت فرقة من الجند وقد شحن أفرادها حقداً أسوداً

وكراهية قاتمة ، فمضوا لاستجواب الأم ، واستخدموا أبشع أساليبهم في العنف والإرهاب . غير أن الأم التي عرفت كل هذه الأساليب ، أسلمت أمرها لربها ؛ واحتملت كل ما تعرضت له من القسوة بصبر لا حدود له ، وإيمان لا يتزعزع . وزاد ذلك من حقد رجال الاستعمار ، فمضوا إلى التنكيل بها بوسائل أخرى ، إذ عملوا على سلب ممتلكاتها ، وإحراق أثاث بيتها البسيط تحت بصرها ، وقطع شجرات الزيتون التي تخصها ، وصادروا لها بعض أغنامها ، وانتزعوا منها حليها ، حتى لم يبق لها إلّا سوارين أهدتهما فيما بعد لأحد المجاهدين ، وعلم الابن بما صنعه الاستعماريون مع والدته ، فمضى إليها مواسياً ، ومعه قائده في قوات جيش التحرير . ولشد ما كانت دهشة الابن وأخوه في السلاح كبيرة وهما يجدان (الأم) أكثر حزماً ، وأشد عناداً ، وأكبر تصميماً ، على متابعة طريق الجهاد .

* * *

وقع اشتباك عنيف في ناحية (أزفون) وذلك في يوم من أيام مارس ـ أذار ـ ١٩٥٦ . واشترك في القتال عشرة من المجاهدين فقط ضد عدد كبير من القوات الإفرنسية ، واستمرت المعركة من الساعة الثامنة صباحاً ، حتى الثالثة من بعد الظهر ، وأسفرت عن قتل عدد كبير من الأعداء الإفرنسيين ، وإصابة عدد أكبر من الجرحى . ومقابل ذلك ، استشهد مجاهد واحد ، وجرح أربعة آخرون كانت جراحهم خفيفة . ومضت ساعة واحدة فقط على انتهاء المعركة ، عندما أقبلت ثلة من الجنود الإفرنسيين ، يتقدمهم أحد الخونة من العملاء ، واتجهوا جميعاً الى القرية ، لينقلوا إلى الأم خبر مصرع ابنها ، إرواء لحقدهم ، وشماتة بالأم الثكلى . وبوغتت الأم ، غير أنها تحاملت على نفسها لتقول لهذا الخائن الذي نقل لها الخبر على

لسان سادته : « إنني أعلم ما تنطوي عليه نفوسكم أيها الخونة من الشر ، لقد أسرعتم إليّ بنبأ استشهاده ، وكان حرياً بكم أن تسرعوا إليَّ بنبأ وصوله من فرنسا يوم عودته . ولكن أنى لكم ذلك ، وقد ماتت نخوتكم ، وفسدت فطرتكم . رحم الله ولدي محمد ، فقد صعدت روحه إلى بارئها طاهرة مطهرة » . وشعرت بالحاجة إلى البكاء ، غير أنها تجلدت حتى لا تظهر تضعضعها أمام الخطب ، فدخلت بيتها ، وأوصدت الباب دونها ، واختلت مع حزنها ، وفي الوقت ذاته ، مضى الخائن وقد ضاق صدره لما سمع ، لقد وقفت امرأة ثكلى لتلقنه درساً لا ينسى في الوطنية .

جاء الجنود الإفرنسيون في ساعة مبكرة من الغد ، وهم يحملون جثة الشهيد التي مزقها الرصاص - وعفرها تراب المعركة ، وطرحوها في ساحة القرية ، حيث احتشد خلق كثير من الرجال والنساء ، بأمر السلطة . وأقبلت الأم ، حتى إذا ما وقع نظرها على جثة وحيدها وهو على مثل تلك الصورة التي تمزق أقسى القلوب ، أجهشت بالبكاء ، ثم عادت ، بسرعة ، وأظهرت تجلدها ، وتقدمت إلى ابنها الشهيد تنعيه بصوت تخنقه العبرات : « **في سبيل الله والوطن مت أيها العزيز ، ومثلك حي خالد أبداً ، ومثلي جديرة أن تفخر باستشهادك** » . ثم تراجعت قليلاً ، وتقدم إليها الخائن مترجماً لما يقوله الضابط الإفرنسي : « يظهر أنك نسيت إلحاحك عليه وهو بباريس حتى يلتحق بالعصاة - الفلاقة - في الجبال ، ويجب أن تكون فلاقة شجاعة ، وصبراً أليس كذلك ايتها المغرورة ؟ » .

سمعت ذلك وقالت : « **انظر ، أتظن أنني أبكي استشهاده ؟ كلا ، إنما أبكي لأنني لا أملك غيره ، يخلفه في الجهاد ، ويؤتى به يوماً كما أتي بأخيه هذا !** »

٦ - جميلة بو حيرد(*)

الإسم : جميلة بـو حَيْـرَدْ
رقم الـزنـزانـة تـسـعونـا
في السجن الحـزبي بـوهـران
والـعمـر إثـنـان وعشـرونـا
عـيـنـان كـقـنـديـلي مـعبـد
والـشـعـر الـعـربـي الأسـود
كـالصيـف كشـلال الأحـزان
إبـريـق لـلمـاء وسـجـان
ويـد تـنـضـم عـلى الـقـرآن
وامـرأة فـي ضـوء الـصبـح
تستـرجـع فـي مثـل الـبـوح
آيـات مـحـزنـة الإرنـان
من سورة (مريم) و (الفتـح)

(*) المرجع : الثورة الجزائرية - الخطيب (٢٠٤ - ٢٠٨) وصحيفة (المنار) الدمشقية . العدد (١٨٤٥) الأحد ٢٤ رمضان ١٣٧٧ هـ - ١٣ نيسان ١٩٥٨ ص ٢ و٧ وديوان (نزار قباني) - حبيبتي ، الطبعة الأولى ١٩٦١ - ص ١٧٢ - ١٧٣ .

تلك كلمات قالها شاعر سوري في الشابة المجاهدة (جميلة بو حيرد) وهي جزء من قصيدة طويلة ، أهاجت الحماسة ، وأثارت العواطف والانفعالات ! وأصبحت كلمات القصيدة أغنية تتردد على لسان كل عربي من الخليج إلى المحيط . ولم تكن هـذه القصيدة على كل حال هي القصيدة الوحيدة التي قيلت أو أنشدت في قضية (جميلة بوحيرد) فقد انطلق لسان الشعراء من عقاله ، وانطلقت الأقلام ، لتثير من خلال قضية (جميلة بو حيرد) قضية الجزائر كلها ، وبصورة خاصة منها وحشية القمع الاستعماري لثورة الأحرار في الجـزائر . ولقد سبق عرض نماذج مما تعرضت له المرأة الجزائرية ، حرائر النساء وأشرافهن ، على أيدي متحللي (بيكال) ومنحطي (سانت جرمان) ومراهقي (الحي اللاتيني) . ولقد أخذت قضية (جميلة بوحيرد) أبعاداً عربية ودولية اهتز لها العالم . وفي الحقيقة فقد كان من المحال إثارة قضية كل حرة من حرائر العرب المسلمين ممن يقعن تحت قبضة جلادي الشعوب ـ الاستعماريين ـ ومن هنا فقد كان لا بد من التركيز على مواضيع معينة ، ومواقف محددة . فكانت قضية (جميلة بو حيرد) تمثل الموضوع المختار والموقف المثير لطرح قضية الاستعمار، في جملة ما تم طرحه ضمن إطار مقنن ومحكم ، حقق كل ما أرادته جبهة التحرير الوطني الجزائري من أهداف .

* * *

بدأت قصة (جميلة بوحيرد) عندما انفجرت قنبلة موقوتة في ملهى جزائري بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٥٧ . وما أن تلاشى الدخان حتى ظهر أن هناك أكثر من عشرين أوروبياً قد أصيبوا بجراح مختلفة انتهت ببعضهم إلى الموت . وانفجرت قنابل أخرى

في الأيام التالية ، في مقهى الأوتوماتيك ، وعند ساحات الرياضة المزدحمة بالنظارة ـ المتفرجين ـ أدت إلى مقتل أكثر من عشرين شخصاً ، وجرح عدد كبير ، جراح بعضهم خطرة ، وقد عهد بحراسة الأمن بالجزائر في تلك الأيام إلى المظليين التابعين للجنرال (ماسو) وهؤلاء ليسوا جنوداً نظاميين ولكنهم من الشباب الصغار الذين أخذوا ليؤدوا خدمتهم . وقد ضرب المظليون بضراوة ، وبوحشية ، غير أنهم لم يتمكنوا من قمع ثورة المجاهدين ، سواء في مدن الجزائر الكبيرة ، أو في القواعد المحررة في السهول والجبال . وفي صباح ٩ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧ . اصطدمت دورية حربية أثناء ساعات منع التجول بثلاثة أشخاص مقنعين ـ ملثمين ـ في حي (القصْبة) داخل المدينة القديمة من الجزائر العاصمة . فهرب هؤلاء الثلاثة ولكن بعد أن أطلقت الدورية عليهم نيرانها . وارتفعت صرخة ، وبقيت امرأة منطرحة على الأرض ، وكانت هذه هي (جميلة بوحيرد) وقد عثر معها على وثائق ورسائل وعلى مبلغ كبير من المال ، دلت جميعها على أن هذه الفتاة كانت تعمل أمينة سر (سكرتيرة) لقائد فدائيي مدينة الجزائر (ياسف سعدي) . وكانت تعمل مراسلة أيضاً لنقل رسائله وتعليماته وأوامره . ولم تسلم الأسيرة إلى الشرطة ، ولكنها اقتيدت ـ بصورة خاصة ـ إلى مركز تحقيق المظليين ، وذلك بحجة أن دوريتهم عثرت في صباح ذلك اليوم ذاته على فرنسي كان يلفظ أنفاسه ، وقد قيد ـ ربط ـ إلى شجرة ، وأفاد أن عائلته كلها قد قتلت على أيدي الثوار ، بعد أن أحرقوا بيته ومزرعته . أما ما حدث (لجميلة بوحيرد) بعدئذ . فيصعب وصفه ، إذ ظلت رغم جراحها النازفة ، تحت التعذيب الوحشي أياماً عديدة . ويكفي هنا الإشارة إلى التقرير الطبي الذي كتبته السيدة (جانين بلخوجة) الدكتورة في الطب من جامعة الجزائر ، حول ما شاهدته على جسم (جميلة

بوحيرد) وقد كانت معتقلة معها .

قالت الطبيبة :

لقد قمت بفحص (جميلة بوحيرد) في السجن المدني في مدينة (الجزائر) ـ إبان رفع نظام السرية عنها ـ (أوائل أيار ـ مايو ـ ١٩٥٧) وقد تحققت من :

١ ـ وجود جرح فوق الثدي الأيسر ، بيضاوي الشكل ، غير منتظم الأطراف ، طوله أربعة أو خمسة سنتيمترات وعرضه ثلاثة تقريباً ، ينزف منه قيح ـ صديد ـ ضارب إلى البياض ، ناشىء عن التهاب عادي كما يظهر .

٢ ـ وجود جرح أصغر من الأول عند وسط نتوء عظم الكتف اليسرى ، وهذا الجرح على وشك الالتئام ، ولا تزال أطرافه تحمل آثاراً لهذا الالتئام .

٣ ـ وجود عجز وظيفي في الذراع الأيسر ، وهو مطوي متصلب :

كانت حركة مفصل الكتف مقتصرة على (٣٠) درجة تقريباً ، سواء أكان ذلك في رفع الذراع ، أو في تحريكه إلى الأمام أو إلى الوراء .

ـ أما مفصل الذراع فكان متصلباً في زاوية قائمة ، فلا تتحرك اليد إلا لأربع أو خمس درجات .

٤ ـ وجود اختلال في الجهاز الدموي للذراع كلها ، وخاصة عند الكف ، حيث كانت الحرارة مرتفعة واللون مزروقاً يميل إلى البنفسجي .

٥ ـ وجود ارتجاف في اليد أثناء محاولات تحريكها .

٦ ـ وجود نقاط سمراوية ، حول الدائرتين المحيطتين بحلمتي الثدي ، يبدو أنها تعود إلى حروق .

٧ ـ وجود علامات سمراء اللون ، مستطيلة ، طولها أربعة أو خمسة سنتيمترات وعرضها سنتمتر واحد تقع على الورك الأيمن وعلى الجهة الخارجية للفخذ الأيمن ، ويمكن إرجاعها إلى السبب ذاته .

٨ ـ وجود بقعة صغيرة ضاربة إلى البياض ومتحجرة تقع على الوجه الداخلي من الشفرة اليسرى الصغرى من العضو التناسلي .

ان هذه الحقائق تستدعي بعض الملاحظات :

١ ـ إن منظر الجرحين الصدريين اليساريين يحملان على الاعتقاد بأنهما ناشئين عن دخول رصاصة وخروجها .

٢ ـ يحتمل أن يكون هنالك كسر في عظم الكتف ، فيجب التأكد من ذلك بواسطة التصوير بالأشعة .

٣ ـ يبدو أن الجرح الذي فوق الثدي قد أدى إلى مضاعفات ثانوية . إذ أنه لا يوجد فيه علامات التئام ، فهو منتفخ بشكل غير طبيعي ـ ومنفتح ـ وملتهب إلى أقصى حد .

٤ ـ إن عجز الذراع الأيسر الوظيفي ، والاختلال في جهازه الدموي ، يعودان على ما يظهر ، إلى تهيج عصبي ـ شرياني ـ حيث مرت الرصاصة . إن تحسنها مرجح ، ولكن وضع بيان عصبي عضوي يبدو نافعاً .

لقد أخبرتني (جميلة بوحيرد) أنها أصيبت برصاصة عندما ألقي القبض عليها ، مما يطابق التحقيقات التي قمت بها كل المطابقة . وقد أكدت لي أنها كذلك ضربت وأحرقت بواسطة الكهرباء عند الجرح الصدري الأمامي وعند النهدين ، والورك الأيمن ، والجهة

الخارجية من الفخذ الأيمن ، وفي العضو التناسلي .

إن مظهر مختلف الجراح التي فحصتها يدعو إلى إعارة الأسباب التي ذكرتها المريضة انتباهاً كبيراً . وقد صرحت لي (جميلة بو حيرد) أنها كانت في فترة الحيض عندما أنزلت بها ضروب التعذيب في ١٧ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧ ، وأنها أصيبت بنزيف شديد ، تبعه انقطاع الحيض ، وظهور إفرازات نتنة طوال خمسة عشر يوماً . وقد بدا لي أن حالة (جميلة بو حيرد) العامة سيئة وتلاميح وجهها ذابلة ، وجسمها ضعيف .

إن عجز الذراع الأيسر سوف يظل كاملاً مدة شهرين تقريباً ، هذا إذا لم تحدث مضاعفات . ويحتمل أن يحصل لها فيما بعد عجز (جنسي) دائم .

إن هذا تقرير طبي أعطيته إلى (جميلة بو حيرد) ووكلائها ليستعان به عند الحاجة .

(جانين بلخوجه) .
دكتورة في الطب .

قبضت السلطات الإفرنسية بعد أيام من القاء القبض على (جميلة بو حيرد) على فتاة أخرى تسمى (جميلة بو عزة) كانت تعمل موظفة في البريد ، وعمرها لا يزيد آنذاك على تسعة عشر عاماً . وقد اعترفت هذه تحت وطأة التعذيب ، بأنها هي التي وضعت قنبلة موقوتة في الملهى ، وقد مثلت الحادث ، وأشارت إلى المقعد الذي وضعت تحته القنبلة ، وكيف خرجت بعد دقائق من الملهى ، تاركة القنبلة تنفجر بعد خروجها .

اجتمعت المحكمة العسكرية الإفرنسية في حزيران ـ يونيو ـ

١٩٥٧ . فاتهمت الفتاتين بالإرهاب . فاعترفت (جميلة بو حيرد) أنها كانت تعمل أمينة سر (سكرتيرة) القائد (ياسف سعدي) . غير أنها أنكرت بتصميم وثبات اشتراكها في عملية وضع القنبلة في الملهى . أما موظفة البريد ، الشابة (جميلة بو عزة) فقد أفادت أنها تلقـت القنبلة من (جميلة بو حيرد) فنفذت هي المهمة . وكانت قاعة المحكمة مكتظة بالمشاهدين الإفرنسيين الذين كانوا يطالبون برأس الفتاتين . لا سيما وأن اعتداء كبيراً حدث في تلك الأثناء ، الأمر الذي زاد من هياج الإفرنسيين ، فجرت المحاكمة وكأنها مسرحية مضحكة (ملهاة) . وأصبحت المتهمة (بو عزة) هي شاهدة الإثبات ضد زميلتها (بو حيرد) فأخذت تتصرف كما لو كانت مجنونة ، فتتفوه بكلمات جارحة (نابية) في قاعة المحكمة . وتمزق ثيابها عن جسمها ، وتضرب على الحضور مسدساً وهمياً صارخة : تاك ، تاك ، تاك ، تاك . وقد جاءت في مرافعة وكيل الدفاع (المحامي جاك فيرجس) ـ أن جميلة بو عزة هي مختلة الشعور ، فأحالها رئيس المحكمة إلى الطبيب الشرعي الفرنسي ، فقرر هذا أن (بو عزة) هي فتاة سليمة العقل ، وإنما تتظاهر بالجنون . ثم رفضت المحكمة طلب الدفاع بإحالة (جميلة بو عزة) إلى لجنة من الأطباء لإعادة فحصها . وكان لهذا الرفض الجاف نتائجه . . ثم اعترض محامي الدفاع (الأستاذ جاك فيرجس) على وسائل التحقيق التي اتبعها المظليون ، وصرح بأن موكلته (جميلة بو حيرد) قد انتزعت منها الإفادات بصورة وحشية رهيبة ، وأنها عذبت كما لم يعذب أحد من قبل ، فقد سلطت تيارات كهربائية على فمها وأذنيها وعلى مواطن حساسة أخرى بجسمها ، فأجابت المحكمة أن هذه الادعاءات ليس لها ما يؤيدها . فطلب الدفاع مواجهة موكلته بالمظليين لكي تتأكد

المحكمة من أقواله ، ولكن المحكمة رفضت الطلب . وكان لهذا الرفض الجاف الثاني مفعول مهيج على سياسة فرنسا في الجزائر أكبر من مفعول قنابل الثوار مجتمعة .

سجلت المرأة الجزائرية بالدم والنار مشاركتها الفعالة في الكفاح من أجل تحرير الجزائر . وقد برزت هذه المشاركة في الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية الاستعمارية (في الجزائر) يوم ١٦ تموز ـ جويلية ـ عام ١٩٥٧ . حيث حكم على الفتاتين بالإعدام . ولكن بينما أرفق اسم (جميلة بو عزة) بالجنون . فقد ارتفع اسم (جميلة بو حيرد) الى مرتبة البطولة العليا بين ليلة وضحاها .

اقتيدت (جميلة بو حيرد) بعد صدور الحكم عليها إلى السجن ، وهنا انطلق صوت (جميلة) وهي تنشد (جزائرنا) . معلنة بذلك تفضيلها للموت حتى تحيا الجزائر . وتردد صوت (جميلة) بقوة اهتزت لها شوارع الجزائر القريبة من قاعة المحكمة . فقد انطلقت أصوات آلاف الجزائريات والجزائريين الذين كانوا يتابعون المحاكمة وينتظرون نتيجة (مهزلة المحاكمة) . واختلطت كلمات النشيد بزغاريد النساء (اليويو) . وأصبحت الجزائر مسرحاً لتظاهرة عينفة ما لبثت أن شملت الصفحة الجغرافية للقطر الجزائري المجاهد . وتطورت فوراً لتصبح تظاهرة عربية ثم عالمية . فقد أقيمت في كل عاصمة عربية تظاهرات صاخبة هزت كل قطر عربي ، وانبرت الصحافة العربية لتبني قضية (جميلة) في إطار قضية (الجزائر) . ونظمت الندوات الأدبية والأمسيات الشعرية وكلها تتحدث عن قضية (الحرب الجزائرية) من خلال قضية المجاهدة (جميلة بو حيرد) .

انعكس ذلك على عواصم العالم ، وعلى عاصمة فرنسا بصورة خاصة ـ فصدرت في (باريس) وعن منشورات (نصف الليل) التي يصدرها جماعة المقاومة الشيوعية في فرنسا كتاباً عنوانه (دفاعاً عن جميلة بو حيرد) من تأليف وكيل الدفاع (الأستاذ جاك فيرجس) والكاتب (جورج آرنو)[1] الذي ألف حوار فيلم (ثمن القلق) المشهور . وقد تضمن كتاب (دفاعاً عن جميلة بو حيرد) شرحاً لأساليب التعذيب التي تعرضت لها (جميلة) بأسلوب مثير ، وذلك بالاستناد إلى تقرير الطبيبة (جانين بلخوجه) . وثارت ثائرة الرأي العام العالمي . فأصبحت فتاة الجزائر المعذبة ، حديثاً على كل فم . وطالب زعماء العالم فرنسا بالعفو عن (جميلة) وكان في جملتهم (جمال عبد الناصر) و(الرئيس الهندي نهرو) و(الزعيم السوفييتي فوروشيلوف) . كان الرأي العام الإفرنسي ، قد أخذ في الانقسام تجاه قضية الجزائر ، فالقادة ـ الجنرالات ـ قد أظهروا عجزهم عن معالجة القوة المتعاظمة للثورة . وتأكد أن قضية الثورة ليست قضية مجموعة من العصاة (الفلاقة) كما كانت تصورها أجهزة الإعلام الاستعمارية . كما تعاظمت الخسائر التي كان يدفعها الشباب الإفرنسي من دماء أبنائه ، الأمر الذي زاد من نقمة الرأي العام الافرنسي . هذا علاوة على ما تسببته (الحرب الجزائرية) من أعباء اقتصادية على فرنسا زادت من انقسام الرأي العام فيه . وجاءت قضية (جميلة بو حيرد) لتفجر ذلك الانقسام وتبرزه بشكل واضح . ولكن الانقسام في الرأي العام يلتقي عند نقطة (المطالبة بالعفو عن

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب قد ترجم إلى العربية ـ وصدر عن (دار العلم للملايين) في حينه .

جميلة) . وفي هذا المجال ، عبر الراديكاليون الوطنيون عن رأيهم ، بما يلي :

« **يجب علينا ألا نخلق شهداء بأي حال من الأحوال ، ومن الجنون المطبق أن نتكرم على الثوار بجان دارك جديدة . وقد حكم بالموت على فتاتين أخريين لأنهما ألقتا بمتفجرات وصدر العفو عنهما أيضاً ، على أنه لم يسمع سوى القليل عن هاتين الأخيرتين** » .

كان زعماء الثورة قد أعلنوا ، ومنذ البداية ، أن الإرهاب هو وسيلة مقاومة مشروعة ، لمقاومة (الإرهاب الاستعماري) . وحدث خلال تلك الفترة أن تمكنت السلطات الاستعمارية من القاء القبض على (ياسف سعدي) في الجزائر . وعلى إثر ذلك أصدرت قيادة الجبهة الوطنية الجزائرية ، وقيادة جيش التحرير الوطني نشرة تحمل صورة أربعة ضباط فرنسيين وقعوا أسرى في قبضة قوات المجاهدين ، وأنذرت فرنسا ـ عن طريق الصليب الأحمر الدولي ـ أنه بالإمكان مبادلة الضباط الأربعة (بجميلة بو حيرد) المحكوم عليها بالإعدام . أما إذا نفذ حكم الإعدام ، فستنفذ شريعة القرآن الكريم (العين بالعين والسن بالسن والجراحات قصاص) .

أصبحت قضية (جميلة بو حيرد) عبئاً يرهق كاهل الحكومة الإفرنسية ، وبقيت (جميلة) تنتظر في سجنها تنفيذ حكم الإعدام طوال ثمانية أشهر . وكان من المقرر تنفيذ حكم الإعدام يوم ٧ ـ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٨ (المصادف ليوم الجمعة) . غير أن هذا الحكم لم ينفذ وفي يوم ١١ نيسان ـ إبريل ـ ١٩٥٨ صدر مرسوم بتخفيف حكم الإعدام إلى (السجن المؤبد) . وظن الإفرنسيون أن هذا الحكم سيسعد الفتاة التي (عاشت لحرية وطنها وتحرره) وعندما زارها ـ في سجنها ـ مراسل الصحيفة الإفرنسية (فرانس

بريس) يوم ١٢ / ٤ /١٩٥٨ صدمته بقولها : « كنت أفضل الموت على حياة المعتقل . . . ليتهم أعدموني ، إذن لاسترحت من العذاب المضني الذي أعانيه الآن » .

وانتصرت الثورة .

وتحررت الجزائر الثائرة المجاهدة .

وتحررت فتاة الجزائر (جميلة بو حيرد) .

وعادت السجينة إلى حياة الحرية في وطنها المتحرر .

الفصل الثالث

الإرهاب الاستعماري

١ ـ معاناة الإرهاب .
٢ ـ أكثر وحشية من النازيين والمغول (التتار) .
٣ ـ مدارس تعليم أساليب التعذيب .
٤ ـ معسكرات الانتقاء والترحيل .
٥ ـ معسكرات التجميع .
٦ ـ الأسرى والجرحى .
٧ ـ ملحقات ضد الاستعمار وأساليبه الهمجية :
أ ـ شخصيات فرنسية ضد الهمجية الاستعمارية .
ب ـ قرار عن الجزائر في اجتماع الكرادلة وكبار الأساقفة .
ج ـ خطاب من الاستاذ رينيه إلى وزير التربية الوطنية الفرنسي .
د ـ الجنرال (دوبو لارديير) يستقيل من قيادته .
٨ ـ الكلمة الأخيرة .

١ ـ معاناة الإرهاب

دعت جبهة التحرير الوطني ، جماهير الشعب الجزائري لإضراب (الأيام الثمانية) الشهير (في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٦٠) ونقلت وكالة أنباء أمريكية مشاهداتها بقولها :

« لقد جبنا حي القصبة هذا الصباح بصحبة نفر من الصحافيين الأجانب . وبدلالة فتى مسلم . فكنا فيه شهود غليان لا يوصف : **الشرفات والأسطحة سوداء بما عليها من النساء اللائي يمزقن الجو بصيحات النخوة التقليدية** . الرجال في الشارع يهتفون : (فرحات عباس في الحكم) و (الجزائر إسلامية !) ويلوحون بعلم جبهة التحرير الوطني . الجدران كانت مغطاة بشعارات الولاء للجبهة ، سطرت حديثاً بمداد أحمر .

بعد أن اجتزنا نطاق الشرطة ـ البوليس ـ . صرحنا بأننا صحفيون أجانب . وسرعان ما تواثب رهط من الأدلاء ، ليطوفوا بنا حي القصبة بتعاريج أزقته الكثيفة البنيان . لم تحدث أبداً من قبل مظاهرة بهذا الشمول في حي القصبة . (إنها الثورة) . كانوا يصرخون في وجوهنا (سنقاتل حتى النهاية) .

حدث في يوم الأحد ما لم يكن في الحسبان ، بسبب رسوخ خرافة (الجزائر المستكينة) . حدث اليوم : تحركت القصبة . هبطت إلى باب العويد . وعلى مسافة سبعة أو ثمانية كيلومترات كان مسلمو غربي الجزائر يحذون حذوهم : سكان بلكور ، وحارة الساقية الذين كانوا يسدون الطريق دائماً على القوات الخاصة والمظليين ، حاملين ذات الشعارات ، والأعلام ، وصور فرحات عباس .

« منذ ستة أعوام ونحن ننتظر هذا اليوم » هذا ما كان يقوله فتى عربي ، لم يلبث وابل من الرصاص أن أرداه قتيلاً »[١] .

وكتب جندي عن الإرهـاب ، ومعاناته :

اليوم هو (١١ آذار - مارس - ١٩٥٦) ولدي بعض التفاصيل عن العملية الشهيرة التي وقعت ذات ليلة ، **فقد حاول جنـدي استجواب النساء ، متهدداً إياهن بذبح طفل صغير عمره خمسة أعوام . وعندما كانت عملية التعذيب تجري مع قائد من قادة الثوار ، كان باب الغرفة مفتوحاً لتشاهد النساء من خلاله كل ما يجري** . إن هذه الطريقة من التعذيب تتلخص في ربط الإنسان ، ووضع عصا تحت ركبتيه ، ثم رفعه وتركه ملقى على ظهره . وهناك أحواض الماء يغمس فيها رأس المشبوه حتى يختنق ، وهناك الطريقة العادية ، وهي الجوع والعطش .

دخلت في أحد الأيام إلى المطبخ ، أبحث عن أكل أقدمه لسجين ، بقي مهملاً في خيمة منعزلة عن غيرها . فناولني الطباخ بعضاً من الخبز . وعندما طلبت منه قطعة لحم ، وقال : إن في هذا

(*) فرانس - أو بسرفاتور ١٥ كانون الأول - ديسمبر - ١٩٦٠ .

ما يكفي لسد رمقه ، إنها أوامر ، فذهبت لأخذ اللحم والخبز من بيتي . لقد تجلدت قدما هذا السجين منذ ثمانية أيام . ففي إحدى الليالي ، شددت القيود التي أوثقت بها قدماه . ولم يصبح الصباح حتى تجمدت رجلاه لشدة البرد وقسوته. رأيته في هذه الحالة ، . . جروح ضخمة حمراء ، . . . تقشر بالجلد . . . سواد في الأذنين ، إن الطبيب عاجز عن معالجته ، فقد أخذ التعفن في الانتشار ، فلماذا لم يأخذوه إلى مدينة (خنشلة) لإسعافه ؟ الظاهر أن ضابط الشؤون الأهلية (الساس) يريد أن يتولاه بنفسه ، لأنه ثائر ألقي القبض عليه والسلاح في يده . وقد يكون هلاكه بالقروح والجوع . وبالأمس ، رجعت إلى السجن ، فوجدت السجين الذي قدمت له الخبز أنا و (ط) قد اختفى »[1] .

وكتب مجند آخر :

(كنت أقوم بدور (عامل اتصال) في قرية مرتفعة ، يوم بدأت القوات بتنفيذ ما أطلقت عليه اسم (مناورة التطويق) . فشاهدت إحدى عشرة قرية تحترق ، ويتصاعد الدخان إلى السماء من جميع (المشاتي)[2] وكنت أستطيع متابعة حركة القوات من خلال مشاهدة تأجج النار في الطواحين والبيوت المتواضعة (الأكواخ) والممتدة تحت بصري . وتبع ذلك في الأيام التالية ، قيام الجنود بأعمال النهب والسلب في جميع القرى ، حتى أصبحت كافة المحلات التجارية خالية خاوية ، فالأموال سرقت ، والبضائع اتلفت . . . أما

---

(١) المجندون يشهدون ٢ / ٢٧ ـ حرب الإبادة في الجزائر (مصلحة الدعاية والاستعلامات لجبهة التحرير الوطني) ص ١٣ .

(٢) المشاتي (جمع مشتى) ويطلق هذا اللفظ في الجزائر على القرية الصغيرة في الريف .

النساء فقد جمعن في مكان منعزل للتأثير على رجالهن ، ومنعن من الخروج حتى لقضاء احتياجاتهن الضرورية . وبدأ الاستجواب والتحقيق أثناء ذلك مع الرجال حتى ينتزعوا منهم الاعترافات التي يريدونها . وكان من بين المحققين (رجال الاستنطاق) ثلاثة من كتاب البوليس الشرعي ، جاؤوا بهم للاستعانة (بخبراتهم) . وأخبروني بعد انتهاء التحقيق أنهم حصلوا على نتائج أفضل من تلك التي حصل عليها (رجال الجيش الأغرار) . ثم أخذوا يتهامسون بأن مائة وخمسين رجلاً على الأقل قد اعترفوا بأنهم شاركوا ، أو علموا ، بالكمين الذي نصب ضد الملازم (ن) وتقرر إعدام هؤلاء الرجال ، رمياً بالرصاص ، بعد الانتهاء من العملية ، في الساحة العامة ، سواء منهم من كان ينتسب لمنظمة القرية العسكرية أو السياسية ، ولا أعلم ما حدث بعد ذلك ، لأني ذهبت)[1] .

« لقد ألقي القبض في - المشتى - وهو لا يزال مسكوناً ، على ابنتين لرجل غائب ومعروف بانتمائه لجبهة التحرير الوطني . وقد سار الجند بالبنتين ، وعمر أولاهما (١٨ سنة) والثانية (١٦ سنة) وقاموا بتسليمهما إلى جند اللفيف الأجنبي ، فقضى الجند ليلة في الاستمتاع بهما ، ثم عملوا على إعدامهما في الصباح ، إخفاء للجريمة »[2] وقيل إن عامل العمالة (الولاية) قد أصدر أمره بتدمير هذه القرية وإبادة أهلها غير أن القائد العسكري ، أصدر أمره بإخلاء القرية من سكانها قبل تسليط المدافع عليها وتدميرها . ولقد وقعت أثناء عملية إخلاء القرية عمليات (اغتصاب شنيعة) ذهبت ضحيتها

---

(١) المجندون يشهدون . ص (٨٢) .

(٢) المجندون يشهدون . ص (٣٤) .

كثيرات من البنات الأبكار ، وكانت هذه الفرقة العسكرية قد اشتهرت شهرة واسعة بممارسة هذه الأعمال ، يتقدمها في ذلك قائدها »[1] .

وكتب (راهب) يحمل رتبة ضابط ، في مذكراته اليومية : « لا أتحدث كثيراً عن القسوة البالغة ، والتعذيب الوحشي ، وإلقاء القنابل على الدواوير والمشاتي بما فيها من نساء وأطفال ومواشي . ولا أتكلم عن أقصوصة التقتيل التي قام بها جنود المظلات . إذ من السهل على كل مسافر بالقطار الحديدي أن يشاهد على طول الطريق آثار دمار الحرب بادية في جميع المشاتي التي يمر بها ، كما يشاهد حطام دور المساكن الأهلية التي أشعلت فيها أسلحتنا النيران . . . إن كثيراً منا يؤيدون (الانتقام) وقلة هم الذين يستنكرون هذه الطريقة التي تحرمها كل المبادىء الإنسانية . وكثيراً ما يغمر الفرح والسرور أولئك الجنود عندما يقومون بأعمال التعذيب والتنكيل ، لقد شاهدت ملازماً يعتز بصورة أخذت له ، وهو يجر محراث المزرعة التي حطم بها المباني ، وأطبق تحتها جثث السكان . ومن أجل هذه الأعمال الإجرامية ، أصبح الأهالي يهجرون مساكنهم فراراً من الهلاك المحقق . إن الجيوش الفرنسية تقوم غالباً بتهديم المنازل وإحراقها دون شفقة ولا رحمة بساكنيها . ولقد أفضى إليّ أحد الجنود بقوله : «هذاجميل جداً ، يجب إحراقهم في مساكنهم الحقيرة بلا شفقة لأنهم لا يفهمون إلاّ بهذه الطريقة لسفالتهم »[2] .

وقع كمين قرب مدينة (باتنه) في أوائل شهر أيار ـ مايو ـ **١٩٥٦**

---

(١) المجندون يشهدون . ص (٨٢) .

(٢) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٨٣ .

وسقط فيه اثنان من رجالنا ـ الفرنسيين ـ فألقي القبض على (١٥) رجلاً من الذين اشتبه بأمرهم ، واستجوبوا ، وعذبوا ، ثم أعدم (١٤) منهم رمياً بالرصاص .

ووقع اعتداء على أحد الجنود الفرنسيين قرب مدينة (تبسة) في أوائل شهر أيار (مايو) أيضاً . فجمع رفاقه أمرهم ، وهاجموا المقاهي العربية ، وأطلقوا الرصاص على كل من كان فيها من المدنيين ، ثم ألقوا القنابل على المساكن . ومن الغد ، سمح الرائد ـ الكومندان ـ لجنوده باستباحة المدينة ساعة كاملة ، وأن يفعلوا فيها ما يشاؤ ون ، وذلك في حالة وقوع اعتداء عليهم أثناء دفن رفيقهم . ولكن لم يقع أي اعتداء لحسن الحظ .

وفي اليوم الحادي عشر من شهر أيار (مايو) ١٩٥٦ . كانت فرقة من جنودنا تجتاز مضيقاً قرب مشتى بجهة (هلنسور) . وأطلقت طلقتان أو ثلاث ضد جنودنا ، فصدرت الأوامر بإزالة كل أثر للحياة من المشتى . فقتلنا على الأقل (٧٩) رجلاً وامرأة وصبياً .

وفي يوم ٢٨ نيسان (أبريل) **١٩٥٦** ، كان قد وقع اعتداء بمدينة قسنطينة على أحد جنود المظلات ، فأردي قتيلاً ، فتجمع رفاقه وساروا إلى ثكناتهم ، وحملوا بنادقهم ، وهاجموا المدينة ، وشنوا حملة انتقامية ضد السكان المدنيين . وقد وقعت عملية من النوع ذاته في مدينة (بسكرة) عند نهاية شهر تموز (يوليو) ونجم عنها قتل ما بين (٢٦) و (٣٠) من المدنيين ، وجرح أربعين منهم[1] .

* * *

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٣٢ و ٣٣ .

ذكر يوم ١٥ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ أن السلطات الإفرنسية أعدمت (٩٥) ثائراً جزائرياً ـ رمياً بالرصاص ـ واستطاع الفرنسيون بعد هذه العملية أن يصادروا ثلاث بنادق صيد من السكان ـ الأهلين ـ ونظراً لانعدام النسبة بين عدد الضحايا وعدد البنادق التي أمكن مصادرتها ، فقد خفض البلاغ الرسمي عدد القتلى من (٩٥) الى (٤٥) . ويشير كشف الأسماء على أن هؤلاء القتلى ، يضمون بينهم نساء وأطفالاً ، من بينهم طفل عمره ثلاث سنوات ، كما جاء في محضر الشرطة ـ البوليس ـ ذاته .

* * *

خرجت قوة فرنسية على شكل مجموعتين تضم كل مجموعة مائتي رجل يومي ٣ و٤ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٦ ولما وصلت إلى (دوار مزرنا) في غرب (سرياط) تحت قيادة النقيب (س) والملازم (ر) في الساعة السادسة صباحاً . قتلت (٥) رجال من العرب ، على بعد (٢٠٠ ـ م) من المعسكر . وذلك بعدما رفض الملازم الذي كان يقود إحدى المجموعتين القيام بهذا العمل . ثم أخذت القوات بإطلاق النار على السكان الذين أخذوا في الفرار على أثر وصول القوة الإفرنسية ، وأصيب صبي برصاصة اخترقت فخذه . ثم بدأت عملية إلقاء القبض على الرجال الأشداء ، وسوقهم الى قرية (تابلاط) . فيما كانت إحدى الجماعات توقد النيران في الجبال . وعندما اقتربت القوة الفرنسية من القرية ـ تابلاط ـ أصاب الهلع نفوس النساء والأطفال . . بمجرد رؤ يتهم للقوات الفرنسية[١] .

* * *

---

(١) ملف الجندي (جان ميلير) ص ١٤ .

جاءنا تقريران من ناحية (عنابة) في شهر نيسان - أبريل - ١٩٥٦ ، وقد أفاد أحدهما بأن فرقة من المدفعية صوبت سلاحها في المساء نحو جملة (مشاتي) مجاورة . حتى إذا ما انتصف الليل ، وصدرت بعض الطلقات المزعجة - من جانب الثوار ، أفرغت المدفعية حممها على المشاتي ودمرتها ، على رؤوس سكانها ، من غير اهتمام لمعرفة ما إذا كان هؤلاء الأهالي مسؤولين أو غير مسؤولين عن طلقات النار التي أزعجتهم . وقد علمنا أنه تم تنفيذ عمليات مماثلة مرات عديدة في ناحية (سطيف) وعدد من النواحي الأخرى في شهر آب - أغسطس - ١٩٥٦ . أما التقرير الآخر ، فيشير إلى أنه حدث في أوائل شهر تشرين الأول - أكتوبر - أن وقعت ثلاث عربات في كمين ليلي ، وكانت هذه العربات تابعة للإدارة البلدية وتسير على طريق جبلي . وقد أطلق أفراد الكمين سراح السائقين ، وقذفت العربات من أعالي الجبل . وفي اليوم التالي ، أصدر الملازم قائد الرتل أمراً بالرمي على أية قرية ، من غير تحديد ، فنصبت مدافع الهاون (٦٠ مم) في اتجاه قرية قيل أنها لم تستقبل القوات الإفرنسية استقبالاً حسناً . وقذفت بعدد من القنابل لم تعرف نتائجها . ولكن ذكر بأن إحدى هذه القنابل أصابت امرأة وشطرتها إلى قسمين . أما الخسائر المادية فهي غير مهمة[١] .

وقعت قوة فرنسية في كمين بالقرب من (سانتونج) في أوائل شهر تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٥٦ . فقتل عدد من الجنود الإفرنسيين كما جرح آخرون . وعلى الأثر أصدر الملازم أمره بتهديم ثلاثة قرى وإبادة جميع الرجال بحجة الانتقام لقتلى الفرنسيين

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٣٤ و ٤١ .

والثأر لهم . غير أن عملية الانتقام لم تقتصر على الرجال ، فقد تمت إبادة جميع السكان ، بمن فيهم من النساء والأطفال الذين قتلوا عن آخرهم[١] .

هذا ، وقد استمرت عمليات تدمير العشائر بصورة متواصلة ، ورجع قادة طائرات الاستطلاع ، وأفادوا بأنهم لاحظوا من طائراتهم عدة قرى مدمرة تدميراً تاماً ، وهناك وحدات من الجيش قد تعودت على تدمير الديار المجاورة عقب كل كمين يقع لها . وأصبحت هذه العادة معمولاً بها في سائر أنحاء القطر الجزائري[٢] . وهذا ما أكده (الملازم س) الذي قال : « كلما وقع كمين ومات فيه رجل من رجالي ، أعمد إلى أول قرية أجدها في طريقي ، ثم أجمع كل رجالها ، وأعدم نصفهم بدعوى أنهم لم يخبروا الجند الفرنسي بوجود كمين في ذلك المكان »[٣] .

ذكر **جندي ما يلي** : قام أحد الفدائيين بقتل (الكوميسار المركزي سنمارسلي) في الساعة التاسعة والنصف من يوم **٢٩** آذار ـ مارس ـ **١٩٥٦** ، وعلى الأثر ، حمل ابن القتيل السلاح ، وأخذ يتصيد كل عربي يصادفه ، فقتل اثنين على الفور ، وأصاب ستة آخرين بجراح خطيرة ، لم يلبث أن مات اثنين منهم . وفي المساء ، وقعت عملية تفتيش ضخمة ، حشد فيها خمسة عشر ألفاً من سكان المدينة ، وسيقوا إلى (الكدية) حيث توجد (الكوميسارية المركزية) . وقد اغتنم بعض الرجال معاوني الشرطة ـ البوليس ـ

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٢ .
(٢) المصدر السابق . ص ٦٥ .
(٣) المصدر السابق . ص ٢٧ .

هذه الفرصة فانطلقوا لتدمير واجهات المخازن التجارية ، وحطموا (٣٠٠) متجراً منها ، ونهبوا منها كل ما اعتقدوا أنه ثمين . **وقد انتهكت أثناء هذه العملية حرمة مسجدي (سيدي عبد الرحيم) و(سيدي بو مغرف)** . وتم إعدام **(١٣) رجلاً** . خمسة منهم تحت جسر (سيدي راشد) وثمانية منهم على طريق (الخروب) . ولم يظهر أبداً أن واحداً من هؤلاء الذين تم إعدامهم قد قام بنشاط إرهابي . وهم (رابح ـ منتج ألبان) و(بودور ـ وهو موظف شيوعي يعمل بالخط الحديدي) و(نزار ـ مثل السابق ، وقيل إنه شيوعي أيضاً) و(عجابي محمد الطاهر ـ موظف بالمستشفى الوطني بقسنطينة ـ وكانت نقابات جامعة العمال) و (أحمد رضا حوحو ـ كاتب معهد عبد الحميد بن باديس ورئيس جمعية أحباب الفن والموسيقى) و(بو علاق ـ وهو تاجر ومن أعضاء حزب البيان سابقاً) و(بوزو ـ وهو موظف بإدارة المنح العائلية) و(رنارمي ـ الموظف بشركة الكهرباء والغاز)[١] .

وقال مجند : خرجت الفرقة الثانية التي أنتمي إليها بقيادة الملازم (س) في ليل ٧ ـ ٨ آذار ـ مارس ـ **١٩٥٦** وهي تحمل معها جهازاً لاسلكياً ووسائط دعم مختلفة . وذلك لتنفيذ مهمة البحث عن الأسلحة . وكان معنا بعض جنود المظلات . وقمنا على الفور بمحاصرة (مشتى) من المشاتي . واقتحم رجالنا بيوته . وألقوا القبض على جماعة من أهله . وأخذوا بضربهم ضرباً مبرحاً بالأيدي ، ثم بالسكاكين ، حتى غرقت أيدي رجالنا بالدماء ، وكان بعضهم فخوراً بذلك . واستخدم قائد فصيلتنا قدميه لرفس (لبط)

---

(١) المصدر السابق . ص ٥ .

من كان يقال أنهم من (المشتبه بهم) حتى أنه بقي يومين وهو يشكو من الألم . وكان الملازم الآخر يكتفي باستعمال قدميه لضرب الرجال على خصيتيهم . واستمرت العملية على هذا الشكل ثلاث ساعات متوالية . ثم جمعنا كل النساء والرجال في جهة واحدة ، وجمعنا في الجهة المقابلة أفراد قوتنا . إننا نستعد للانتقام لقتلانا . فأطلق جماعة منّا النار على ثلاثة من القرويين وراء ظهورهم فسقطوا أمواتاً في الحين . ثم ألقينا على المشتى قنبلة مما يستعمل ضد المصفحات (بازوكا) . ولم نجد خلال هذه العملية أي أثر للأسلحة التي زعمنا أننا قد خرجنا للبحث عنها . وقد عدنا ببعض الرجال . وقد عذب واحد منهم إلى درجة أن معالم وجهه تغيرت وبات من الصعب التعرف عليه . ثم أجهز عليه رجالنا بعد يومين ، وتطوع بعض رجالنا بدفنه في المرحاض . أما الآخر فقد شد من كتفيه بقيود وذلك بعد تهشيمه ، فأصاب التعفن كثيراً من أعضاء جسمه . وكان رجالنا رغم ذلك يذهبون إليه ، ويتبارون في تعذيبه إلى أن مات من جراء التعفن رغم الجهود التي بذلها أحد معاوني الأطباء .

مات عندنا رجل آخر من المشتبه بأمرهم وذلك قبل رحيل فرقتنا بيومين ، من جراء تجمد أعضائه . فدفناه في المرحاض أيضاً . وأكد لي (م) أن الحادث وقع فعلاً . كما أكد لي (ل) أنه كان لدينا ستة رجال بصفة رهائن ، يوم وقع الكمين الذي أودى بحياة ستة من رجالنا . فجاء جماعة منا وأخذوا الرهائن الستة وذهبوا بهم بحجة استخدامهم في (سخرة الحطب) . وقد قص عليَّ (ب) قصة قائد الفصيلة الذي كان يعدم الرجل منهم بأن يرغمه على الجثو على ركبتيه ، ثم يطلق رصاصة على كبده ، ولا يكاد يسقط على الأرض حتى يذبحه بسكينه . وينتظر فراغه من الدم ، ثم يطلق عليه رصاصة

في أم رأسه . وعندما كنت عائداً ، لاحظت فيما بين بلدتي (قابس) و (خنشلة) عدداً من القرى المحترقة . وبحثت عن سبب ذلك ، فتبين لي أن قوة من جنود المظلات قد وقعت في كمين بهذه الناحية منذ اسبوع . وخسرت اثنين من رجالها . ثم جاءت قوات الدعم فأطلقت عليها رصاصة من إحدى الديار ، فبادر المظليون إلى إحراق دور القرية جميعها .

انطلقت في الساعة الحادية عشرة صباحاً (١١٠٠) من يوم ٧ آذار ـ مارس . نيران مدفع رشاش . ورأيت على بعد جماعة من العرب يفرون ، ثم سقط أحدهم على الثرى . فجرى الجند نحوه . وكان الرجل يتخبط بدمه ويحاول النهوض ، فضربه أحدهم برصاصة اخترقت صدره ، واستطاع مع ذلك أن يسير مسافة كيلومتر كامل . وهو يعالج الآن في مستشفى (خنشلة) وقد تبين فيما بعد أن هذا الرجل كان قادماً من عند ضابط المخابرات . وفي المساء ، عمل الملازم (س) ورجاله من المظليين على تعذيب الجماعة المأسورة من العرب . وبدؤوا عملهم بضرب الأرجل على الخصيتين ، والصفع بالأيدي على الوجوه والصلب من الأيدي ومن الأرجل . وكان رفاقنا يمرون وينظرون ويسمعون صراخ المعذبين . وقيل أنهم اعترفوا بأشياء كثيرة . وعندما شاهد الملازم جنوده وهم يتابعون أعماله ، سألهم : لماذا تنظرون هكذا ؟ فأجابوه : نحن نتلقى عنك الدروس الصالحة أيها الملازم . فقال لهم : هذا حسن . لكن لا تبقوا هنا وسأتولى بنفسي تعليمكم هذه الأعمال في فرصة أخرى[١] .

كانت الحركة عظيمة في معسكرنا بالأمس (بداية آذار ـ مارس ـ

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٢٦ ـ ٢٧ و ٢٩

١٩٥٦) فقد وقعت عربتا نقل تابعتان لقوة المظلات في كمين نصبه الثائرون . وكانت نتيجة الكمين أن قتل ضابط صغير وجندي . فأخذت فرقتنا تستعد للرد ، والانتقام ، وتحركت راجلة نحو السهل في الساعة الرابعة صباحاً . وبدل أن تذهب لإمداد القوة التي وقعت في الكمين . توجهت قوتنا نحو قريتين من القرى المجاورة لنا . وهناك بدأت عملية التفتيش واعتقال الرجال ، وضربهم المبرح . وكانت القريتان على بعد خمسمائة متر من معسكرنا ، وعلى بعد ثمانية أو تسعة كيلومترات من مكان الكمين . ولكن رجالنا وقع اختيارهم على القريتين لصب جام الانتقام عليهما . وباشرت الفرقة الأولى عملية السلب والنهب ، فلم تترك شيئاً إلّا أخذته . أما قوتنا فقد كان سلوكها أفضل ، وبعد هذه العملية صعدنا فوق هضبة وأخذنا نشاهد هجوم الطائرات المقاتلة على القرى وتدميرها لها ، وكأننا على مسرح .

وخلال هذه الفترة ، من شهر آذار ـ مارس ـ ألقى أحد الفدائيين في (وادي الزناتي) قنبلة على جندي فرنسي ، فأصابه بجرح خطير ، وجاء رد الفعل الفرنسي سريعاً جداً . إذ وقع الهجوم على الحي المجاور للمنطقة التي وقع فيها الاعتداء . وسيق كل المسلمين الذين يسكنونه إلى مركز الدرك ـ الجندرمة ـ حيث قضوا كامل الليل ، ثم وقع اختيار الدرك على ستة من الرجال أعدموا فوراً . وأذيع بيان على الأهلين بأنه سيعدم من بينهم ثلاثون رجلاً كلما وقع اعتداء على أحد الجنود الفرنسيين . وفي اليوم التالي . أطلق رجال الشرطة ـ البوليس ـ سراح ستة من المسلمين ، كان قد ألقي القبض عليهم منذ أسبوع ، ولم تثبت إدانتهم بشيء ، فتسلم العسكريون فوراً هؤلاء الستة وذهبوا بهم . وفي صبيحة يوم الإثنين (٢٦ ـ آذار ـ مارس) اكتشف الناس جثث هؤلاء الستة في المكان المعروف باسم

(منجم أ. أ.) وصدرت الصحف يوم الثلاثاء ، وهي تحمل بلاغاً عسكرياً يقول : « إنه قد وقعت معركة قرب (منجم أ. أ.) أسفرت عن مقتل ستة من الثائرين .

يمكن هنا الإشارة الى تلك الرسالة التي تحمل تاريخ ٣٠ نيسان ـ أبريل ـ ١٩٥٦ . والتي تضمنت ما يلي :

«أطلق أحد الفدائيين النار على أحد حراسنا منذ (١٢) يوماً، فأصابه بجراح . وذلك على مقربة من إحدى القرى . فهاجم جندنا القرية، وأخرج سكانها. واختار من بينهم عشرة رجال تم إعدامهم فوراً.

وكانوا من العمال في المنجم المشهور . وارتاع سكان القرى ، فأخلوها والتجأوا جميعاً إلى القرى المجاورة . وكان السكان الأوروبيون يرون هذه الحادثة ، وهم يذرفون الدموع لأن هؤلاء العمال الذين أعدموهم كانوا رفاقاً لهم ، وكانوا يعملون معهم جنباً إلى جنب في المنجم المذكور » .

لقد تم إعدام هؤلاء الرجال ، وسواهم ، من غير محاكمة ، ومن غير تحقيق حقيقي . وقد تم في يوم ٢٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٦ إعدام (٣٢) رجلاً بطريقة مريعة ، فيما بين الظهر والغروب بدوار قرية (أولاد الباشا) وذلك بعد أن عذبوا بقسوة ووحشية حتى اختفت صور وجوههم ، ولم يعد بالإمكان معرفتها لكثرة ما لحق بها من التورم والكسور . ولم يكن هؤلاء الرجال قد حملوا السلاح ، أو شاركوا في الثورة ، وإنما كانوا يعيشون في مشاتيهم ويمارسون أعمال الزراعة ـ الفلاحة ـ وهم آمنين وادعين فحملوا على المكاره حملاً[1] .

---

(١) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٨٥ ـ ٨٧ .

٢ - أكثر وحشية من النازيين والمغول
(التتار)

لقد عانت المرأة الجزائرية من قسوة الإرهاب ما عانت . واحتملت من الأهوال فوق ما يحتمل . وكانت شريكة للجزائري الرجل ، مجاهداً ، أو فدائياً ، أو مسبلاً ، أو حتى عاملاً بسيطاً وفلاحاً متواضعاً يعيش حياته في (مشتاه المنعزل) . وإذا كانت المرأة الجزائرية قد تأثرت مباشرة بما يحدث من دمار شامل وإبـادة عامة ، تقع تحت سمعها وبصرها إن لم تكن هي ذاتها ضحية لها . فقد كانت هناك ممارسات أخرى لا تطالها مباشرة في بعض الأحيان ، إلا أنها لم تكن بمعزل عن التأثر بها بصورة غير مباشرة . فقد مارس الاستعماريون الفرنسيون أعمال (التهدئة) بطرائق أكثر وحشية مما عرفه العالم عن طرائق النازيين والمغول (التتار) . وقد أشارت المصادر الفرنسية ذاتها إلى بعض هذه الممارسات ، وما لم يعرف هو أعظم وأرهب . وقد يكون من المناسب استقراء ملامح بعض هذه الممارسات (حتى لا ننسى) :

قال مجند فرنسي : إذا كانت هناك أعمال تتكرر باستمرار ، في مجال التعذيب ، فإن العمل الذي سأقصه عليكم لم يقع إلاّ بقلة ، لكنني أريد تسجيله حتى تعلموا إلى أي درجة من الوحشية يستطيع أن

يصل بعض الناس ، ففي الفترة ما بين ١٥ و ٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٦ ، أوتي برجل قيل أنه مشتبه في أمره ، إلى مركز القيادة العامة . ونقل بعربة خفيفة ـ جيب عسكرية ـ وكان الجنود طوال الطريق يتبارون في تقطيع أجزاء جلد ذلك الرجل ، وهو حي ، وتمزيق قطع من لحمه .

كنا نحن خلال هذه الفترة في (وادي الصومام) . ولقد أوتي بثلاثة من الرجال ، وأمروا بحفر حفر ، ثم دفنوا فيها إلى العنق ، وبقي رأسهم معرضاً لوهج الشمس . ووضعوا أمام كل منهم وعاء فيها ماء يبعد عن فمهم مسافة نصف متر تقريباً ، وقيل لهم أنهم لن ينالوا شيئاً من الماء إلاّ إذا تكلموا . ولقد بقوا على تلك الحالة يومين كاملين ، فلم ينبس اثنان منهم ببنت شفة . وأعدم اثنان وهما على تلك الحالة ، أما الثالث فقد قال شيئاً ـ آخر الأمر ـ إلاّ أنه أعدم أيضاً إثر ذلك[1] .

« وفي قرية (الشريعة) أوتي برجل للتحقيق معه (استجوابه) فنزعت عنه كل ثيابه ، وقيّد من أكتافه ، ثم ألقي على الأرض بعدما ضمخوا كل جسده بمعجون السكري (المربى) وبقي كذلك طوال اليوم معرضاً لشمس شهر تموز ـ يوليو ـ اللاذعة ، وكانت أسراب الذباب تروح وتغدو حول تلك الفريسة البشرية التي كانت عيناها تعبران عن جنون الألم . وقال لنا النقيب (الكابتن) بأنه إذا لم يعترف فسأطلق عليه سرباً من النحل »[2] .

وجاء في مصدر آخر ما يلي : « لقد تعرفت على جماعة من

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٣١ و ٣٢ .

(٢) مجلة (أسبري) الفرنسية ، عدد نيسان ـ أبريل ـ ١٩٥٧ ص ٥٨١ .

الطلبة الفرنسيين ، الذين كانوا في حالة من الهياج القصوى . وكان أحدهم يتحدث بحرارة عن أعماله . وكيف أنه أتى بمدفعين رشاشين من النمسا ، لقتل المسلمين . وقصّ عليَّ مفاخراً أنه رأى بعينيه في جهة (باليسترو) أحد الضباط وهو يدلي من طائرة عمودية (هيليكوبتر) - بواسطة حبال - بعض المشتبه بأمرهم ، ويهددهم بإسقاطهم على الأرض إن هم لم يتكلموا . ولما امتنع هؤلاء عن الإدلاء ولو بكلمة واحدة - رغم التهديد المرعب - عمل هذا الضابط على قطع الحبال ، وسقط أولئك الناس ، وسحقوا على الأرض . لقد كان في هذا درس صالح للسكان العرب »[1] .

يمكن في هذا المجال الإشارة إلى البلاغ الصادر عن القيادة العامة لجيش التحرير الجزائري - لولاية وهران يوم ١٠ أيار - مايو - ١٩٥٧ . والذي جاء فيه بالحرف ما يلي :

« ان **المجاهد العربي بن المهيدي** الذي قبض عليه الفرنسيون أخيراً ، لم يعترف بشيء أثناء الاستنطاق ولكنهم سلخوا جلدة رأسه في غرف التعذيب التابعة للبوليس الفرنسي ، ثم لم يكفهم هذا ، **بل أدخلوا في فمه قضيباً من الحديد في أقصى درجات الاحمرار . فكانت النتيجة أن فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها إثر هذه العملية الوحشية التي تقشعر لهولها الأبدان**. وقد كان هذا في مدينة الجزائر، والفقيد رحمه الله، كان من أشد الناس حماسة لقضية بلاده.

وهناك وسيلة أخرى من نفس الوسائل السابقة تطبق الآن في مقاطعة (وهران) . ففي يوم ٣ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٧ . سقط المجاهد **أبو مدين محمد** من دوار (أولاد حمو) من دائرة

---

(١) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٤٦ .

(مونطانياك) أسيراً بيد العدو . فسيق إلى مدينة (تيران) ومن هناك إلى مركز الجندرمة . وفي داخل المركز المذكور ، أوثقوه من رجليه إلى سقف الحجرة ، وتركوا رأسه يتدلى ، ثم طلبوا منه أن يدلهم على مخزن سلاح المجاهدين الموجود في تلك الناحية . ولما فشلوا في محاولتهم تلك ، **أدخلوا رأسه في فرن ملتهب . فمات لساعته** . وفي نفس اليوم ، وفي المكان ذاته ، قبض الفرنسيون أيضاً على المجاهد (**محمد مصطفاوي بن عبد الله ـ من دوار بلغافر**) دائرة (مونطانياك) وسيق كسابقه إلى مركز الجندرمة (الدرك) . بمدينة (تيران) . وبعد أنواع من الترويع والتعذيب حتى يحملوه على الاعتراف بما كانوا يريدونه منه ، وبعدما عجزوا عن الوصول إلى مرادهم هذا . **وضعوا في دبره أصبعاً من الديناميت فجروه بواسطة مفجر كهربائي ، فتمزق جسده في الحال إرباً إرباً** . . وفي اليوم الخامس من شهر كانون الثاني ـ يناير ـ **١٩٥٧** . وفي قرية (الخميس) دائرة (مغنية) وقع الشاب المجاهد (**أحمد جلاد ولد محمد الصغير**) أسيراً ، في إثر اشتباك بالقرب من القرية المذكورة ، فأخذوه إلى مدينة (مغنية) ومنها إلى مركز القيادة العامة لفرقة المدفعية الثانية والعشرين . وهناك ربطوه إلى شجرة ، وربطوا يديه إلى سيارة جيب . ثم أخذوا في استنطاقه وهو على هذه الحالة المؤلمة . ولما لم يجبهم عما سألوه عنه . **أمروا جندياً من جنودهم بأن يسير بالسيارة ، فانفصلت ذراعه الأولى ، ثم أعيدت العملية ، فانفصلت ذراعه الثانية** . **وحينذاك مات بعد أن ذاق ألواناً وأشكالاً من العذاب المريع**[1] .

---

(١) حرب الإبادة في الجزائر ـ مصلحة الدعاية والاستعلامات لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية ـ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

جاء **في** (مصدر فرنسي) **(١٩)** ما يلي :« جاءتنا دورية بأربعة من المشتبه بأمرهم ـ كما يزعمون ـ ولقد مر اثنان منهم حالاً على غرفة المولد الكهربائي ، فكنا طوال الليل نسمع صراخ الألم والاستغاثة يصدر عنهم . وهذه أول مرة تلجأ فيها فرقتنا الى أساليب التعذيب كوسيلة للاستجواب (الاستنطاق) . ولقد حكى لي (ل) أنه حضر في قرية (هـ) منذ أيام ، عدة عمليات تعذيب كهذه . فالعملية عبارة عن وضع سلك كهربائي في خصية الرجل ، ووضع السلك الآخر في أذنه . ثم يقع إطلاق التيار الكهربائي على الرجل . وقال لي (ل) أن هذه العملية كانت تقع بحضور زوجة المشتبه فيه ، والذي يتم تعذيبه »[١] .

وجاء في (مصدر فرنسي آخر)[٢٠] ما يلي : « جاء فرقتنا أحد التراجمة . وقص علينا قصة عملية استجواب (استنطاق) وقعت أمامه في قرية (بئر غبالو) وهي العملية التقليدية ـ السلك الكهربائي في الأعضاء التناسلية ، وإذا لم يجد ذلك نفعاً انهالوا على المشتبه به ضرباً بالسياط (الكرباج) . ولقد أطلعنا المترجم على عدد من الصور الفوتوغرافية التي التقطها لجماعة من العرب وقد تمزقت جلود وجوههم من آثار الضرب . وتورم لحمهم من التعذيب . يا لها من تهدئة ؟ » .

وتستخدم السلطات الاستعمارية الإفرنسية هذه الوسائل الوحشية السافلة ، ضد الصبيان أيضاً . وقد جاء في تقرير . يحمل تاريخ يوم ٢٨ كانون الثاني ـ جانفي ـ ١٩٥٦ ما يلي : «إن

---

(١) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٨٠ .

(٢) ملف (جان ميلير) مذكرات الجندي ـ ص ١١ .

صياح الخنزير الذي كانوا يذبحونه بالأمس ، على الساعة التاسعة ليلاً ، لم يكن في الحقيقة إلاّ صراخ صبي كانوا يعذبونه . لقد استعملوا معه وسيلة السلك الكهربائي ، لكنهم استبدلوا هذه المرة الخصيتين باليد . وقيل أن الصبي اعترف بأنه قد ذهب لأربعة رجال مسلحين يعلمهم بمرور فرقة فرنسية في المكان . هذا ما أعلمني به الملازم (س) ووجهه يتهلل بشراً . أما بالأمس ، فقد سمعت عواء حسبته أول الأمر عواء ذئب عابر ، لكن ذلك العواء استمر ، وزاد ، فرابني الأمر ، وخرجت وأنا أرتدي المنامة (البيجاما) فأيقنت أن تلك الأصوات المنكرة كانت تصدر عن خيمة الملازم قائد الفصيلة ، ففهمت حقيقة الأمر ، لكنني قلت في نفسي ؛ بأنه من المحال أن يستعملوا السلك الكهربائي مع الصبي ، ولا ريب أنهم يحاولون الآن انتزاع اعتراف من الشيخ الذي يصحبه . ورجعت إلى خيمتي ، وقد أمتلأ قلبي غضباً وألماً . وأخذت أفكر عن غير وعي في أمر الصبي الذي سجنوه طوال الليل الماضي بعد أن قيدوه إلى مؤخرة سيارة الجيب . وتخيلته شارد الذهن ، بادي الروع ، وهو يشاهد عن كثب تعذيب الشيخ . وكاد قلبي يتمزق من الغيظ صبيحة اليوم إذ عرفت بأن عملية التعذيب كانت تقع على الصبي نفسه لا على الشيخ . ولم يكن باستطاعتي أن أذهب للصبي ، وأن أحادثه ، فهو لا يفهم اللغة الفرنسية ، لكنني عملت عملاً آخر . فقد ذهبت للصبي المعذب ، وأخذت له صورة فوتوغرافية ، إنها لصور بليغة يجب أن يراها الرفاق في فرنسا . وما كدت أصل حتى رأيت (س) وهو يخرج من الغرفة ـ مكان التعذيب ، فكاد قلبي يصعد إلى فمي ، ولا أدري كيف تمالكت نفسي فلم أبصق على وجهه . يا له من وحش ، لقد أصبح قلبه غلفاً لكثرة ما مارسه من عمليات التعذيب ، وما تعود على سماعه من

أصوات المعذبين ، إنه ضابط تحقيق ـ استخبارات ـ ويصفونه بأنه من الأشداء »[١] .

وفي جهة (الأصنام) وعلى الطريق العام الذي يصل بين (الجزائر العاصمة) و (قسنطينة) أقامت إحدى الوحدات الفرنسية التابعة لكتيبة القناصة الأفريقية التاسعة عشرة (قفصاً) للمشتبه بهم ، هو عبارة عن حفرة في الأرض عمقها خمسة أو ستة أمتار، وعرضها أربعة امتار، وطولها عشرة أمتار . ولهذه الحفرة غطاء من الأسلاك الشائكة به فتحة لإنزال المعتقلين بواسطة سلم داخل الحفرة . ويكون عدد نزلاء هذا القفص من (١٠) حتى (٦٠) رجلاً بحسب نتيجة العمليات المحلية الجارية وليس هناك أية وقاية من الشمس والأنوار . ويستخدم الأسرى أثناء النهار في أعمال شتى ، ثم ينزلون إلى الحفرة أثناء الليل . ويرفع السلم ليلاً .

ويوجد كذلك معسكر للمعتقلين (المشتبه بهم) بالقرب من قرية (مايو) . أما في (باليسترو) فإن معسكر المعتقلين (المشتبه بهم) كان قائماً داخل إحدى المزارع على مسافة كيلومترين من (باليسترو) وعلى حافة الطريق المؤدي إلى (البليدة) ويتباين عدد النزلاء في هذه المعسكرات بحسب مسيرة العمليات الجارية ، ولكن عددهم قد يرتفع كثيراً كما حدث في آب ـ أغسطس ـ **١٩٥٦** وكان المعتقلون (المشتبه بهم) يحتجزون في (أقبية النبيذ) المبنية بالإسمنت المسلح . ولم يكن لهذه الأقبية مدخل سوى فتحة واحدة ، لا تتسع إلّا لشخص واحد . وكان الناس يحشرون في هذا المضيق ، ولا يسمح لهم بالخروج إلّا مرة واحدة في اليوم ، وفي

---

(١) المجندون يشهدون ـ ص ٢١ .

كثير من الأحوال ، مات عدد منهم مختنقين ، بسبب اشتداد الحر ، وكثرة عدد المعتقلين المحشورين في القبو ، على نحو ما حدث في أوائل آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ . وقد شهد أحد ضباط الصف كيف يعامل الجزائريون عند حشرهم في هذه الأقبية . حيث ينهال الجنود عليهم ضرباً ولكماً . ولما كانت هذه الأقبية عبارة عن حفر كبيرة فتحتها إلى أعلى ، فإن المعتقلين كانوا يتعلقون بأصابعهم على حافة تلك الفتحة ، عندما يتدلون إلى قاع الحفرة . وكان الجنود يرفهون عن أنفسهم بالضرب على أصابع الأسرى بأحذيتهم الغليظة . وكان استجواب الأسرى المعتقلين يتم بصورة إفرادية أثناء النهار ، وينتهي الاستجواب عادة بإرسال المعتقل إلى غرفة التعذيب الكهربائي ، ويطلق على هذا اللون من التعذيب الكهربائي لفظ (الهاتف ـ التلفون) . وقد لوحظ أن هذا النوع من التعذيب الكهربائي لتعذيب المعتقلين غير كاف لبلوغ الهدف ، فتم استبداله في يوم ١٨ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ بمولد كهربائي قوي ، يقوم باستخدامه عامل اللاسلكي في السرية الثانية من الكتيبة السادسة مشاة . وذكر أن أحد الأسرى ـ المعتقلين ـ قد صعقه التيار الكهربائي أثناء التعذيب ، وفاضت روحه .

ولقد تم توسيع سجون الثكنات توسيعاً كبيراً . إلّا أن هذه السجون لم تكن تتسع لأكثر من (١٤٠) أو (١٥٠) معتقلاً ـ سجيناً . وكان الفرنسيون يحشدون في الزنزانة التي تتسع لأربعة أشخاص (١٥) معتقلاً لمدة أسابيع عديدة ، وأحياناً كان يتم حشد (٢٥) معتقلاً ، . فكان لا بد من نوم المعتقلين وهم جلوس ـ القرفصاء ـ وكان في الزنزانة مسطبتان ـ دكتان ـ يحتلهما أكثر المعتقلين بؤساً وأكثرهم إعياء . ولم يكن غذاء الأسرى المحتجزين إلّا فضلات

الجنود التي تقدم لهم في علب المربى الفارغة . وكان الجو داخل الزنزانة ، مشبع برائحة الأجسام وبالرطوبة والحرارة المرتفعة ، مما كان يضر بالرئتين ـ خصوصاً في شهور حزيران وتموز وآب (يونيو ويوليو وأغسطس) وإذا اضطر أحد الأسرى أن يتبول ليلاً ، فهو يتبول في أحد الأركان ، ويسيل البول إلى الخارج من تحت الباب »[١] .

واعترف مجند بما يلي : « نفذت عمليات كبرى في جبل (س) يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٦ . وقد بلغ عدد الضحايا من العرب (١٥) رجلاً ، على الرغم من أننا لم نعثر على واحد من الفلاقة (الثوار) ولم تطلق علينا طلقة واحدة . وكان رجالنا يطلقون النار من بنادقهم الرشاشة ومدافعهم بصورة منتظمة على القرية التي كنا سنجتازها بعد قليل . ففر جميع الأهالي ولجأوا إلى المغاور والأخاديد المجاورة ، وعثر بعض الجنود على فريق من الأهلين الملتجئين إلى إحدى المغاور ، وخرج أحد هؤلاء من المغارة رافعاً يديه إلى أعلى ، وعندئذ دخل جندي إلى المغارة وأطلق نيران بندقيته الرشاشة على جميع الموجودين وعددهم سبعة أشخاص فصرعهم . وبعد ذلك جرت أجسادهم إلى قاع الوادي . ولما مضى الجندي القاتل في سبيله ، عثر على بعد خمسين متراً على أحد الفارين جريحاً ، فأجهز عليه برصاص بندقيته »[٢] .

وذكر مجند ما يلي : « كان جرحى الثوار المصابون في الساق كثيراً ما يعجزون عن الهرب فيقعون في قبضة القوات الفرنسية .

---

(١) المجندون يشهدون . ص ـ ٦٩ .

(٢) المصدر السابق . ص ـ ٦٨ .

وكانت جراح هؤلاء قابلة للشفاء ، بالرغم من نزيف دمائهم ، وبالرغم أيضاً من الزرقة التي كانت تحيط بجراحهم بسبب برد الليل القارص . غير أن القوات الفرنسية كانت تجهز عليهم بطريقة قد لا يتصورها الإنسان الطبيعي . لكن الجزائريين كانوا يرون ذلك رأي العين . وقد برز في هذا الميدان ـ ميدان الوحشية المجرمة ـ عدد من القادة العسكريين الذين كانوا يتولون ما يطلق عليه اسم (إدارة عمليات التطهير) فإذا ما وجدوا جريحاً ، صوبوا أحذيتهم الثقيلة إلى جروحه حتى يموت من الألم . **وكانوا يمزحون مزاحاً فظاً أثناء التقاط صورهم الفتوتوغرافية مع هؤلاء الجرحى ، حيث يقولون للجريح وهو في طور الاحتضار : ابتسم حتى تكون الصورة جميلة . ابتسم للعصفور الصغير . ثم يسحبون سكيناً من سكاكين المطبخ ، ويشرعون في شحذه (سنه) على الصخر ، على مشهد من الضحية ـ قبل أن يذبحوها ذبحاً بطيئاً ليس فيه شيء من أصول الذبح ـ الجزارة ـ ويبعدون النصل عن الضحية حتى يطول عذابها . وعندما تصبح هذه جثة هامدة ، لا يعدم جلادوها نكتة يطلقونها عليها لتشييعها إلى الآخرة . وقد يضيفون إلى الذبح إطلاق رصاصة عن كثب على وجه الرجل حتى يصبح هـذا الوجه كومة دموية مشوهة ليس لها وصف في قاموس البشاعة .**

ومما يذكر أن الفرنسيين قد قتلوا الأسرى ، وفيهم أسير كان محتفظاً بمقدار كاف من القوة ليحمل لهم على ظهره جهازاً لاسلكياً ضخماً طوال ساعات عديدة . وقد شاؤ وا أن يكون القتيل وسيلة لبث الرعب في نفوس الأهالي ، فاستدعوا الفلاحين من القرى البعيدة للقيام بنقل جثث القتلى إلى أسفل الجبل على ظهور الخيل ودفنها في إحدى ثنيات الوادي ، وتحت طبقة من التراب لا يزيد سمكها على

خمسة عشر سنتيمتراً »[24] .

ومما قاله أحد المجندين : « قابلت عدداً من الكهنة العسكريين القائمين بالخدمة الدينية في الجيش ، وقد لاحظت أن لديهم معلومات واسعة عن هذا الموضوع ، وأنهم يعتقدون أن من واجبهم التحدث عن الفظائع التي تصل إلى علمهم ، مثل تقطيع الأسنان بالسكين أثناء الاستجواب (التحقيق) وترك المعتقلين ثمانية أيام في إحدى الأمكنة الضيقة حيث يكادون يختنقون من ضيق التنفس ، ثم صب الماء عليهم لحملهم على الكلام أثناء استجوابات أخرى . وقد دلت جميع أقوال الشهود التي جمعتها كل يوم في الجزائر على أن (السيد فارس) أصاب كبد الحقيقة عندما وصف هذه الأعمال بأنها :

(قتل يحميه القانون) وأن هذه الممارسات التي لا يزال بعض الناس يشكون في إمكان حدوثها ـ لا تليق إلاّ بالنازية البائدة ـ »[2] .

وهذا ما أكده ضابط فرنسي ـ من الفرقة العاشرة ، في رسالة له بتاريخ ٦ حزيران ـ يونيو ـ **١٩٥٦** . حيث ذكر ما يلي : « **لم يصبني الملل من الحياة بمثل ما أصابني في هذه الأيام وأنا في الجزائر . فإن الألمان النازيين في وحشيتهم القاسية ، ليسوا إلاّ أطفالاً أمامنا . ولقد رأيت بعيني إجراءات المكتب الثاني ـ الاستخبارات العسكرية ـ لجنود المظلات الذين كانوا يعذبون المواطنين طول اليوم بأبشع الوسائل لإرغامهم على الكلام ، وذلك بوضع ماسورة**

---

(١) مجلة (أسبري) الفرنسية ـ عدد نيسان ـ أبريل ـ ١٩٥٧ .

(٢) المجندون يشهدون . ص ٤٨ .

في فم الوطني تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع منافذ الجسم ، الأيدي مكتوفة وراء الظهر ، ثم يعلق من رسغه حتى تخرج المفاصل عن مواضعها ، فحينذاك ينهال عليه جنود المظلات ضربا لا هوادة فيه ولا رحمة ، ثم بعد ذلك ، إن لم يعترف بشيء مما يريدون الحصول عليه من المعلومات ، حاولوا معه أساليب أشد فظاعة مثل وضع الكهرباء في رأسه ورجليه حتى يكاد يموت . وأخيراً ، ينهالون عليه ضرباً بالخنجر بين الكتفين »[1] .

---

(١) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٧٨ .

٣ ـ مدارس تعليم أساليب التعذيب

أنشأت القيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر مدارس لتعليم أساليب التعذيب . وما لم يكن في البداية سوى ارتجال دموي ، أصبح شيئاً فشيئاً منظمة لها ملاكاتها (كادراتها) وأساتذتها ومنفذوها ، ويمكن القول : أن لها قوانينها أيضاً . وهي تحمل اسماً سرياً يعرف بأحرفه الأولى (د . او . ب) وتمارس نشاطها في الجزائر ـ كالغستابو النازي ولكن بوحشية أكبر . ولهذه المنظمة تقاليدها وفروع اختصاصها ومخابرها ومعسكراتها . ويمكن الإشارة هنا إلى ما صرح به أحد الرهبان الذي خدم في الجزائر برتبة ضابط من صيف ١٩٥٨ لغاية صيف ١٩٥٩ . وذلك عند الإدلاء بشهادته إلى (دار الشهادة المسيحية) حيث ذكر ما يلي :

« كيف لا تقع المسؤولية على مجموعة الجهاز الرسمي ، وهناك في مدرسة مثل (مدرسة سكيكدة) يقوم مركز التدريب على حرب التدمير . وكذلك في مدرسة معسكر (جان دارك) المزدحمة ، حيث يشرحون لنا أثناء الدرس الدائر المعلومات المتعلقة بأساليب التعذيب الإنساني . وها هي بعض الملاحظات التي دونتها من دروس النقيب ـ الكابتن ل ـ خلال النصف الثاني من العام ١٩٥٨ . وكنا

أربعة ألوية ، وقد أعطانا (النقيب ل) خمس نقاط دونتها بوضوح مع الاعتراضات والأجوبة :

١ ـ يجب أن يكون التعذيب نظيفاً . ٢ ـ ألا يجري على مرأى من الصغار . ٣ ـ ألا يجري على مرأى من الفجار . ٤ ـ أن يجري من قبل ضابط مسؤول . ٥ ـ أن يكون إنسانياً . بمعنى أن يتوقف بمجرد اعتراف المعتقل الذي يتم استجوابه . وعلى الأخص ألا يترك التعذيب آثاراً . بهذه الشروط ، وبالنتيجة ، لكم الحق باستخدام الماء والكهرباء[1] وأضافت الصحيفة التي نشرت التصريح : « يستفاد من المعلومات الواردة الينا أن هذه الدروس في موضوع ـ التعذيب الإنساني ـ ما زالت تلقى في (معسكرات جان دارك) ويحضر عملية التعذيب طبيب عسكري ليبين ردود فعل المستجوب على الصعيد الفيزيولوجي . وقد أعلن مؤخراً عن نقل الدروس من مدرسة (سكيكدة) إلى (أرزيو) الواقعة إلى الجنوب من ولاية وهران »[2] .

هذا التعذيب الذي أنشئت له مؤسسة خاصة ، لم يلبث

---

(١) صحيفة (لوموند) الفرنسية ١٨/١٢/١٩٥٩ .

(٢) نشرت صحيفة (لوموند) مجموعة تحقيقات عن التعذيب بشكل (مسلسل) من ١٠ ـ ٢١/١٢/١٩٥٩ . ويمكن الإشارة هنا إلى مجموعة الكتب التي صدرت في هذا الموضوع مثل (ضد أعمال التعذيب) لكاتبه (بيير هنري سيمون) وهو الكتاب الذي اعتمد على استجواب بعض من تعرضوا للتعذيب (بو معزة وفرنسيس وقبايلي وسوامي والقرح وسواهم) ونشرته (لجنة موريس أودن) وأثار ضجة كبيرة في الرأي العام الفرنسي والعالمي . وكذلك كتاب (حافظ قرمان ـ المسالمة) وهو كتاب أسود عن الحرب الجزائرية في ستة أعوام ، منشورات دار الشهادة المسيحية . وكذلك (عائدون من الجبهة يشهدون) و (المجندون يشهدون) الخ . . .

المسؤولون الفرنسيون أن اعترفوا بوجوده في شيء من عدم الاكتراث واللامبالاة ، فقد جاء في مقطع من التقرير السابع (لجمعية الصليب الأحمر الدولية) ما يلي : « أما عن التعذيب الواقع أثناء الاستجواب ، فإن العقيد - الكولونيل - المسؤول في الدرك - الجندرمة - يعلل ذلك بأن مكافحة الإرهاب تجعل من الضروري اللجوء إلى بعض طرق الاستجواب التي تتيح وحدها الحفاظ على أرواح بشرية ، ومنع وقوع اعتداءات جديدة . وهو يؤكد لنا مع ذلك أن هذه الأساليب مدخرة لبعض الحالات الخاصة على وجه الحصر ، وأنها ليست عامة . وأنها لا تنفذ إلّا على مسؤولية أحد الضباط »[1] . وفي القضية المعروفة بقضية (يرادو) التي عذب أثناءها فريق من الجزائريين في مدينة (ليون) الفرنسية أكد الكاردينال (جيرلين) رئيس أساقفة إقليم (غول) وقوع التعذيب في فرنسا ذاتها .

لقد افترضت تعليمات (مدارس التعذيب) أن يكون التعذيب نظيفاً ، لا يترك آثاراً ، وأن يتوقف ، بمجرد اعتراف المعتقل . ولكن الممارسة العملية أكدت أن (التعذيب لم يكن نظيفاً أبداً) . كما أن التعذيب لم يكن يتوقف إلّا عندما تنتهي حياة المعتقل الخاضع للتحقيق ، في معظم الأحيان ، والشواهد أكثر من أن تحصى . **ويذكر ضابط، سبباً من أسباب الانحرافات الإجرامية في التعذيب، بقوله :**

(١) صرح السيد (ماكس بتي بيير) يوم ١٩٥٩/٦/١٨ في رد على سؤال موجه إلى المجلس الاتحادي السويسري بشأن تطوع المواطنين السويسريين في الفرقة الأجنبية الفرنسية بما يلي : « لا ريب أن أعمالاً من القسوة قد اقترفت في الجزائر . الأمر الذي يجب أن يحمل السويسريين الذين تستميلهم الفرقة على التفكير . . . إنهم يعرضون أنفسهم لأعمال يستنكرها الضمير » .

« رأيت ضباطاً ، لم يمر عليهم وقت حتى أصبحوا مهرة في فن التعذيب ، من غير شفقة ولا رحمة . رأيت ضباطاً مارسوا التعذيب ، ولكثرة احترافهم له أصبحوا اختصاصيين فيه . وبعضهم سبق له أن مارس هذه المهنة ، وأصبح يتلذذ فيها ، كهذا الضابط الذي سبق له أن مارس التعذيب في (كوريا) وأصبح قائداً لفرقة اتخذت مركزاً لها في أحد الجبال ، واتخذ قائدها عملاً له هو استجواب المواطنين المسلمين وتعذيب المشتبه بهم . وهؤلاء المشتبه بهم ، هم كل جزائري تعثر عليه الدوريات في طريقها . وقد رأيت جنداً يضربون هؤلاء المشبوهين ، ويتنافسون في ضربهم مع رجال الدرك ، حتى أن أيديهم ظلت منتفخة ثلاثة أيام . ثم أعادوا الكرة في أول فرصة . ومن المدهش أن في بلدة الشريعة حوضاً خصصته فرقة (ج . م . ب . ر .) لتلقي فيه الأظافر المقلوعة ، ولتستخدمه في عمليات النفخ بالماء . ومن الذي يجهل أن في مركز الشرطة في (تبسة) حجرة مظلمة للاستجواب حل محل طلاء جدرانها دم الأبرياء ، وصبغ أسفل جدرانها بلون أحمر قاني لا يمحى »[1] .

وقال ضابط آخر في مذكرته اليومية بتاريخ ٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٦ ما يلي :

« قام الجنود ، مساء هذا اليوم ، ومعهم ملازم ، بتعذيب المساجين ، فصفعوهم بالأيدي وضربوهم بالعصي على ظهورهم ، ورفسوهم بالأرجل تحت بطونهم ، وأرغموهم على ابتلاع الماء بالقوة ، وعلقوهم بعضهم من أيديهم وآخرون من أرجلهم ، ثم

---

(١) مجلة (اسبري) الفرنسية عدد نيسان ـ أبريل ـ ١٩٥٧ ص ٥٨١ .

أخذوا في استعراض هذا المنظر ، متلذذين بسماع صياح ضحاياهم وأنينهم »[1] .

وكتب شاهد عيان ما يلي : « قام أحد المحققين باستجواب متهم (مشتبه بأمره) يوم ٧ تموز - يوليو - ١٩٥٦ ، وأرغم على النطق بكلمة (تحيا فرنسا) وصاح (تحيا فرنسا) مرة وثانية وثالثة الخ . . . وأخيراً أرغموه أن ينادي (تحيا البطاطس المقلية) وقد عجز عن تكرار هذه الكلمات بسبب جهله اللغة الإفرنسية ، وحينئذ قتلوه .

وعلى بعد مائة كيلومتر من مدينة - قسنطينة - نظمت إحدى الفرق إدارة للاستخبارات في شهر أيلول سبتمبر - ١٩٥٦ وجهزت مكتبين إضافيين أحدهما لبحث الاستعلامات والآخر للاستجواب والتعذيب والتحقيق . وجهز هذا المكتب بآلة (المحرض الكهربائي) و (الأنبوبة) و (التغريق) وسواها من الوسائل التي كثيراً ما أودت بحياة (المشتبه بهم) . والمؤكد هو أن بعض الوحدات نظمت إدارات تحقيق واستعلامات خاصة بها ، وجلبت الاختصاصيين في التعذيب ، والخطر الفادح هو أنها تسببت في القضاء بسرعة على عدد كبير من (المشتبه بهم) ممن يلقي بهم قدرهم تحت رحمة الجلادين »[2] .

* * *

وتضمن مصدر فرنسي عرضاً لأبرز أعمال (التعذيب النظيفة) وأساليبها بالقول :

« يجب أن أحدثكم طويلاً عن عمليات التعذيب ، إنها عمليات

---

(١) ضد أعمال التعذيب (بيير هنري سيمون) ص ٨١ .

(٢) المجندون يشهدون . ص ٣٢ .

تقوم بها فرقة خاصة من المجندين تحت قيادة عشرة من الضباط وأربعة من صف الضباط ، وهم يقولون إن التعذيب هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن من معرفة الحقيقة . وفي قرية (تابلاط) اجتاز نحواً من (١٥٠) عربياً مسلماً من الذين يتهمون (بالاشتباه بأمرهم) هذا الامتحان الرهيب ، الذي تضمن العمليات التالية :

- تسليط التيار الكهربائي على الخصيتين والأذنين .
- وضع (المشتبه به) في قفص ، تحت الشمس الحارقة .
- وضع (المشتبه به) على عصا ، ورفعه فوق فرس ، وهو مقيد اليدين والقدمين .
- الضرب المبرح بالسياط (الكرباج) .
- وضع يد الإنسان خلف الباب ثم إيصاد الباب عليها والضغط بشدة .

- قبض على رجل ، وتقرر إرساله إلى الجزائر - العاصمة - لكنه قضى طوال الليل (تبابلاط) وقد أوثقوا كتفيه ، وربطوا رجليه إلى شجرة ، وأسندوا ظهره إلى سياج الأسلاك الشائكة ، وسقوه كمية من مياه الغسيل القذرة .

- بقي اثنان من أعز أصدقائي في (سريات) وشاهد العقيد - الكولونيل - من الفرقة (١٤ - ر . س . ب) وإلى جانبه اثنين من قادتنا وهم يستجوبون جماعة من العرب ، جاء بهم المظليون . وقالوا عنهم أنهم من (المشتبه بأمرهم) وشملت عملية تعذيبهم :

- وضع السلك الكهربائي في المكانين المعلومين ، وزادوا هذه المرة تضميخ الجسم بالماء حتى يكون تأثير التيار الكهربائي أقوى وأكبر ، ثم أخذوا في إدخال سكين في جسم المشتبه بأمره شيئاً فشيئاً . وقد شاهدت أحد هؤلاء المعذبين وقد صبغته الدماء ، وترك

ملقياً على الأرض طوال يوم وليلة . كما شاهدت أحد هؤلاء البؤساء وهو مشدود إلى طائرة عمودية ـ هيليكوبتر ـ ثم ألقت به الطائرة على الأرض من ارتفاع مائتي متر تقريباً . أما جميع المشتبه بأمرهم ، والذين تم تعذيبهم بهذه الطريقة ، فقد سلموا لجماعة جنود المظلات الذين أجهزوا عليهم جميعاً ، وبصورة فورية .

فما أبعدنا عن (عمليات التهدئة) التي قالوا أنهم أتوا بنا إلى هنا من أجلها ، إن قلوبنا لتكاد تتفجر غيظاً ، ونحن نرى هذا الدرك الأسفل الذي انحدرت إليه طبيعتنا البشرية ، ويكاد يعترينا اليأس والقنوط عندما نرى جماعة من الفرنسيين يعمدون لارتكاب نفس الأسلوب الفظيع الذي كان النازيون يستعملونه بوحشية وقسوة .
على أن القوم لم يكتفوا بهذه الأعمال ؛ بل إن الشر قد غمرهم ، فأصبحوا يريدون الشر من أجل الشر ، فيزيدون على أعمال الفظاعة أعمالاً هي الهول بعينه . وعلى سبيل المثال : جاء رجال فرقتنا إلى قائدهم برجلين من العرب ، عثروا عليهما في المزارع . وقرر القائد أنهما من المشتبه بأمرهما ، ولا أحد يعرف ما حمله على اتخاذ هذا القرار . وباشر القوم عملية التعذيب فوراً ، إذ لم ينتظروا تهيئة المولد الكهربائي ، فانهالت أيدي رجال الفرقة ذات الخواتم الغليظة ، وانهالت السواعد المفتولة ، وانهالت الأرجل التي تحمل الأحذية ذات المسامير ، انهالت كلها دفعة واحدة على وجهي الرجلين وعلى بطنيهما وعلى معدتيهما وكبديهما ، واستمر هذا العمل إلى أن تخضبت الأرض بما برز فيها ، وبما سال من جسديهما ، وارغما عندئذ على الانحناء ، من أجل لحس ما لصق بالأرض ، ثم انهالت على وجهيهما وهما على هذه الحالة ضربات الأرجل ذات الأحذية المصفحة . ويظهر أن ذلك كله لم يكن كافياً ، فارغما على نقل

حجارة ضخمة من مكان إلى مكان ، لا لسبب ، إلّا لزيادة رشح الدماء التي كانت تسيل منهما . ثم جاء الليل ، فأطلق سراحهما ، لأنه تأكد للقائد أنهما لا يملكان أية معلومات مفيدة ؟ »[1] .

ومزيد من الأمثلة عن (مدارس التعذيب) على لسان أحد مجندي الجيش الفرنسي :

بدأ الاستجواب والتعذيب عند القائد بصورة هادئة ، ثم انتقل إلى الضرب باليد وبشدة حتى تعب القائد ، فأخذ في استعمال عصا غليظة ، وإذ لـم تنفع هذه العملية مع (المشتبه به) فقد تم تحت (الدوش) أو ـ رشاش الماء ـ حيث مكان التعذيب الحقيقي المجهز بمولد الكهرباء وأدوات النفخ بالماء الخ . . .

واقتلاع الأظافر أثناء تلك العمليات ، ووضع الملح مكان الأظافر المقلوعة ، ووخز كل أجزاء الجسم بالأبر ، واقتطاع أجزاء من الجلد بواسطة ملاقط الشعر . ولقد ربطوا أيدي (المشتبه بأمره) من رجليه وفق طريقة أطلقوا عليها اسم (وضع الضفدعة) . ثم شدوه إلى السقف وهو على تلك الحالة ، عاري الجسم تماماً ، وبقي كذلك ليلة كاملة ، وهم يتعهدونه بتسليط الماء عليه حتى يتجمد من شدة البرد . وبين حين وآخر يأتيه (المحقق) ليحاول انتزاع اعتراف منه ، دون جدوى ، حتى مات الرجل .

وهنالك (مشتبه آخر) اسمه (عامر بن الطيب ـ شيخ طريقة بقرية ـ ت) وقد استمروا في تعذيبه ثمانية ليال تباعاً . وكانت عملية التعذيب تستمر حتى يشرف الشيخ على الموت ، فيعملون عندها

---

(١) مجلة (اسبري) الفرنسية ـ عدد نيسان ـ أبريل ـ ١٩٥٧ ص ٥٨٢ وكراس (الشهادات المسيحية) ص ١٨ .

على إنعاشه بحقن ، ليعودوا إلى تعذيبه من جديد . وهكذا إلى أن أصبح الرجل عجينة طرية بين أيديهم ، وتعفنت أجزاء جسمه . فأجهزوا عليه ، من غير أن يحصلوا منه على كلمة واحدة[١] .

وقال مجند في اعترافاته : « **اليوم هو ٢٥ أيلـول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٦** . وأنا الآن مع النقيب ـ الكابتن ـ وقد زالت بيني وبينه الحواجز الرسمية ، إنه يباشر عمليات التعذيب بنفسه بعد ارتداء ثياب الألعاب الرياضية . ولقد رأيته مرة يعمل طوال ست ساعات مع اثنين فقط من (المشتبه بأمرهم) . أما الأول منهما فقد بدأت معه عملية الضرب لمدة عشرين دقيقة ، ثم بدأت عملية نفخ البطن بالماء حتى حد انفجار المعدة ، ثم الضغط بواسطة اليد على جزء حساس جداً من الجسم (ويقولون أن هذه العملية ناجعة جداً) ثم الضرب المبرح على الوجه حتى يتورم وتتغير كل ملامحه . أما (المعتقل الثاني المشتبه بأمره) فقد قضى كذلك ثلاث ساعات أمام المحقق ، وقد اقتلعت أظافر يديه ، واستعمل معه التيار الكهربائي ، وطبقت عليه وسائل تعذيب فيها تفنن وابتكار . وكان هذا النقيب قد جرب كل هذه الوسائل أثناء حرب ڤييتنام ، ولديه خبرة واسعة . ويقال إن لديه وسائل تعذيب هائلة لا تترك أثراً على الجسم »[٢] .

وذكر مجند معترفاً : « كان يوم الأحد الأخير مؤلماً رهيباً . وكان العمل فيه هو استجواب (استنطاق) رجل اتهم بأنه من الثوار (الفلاقة) واستمرت عملية التعذيب من الثامنة صباحاً حتى الساعة التاسعة ليلاً . ولقد تفنن كل رجال فرقتنا المؤلفة من قدماء حرب

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٢ .

الهند الصينية ، في ابتكار وسائل التعذيب طوال اليوم مثل : تمزيق أوصال هذا الرجل ، وتسليط العقارب عليه ، ولم تترك وسيلة أو مادة إلاّ وساتعملت ، التيار الكهربائي والبنزين والإسمنت ، والفلفل الأسمر والملح فوق الجروح ونفخ البطن بالماء ، وضرب المعدة والوجه والخصيتين بالأحذية ذات المسامير . وإذ لم تنجح معه أية وسيلة ، ولم يعترف بشيء ، فقد أجهز عليه بأن ألقي في حفرة تجمع القاذورات (الغائط) .

يا للهول ، لقد كنت استسيغ مرغماً استعمال وسائل التعذيب من أجل الحصول على الحقيقة فذلك ويا للأسف من الوسائل اللازمة . أما استعمال جسم بشري كوسيلة من وسائل التسلية والتفنن في ابتكار وسائل التعذيب لمجرد اللهو العبث، فذلك هو الأمر الذي يمزق قلبي ويحطم نفسي ، **والأدهى من ذلك والأمر هو أن الذين يقومون بهذه العملية المنكرة القذرة ، إنما هم شبان فرنسا الذين يبلغون من العمر عشرين عاماً ، والذين يمثلون الشباب الفرنسي كله . ويا لها من أوصاف وسجايا يتصف بها هذا الشباب وهو يمر بهذه المدرسة : الدناءة ، والنذالة ، والخسة ، والوحشية . هذه صورة من صور (طرائق التهدئة) وهذا هو فهمنا للشرف »[1] .**

وجهت جمعية (الصليب الأحمر الدولية) في مستهل سنة ١٩٦٠ ، تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، أنقض ظهرها على ما يبدو ، وقد نشر هذا التقرير بطريق التهريب . وكان فيما تضمنه التقرير على لسان ـ الملازم س ـ ما يلي : « لشد ما صدمني أن الناس ـ مدنيين وعسكريين ـ يتحدثون عن ذلك جهاراً في غير ما

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٦٠ .

حياء ، حديثهم عن شيء طبيعي ، أو عن فيلم سينمائي ، أو عن مباراة في كرة القدم . . وهذه الفظائع التي عممت في الجيش ، على وجه يملأ الصحف كل يوم ، هي مقبولة ومعتبرة أمراً عادياً . الجميع يتكلمون عنها علانية ، المدنيون في المقاهي والملاهي ، والعسكريون في كتائبهم ومطابخهم ، والجميع يستخفون . . هناك البحر الأبيض المتوسط بين الجزائر وفرنسا . وعلى كل حال فنحن أمة تعلم المدنية »[١] .

* * *

وكتب مجند في موضوع (مدرسة التعذيب) التي كان هدفها إبادة أكبر عدد من شعب الجزائر : « نصب الثائرون كميناً في الساعة السادسة من صباح يوم ٢ حزيران - يونيو - **١٩٥٦** ، وأسفر الكمين عن مقتل (١٤) من رجالنا . وتمكن الثائرون من الانسحاب بسلام . ولما لم تتمكن القوات الفرنسية من مجابهة الثائرين - كعادتها - فقد صبت جام غضبها وانتقامها على المدنيين العزل .

وهكذا ، ففي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، انطلقت مجموعات من الجنود - رفاق القتلى على ما يزعمون للانتقام لرفاقهم - وأخذوا يجوبون القرى الواقعة على مسافات قريبة من منطقة الكمين ، وجمعوا ما أمكن لهم جمعه من الرجال ، فاستحوذوا على (٣٥) رجلاً . ثم أوقفوا هؤلاء الرجال (المشتبه بأمرهم) ستة وراء ستة ، في مزرعة قمح - بين السنابل - وبقوا ينتظرون على قارعة

---

(١) يمكن هنا الإشارة إلى منكرات المظليين الذين يمعنون في التعذيب والذبح ، بصورة خاصة ، بعد سنة ١٩٥٨ والتي تضمنها كتاب (بنواري) بعنوان (الذابحون) الصادر في باريس سنة ١٩٦١ .

الطريق . وفي هذا الأثناء ، مر بالطريق العام خمسة أو ستة من العمال الفلاحين العرب قاصدين سبيلهم ، وكانوا يركبون عربة تحمل الحجارة ، فما كان من جندنا إلاّ أن ألقوا القبض عليهم جميعاً ، وأوقفوهم مع المعتقلين الآخرين ، بين سنابل القمح ، وذلك رغم توسلات زوجة المقاول صاحب العربة - وهي فرنسية - وتأكيدها بأن هؤلاء أبرياء وأنهم يعملون مع زوجها المقاول . وبقيت أنظر ساعة كاملة مدى ما قاساه هؤلاء الناس من ضرب مبرح بالأرجل وأعقاب البنادق (الأخمص) على البطون والضلوع والوجوه ، وسقط رجل منهم وقد أغمي عليه من شدة العذاب ، فصبوا عليه وعاء ماء ، وانهالوا عليه بضرب السياط - الكرباج - حتى ينهض من جديد ليتلقى المزيد من الضرب . لكن البعض منهم سقط ولم تنفع معه أية وسيلة لإنهاضه . وهكذا مات ثلاثة فوراً . أما الباقون فقد تبين أنهم أعدموا تلك العشية بمن كان معهم من نساء وأطفال . وكانت البيانات التي أمكن الحصول عليها بعد ذلك تؤيد صحة هذه الواقعة »[١] .

(١) المجندون يشهدون . ص ٦٨ .

٤ ـ معسكرات الانتقاء والترحيل

أقامت السلطات الاستعمارية الفرنسية ما أطلقت عليه أسماء (معسكــرات الانتقــاء والتـرحيل) و(معسكــرات الاعتقــال) و(معسكرات الإيواء) وذلك في إطـار المحاولات لقمع الثورة الجزائرية . ولقي الجزائريون : رجالاً ونساء ، شيوخاً وأطفالاً ، في هذه المعسكرات ، مختلف صنوف التعذيب والبؤس والشقاء . وتلك التقارير التي وضعتها جمعية (الصليب الأحمر الدولية) وأذيع السابع منها في فرنسـا (كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٦٠) على غير علم من المنظمة ، إنما جاءت في إثر عدد من الشهادات والتحقيقات لتؤلف قرارات اتهام موجهة ضد مجرمي الحرب الفرنسيين . وقد جاء في مقاطع من التقرير السابع ـ المشار إليه ـ ما يلي :

« لقد خصصت البعثة زيارتين متتاليتين لمعسكر (برج أم نايل) ففي ٣٠/١٠/١٩٦٠ . وجدت المعتقلين في حالة رعب تام من الإرهاب . وقد توسلوا الى أعضاء البعثة ألا يبوحوا ببياناتهم ، مخافة أن يضربوا أو يقتلوا انتقاماً ، وأتوا على ذكر ما لقوه من ضروب العنف والتعذيب أثناء استجوابهم في أمكنة قريبة من المعسكر . . . ويظهر أنهم قبيل زيارتنا سارعوا فأقصوا عن المعسكر فجأة ستين معتقلاً ممن

كانت حالتهم سيئة . ولقيت البعثة جريحاً في زنزانة منفردة ، فاتضح لها من تصريحات هذا الجريح الملقى على الأرض العراء ، دون أن تضمد جراحه ، أنه أثخن جراحاً أثناء استجوابه . وكان متروكاً بلا إسعاف منذ ثمان وأربعين ساعة . ومع أن المعسكر موجود منذ ثلاث سنين ، فإن المعتقلين لا يملكون قصاعاً ولا ملاعق أو سواها تحت تصرفهم ، وهم يتناولون طعامهم في علب المحفوظات الغذائية . ونعتقد بأن الوضع البائس في هذا المعسكر إنما هو أمر مقصود ، قضى به تنظيم خاص .

أثناء زيارة (مركز ترحيل النخلات الخمس) تم اكتشاف زنزانة فيها ستة معتقلين ، تبدو على ثلاثة منهم آثار رضوض حديثة العهد ، وفي وسطهم تضطجع على الأرض العراء جثة رجل لفظ أنفاسه في الليل ، بينما وقعت الزيارة في الساعة الحادية عشرة والنصف نهاراً ـ ٣٠،١١ـ وقد طلبت البعثة شهادات الوفاة لخمس وقوعات حدثت بين ١٢و١٨ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ فتحقق لها أنها جميعاً ، تعزو الوفاة إلى سبب واحد : التسمم البطيء بالغازات المسيلة للدموع . والأمر يتعلق برجال ، أخرجوا قبل عدة أيام من أحد الكهوف باستخدام القذائف المسيلة للدموع . ويستخدم الجيش الفرنسي ما يسمى بالغازات المسيلة للدموع ، ذات العيار الكثيف ، وهي في الحقيقة مركبات ـ أمينودي كلورو أرسين ـ أعني أنها غازات ثقيلة جداً ومخربة للأنسجة الداخلية والخارجية ومحظور على المحاربين استعمالها . وعلى العموم ، ففي هذه المعسكرات تحاشوا أن يعرضوا على أنظار اعضاء البعثة عدداً من المعتقلين ، رغم أن أسماءهم مدونة في سجل الاعتقال : لقد سلم هؤلاء الى (جيش الحملة في الريف) من أجل حمل الأثقال أو من أجل استخدامهم في (العمليات الحربية) .

وحيثما استطاع المعتقلون أن يتحدثوا إلى أعضاء البعثة على انفراد ، كانوا يشكون أنهم عذبوا ، وعوملوا بالكهرباء أو بالماء .

وفي مركز الانتقاء والترحيل في (تلاغ) على مقربة من (سيدي بو العباس) تظلم المعتقلون المكدسون في غرفة واحدة ، من أنهم كبلوا طوال الليل بالسلاسل أو القيود في أرجلهم ، وأنهم عوملوا بالعنف الشديد أثناء استجوابهم من قبل المكتب الثاني - الاستخبارات العسكرية - في المعسكر ، مثل (التعليق بالأيدي المشدودة الى الظهر ، والكهرباء ، والماء ، الخ . . .). وكانت آثار الحبال التي شدوابها بادية على أيدي عدد منهم . وشكا المعتقلون أن أرجلهم قيدت كل الليل بقيد من الخشب القاسي ، وقد رأينا هذا القيد بأم العين لأنه لا يفارق غرفة المعتقلين .

وفي معسكر (بوسوية) : شكت البعثة أن موظفاً في الاستعلامات العامة ملحقاً بهذا المعسكر ، كان يتبعها طوال المدة التي استغرقتها زيارتها . ومن الواضح أن مهمة هذا الموظف هي كشف أولئك الذين كنا نتحدث أليهم من المعتقلين »[١] .

يمكن أن يضاف الى معسكرات الانتقاء والترحيل أعمال الإبادة التي كانت معروفة باسم (سخرة الحطب) حيث كانت تأتي سيارة جيب عسكرية الى مكان تجمع الرهائن والمعتقلين ، وينادي الحراس على أسماء الذين وقع الاختيار عليهم لكي يكونوا (ضحايا اليوم) . فيساقون الى سيارة الجيب ، ويركبونها ، ثم يسار بهم الى جبل مشرف على البحر ، وهناك يتم إعدامهم . ومن العسير معرفة عدد الذين كانوا يقتلون أسبوعياً ضحايا (سخرة الحطب) بصورة

---

(١) صحيفة (لوموند) الفرنسية ١٩٦١/١/٤ .

دقيقة . فهم على الأقل خمسة أو ستة كل أسبوع ـ في كل معسكر ـ أما الثوار (الفلاقة) الذين كانوا يقعون في الأسر وهم يرتدون اللباس العسكري (من مجاهدي جيش التحرير الوطني) فإن مصيرهم لم يكن أفضل من مصير الرهائن المعتقلين . وأذكر انه قد وقع أسر سبعة من هؤلاء الرجال يوم **٣١** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ **١٩٥٦** . فطافوا بهم المدينة تحت حراسة مشددة ، ثم سلموهم بعد ذلك للفرقة التي أسرتهم . وقادتهم هذه الفرقة الى (سخرة الحطب) الشهيرة[١] .

وجاء في مصدر فرنسي : « ذهبت الجماعة الثالثة ومعها عشرين من المشتبه بهم ، كلفوا (بجلب الحطب) وعندما وصلوا الى مضيق ـ بيكارت ـ المكان الذي وقع فيه كمين للثوار ضد الفرقة (٢ /١١٧) والتي تركت (١٣) قتيلاً في ميدان المعركة ، أجهزوا عليهم رمياً بالرصاص ، في رؤوسهم ، وتركوهم من غير أن يواروهم التراب ، وأخبروا الدرك ـ الجندرمة ـ بأنهم قتلوا (٢٠) أسيراً حاولوا الفرار وختمت هذه المأساة بالجملة التي نطق بها الرائد ـ الكومندان ـ : لقد أخذت بالثأر لرفاقكم ؛ فهؤلاء هم العرب الذين قتلوهم ، ولنفرض جدلاً بأنهم لم يكونوا هم ، فقد دفعوا الثمن بدلاً عنهم »[٢] .

وفيما ذكره أحد المجندين ما يلي : « ذكر لي بعض الجنود من فرقة المظليين الثانية ، ومن الذين مضى عليهم وقت طويل في خدمة الجيش الاستعماري ـ الطريقة التي يتبعونها مع الموقوفين عند تكليفهم (بسخرة الحطب) حيث يكلفونهم أولاً بحفر خندق في

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٧٩ .

(٢) مذكرات الجندي (جان ميلير) ص ١٣ .

الأرض ثم ينزلونهم فيه ، وبعد قتلهم يردون فوقهم التراب ، وينتهي الأمر هكذا ببساطة »[1] .

وأكمل مجند آخر ـ وصف الموقف بقوله : « ذكر لي (أ . ز) قائد الكتيبة التي أنتسب إليها أنه يشاهد منذ ثمانية أيام منظراً لا يحتمله بشر ، فقد قتل رقيب أول فرنسي منذ ثمانية أيام ، وجاء الفرنسيون بمن حفر خندقاً ضيقاً ، وأخذوا يلقون فيه أعداداً من الرجال (المشتبه بأمرهم) أو الذين يتم إلقاء القبض عليهم أثناء عمليات البحث (التفتيش) . ويقوم الجنود بالحراسة عى حافة الخندق . وقد لاحظت أن هؤلاء الناس يصابون بالفزع عندما يدفعون الى الخندق ، اذ يعرفون بأن هناك من قتل قبلهم بهذا المكان ، حيث كانت أطراف الخندق تحمل علامات دموية ظاهرة جداً »[2] .

---

(١) المجندون يشهدون . ص ٢٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١١ .

٥ ـ معسكرات التجميع

أقامت السلطات الاستعمارية الفرنسية أيضاً ما أطلقت عليه اسم (معسكرات التجميع) التي لم تكن إلاّ برهاناً على أن فرنسا قد شنت في الجزائر حربها بأساليب شريرة وغير إنسانية يندر أن يوجد لها مثيل . فالتجميع بمقتضى المبدأ الذي يدين به ، لا يعدو أن يكون تطبيقاً لأسلوب بارع من أساليب إبادة العنصر . وعندما يضيفون على هذا الأسلوب ألـواناً من نعوت التورية المشؤومة ، كقولهم : (تجميع ، ورص ، وطي ، وإزاحة القرى عن مكانهـا) فإن ذلك لا يعني في حقيقة الأمر سوى التهجير ، والزج في المعتقلات ، وعالم من البشر المحشور ، وعهد ادخار الذكريات البائسة الحزينة . **ففي الوقت الذي يهدر حق الإنسان في بيته ، وعاداته ، وطراز عشه ، والأرض التي اختارها ذووه ليقضوا فيها حياتهم ، ويعهدوا اليه برفاتهم ، في الوقت الذي يتضور فريق من البشر جوعاً ويتمزقون ألماً ، فتنطفىء حياتهم بالموت البطيء ، يقف المرء مذعوراً أمام رسالة الهمجية التي استمر الاستعمار يخاطب بها الجزائريين طوال الحرب تحت سمع العالم وبصره** . وفي موضوع (التجميعات ، وأسبابها ، والمسؤولية الإدارية المترتبة عليها) يقول التقرير الرسمي

الذي وضعه المحققون الفرنسيون ، وأحيل إلى الحكومة الفرنسية « بأن جميع المراكز التي تناولتها الزيارة إنما أنشأتها السلطة العسكرية وحدها . والأسباب التي دعت الى اتخاذها هي دوماً عسكرية صرف »[1] .

وإذن ، ولما كان سبب التجمع عسكرياً ، ومنشؤه مجهولاً بحكم انبثاقه عن قرار سام من الجيش الفرنسي ، فقد بقي من الصعب معرفة العدد الدقيق لأولئك الذين أرسلوا إلى هذه المعسكرات ليكونوا على موعد مع الجوع والمرض والموت . وكان هناك إجماع في القول بأن هذه المعسكرات تفتت في بطء إنسانية تفوق مليون شخص ، وقد جاء في التقرير الرسمي السالف الذكر : « أنه يبدو من الصعب أن نسلم بأن عدد المجمعين ينقص عن المليون » وذكر الأمين العام للإعانة الكاثوليكية الفرنسية في تقريره : « **لقد اكتشفت أن هناك أكثر من مليون إنسان معظمهم من النساء والأولاد** » **ويضيف** : «**انا أحد أصدقائي وهو مراقب ذو مكانة مرموقة يقدر أن الرقم الحقيقي الحالي للذين أقصوا عن ديارهم يزيد على مليون ونصف المليون** » ولقد كان

---

(١) الثورة الجزائرية والقانون ـ تأليف محمد البجاوي ـ دار اليقظة العربية ـ دمشق ـ ص **٣٢٩ ـ ٣٣٤** وفي ص (٣٣٠) جاء ما يلي : « كأن التقرير أراد أن يظهر ما تنطوي عليه الكلمات من غموض بانتظار تغذية اللاحقيقة عن طريق الدعاية الرسمية التي تحرك الكلمات ، فقال : (لا يعد إرادياً) ذلك (التجمع) الذي يتم بسرعة كبيرة على يد واحدة مهما كانت السلطة التي ينتسبون إليها ، ويجب أن يفيدوا من الضمانات عندما تتحرك القوات العسكرية لإقفال المنطقة وتطهيرها ـ الأرض المحروقة ـ وعلى العكس من ذلك يكون (إرادياً) كل تجميع يتقرر اللجوء إليه في حالة عدم وجود عمليات واسعة النطاق تقوم بها القوة العسكرية المسؤولة عن المنطقة المعينة » .

لهذه التجميعات آثارها المفجعة ، فقد كانت ظروف الحياة في معسكرات التجميع قاسية جداً . ثم ، أليس استعمال (هذه العبارة ينطوي على الإساءة الى ذكرى الذين لفظوا أنفاسهم في هذه المعسكرات) هي بمقتضى الشهادات الرسمية نفسها جد مؤلمة .

ولقد مارس الجيش الفرنسي والسلطات الاستعمارية الفرنسية في هذه المعسكرات نشاطات أخرى . فلقد كانت حوادث الاختفاء ، والإعدام من غير محاكمة وفيرة كثيرة إلى درجة مذهلة . وكثيراً ما كانت ذريعة الإعدام هي الزعم الكاذب (بمحاولة الفرار) وقد عبر التقرير السابع لجميعة الصليب الأحمر الدولية عن قلقه في هذا الخصوص ، فقال: « إن مشكلة الوفاة أثناء محاولة الهرب تستحق أن تدرس عن كثب ، نظراً لكثرة الحوادث » . وإن ما مارسه الجيش الفرنسي ، واعترف به ، من أعمال الجرف ، وتخريب القرى ، وإبادة السكان المدنيين ، لمما يؤلف جرائم إبادة عنصرية مبيتة ضد الشعب الجزائري . وقد أعلن النائب (بيير كلوسترمان) في ١٣/٥/١٩٥٨ من على منبر الجمعية الوطنية الفرنسية (وكان قد اشترك في الحرب الجزائرية كطيار) فقال : « لكي لا يجد الفلاحون مأوى لهم في القرى أثناء ترحيلهم ، ولكي لا يتمكن أبناء القبيلة الصغيرة من مساعدتهم ، فقد اضطررنا الى القيام بعملية تطهير جوي ضد قرى هذه المنطقة » . وإن مثل هذه الشهادة ليست وحيدة . وعلى العموم ، فقد سلكت فرنسا في صراعها ضد الجزائر مسلك التحديد المستمر لجميع القيم الإنسانية . وظلت المحاولات المبذولة ، طوال الحرب ، لإضفاء السمة الإنسانية على هذا الصراع ، عديمة الجدوى .

لقد حاولت جمعية الصليب الأحمر الدولية التدخل في النزاع

القائم ، من غير أن تحصل ـ للأسف ـ على نتائج مرضية . واذا ما أمكن تجاوز كل المحاولات التي بذلتها هذه المنظمة الحيادية، التي تتمتع بسلطة أدبية رفيعة طوال الفترة من سنة ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٥٨ ، فإنه بالإمكان التعرض لما قدمته هذه المنظمة إلى الحكومة الفرنسية ولجنة التحرير الوطني في ١٩٥٩/٥/٢٨ ، حيث عرضت مشروع اتفاق يتعهد فيه (طرفا النزاع) أن يحترما أحكام المادة الثالثة الواردة في كل من اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ ، وأن يتجنبا تدابير الثأر ، وأن يعاملا الأسرى الذين يقعون في قبضة قواتهما معاملة إنسانية . وتنص المادة ٣ المشار اليها على : « في حالة النزاع المسلح الذي لا يتسم بطابع دولي ، فإن كلاً من أطراف النزاع ملزم ، على الأقل، بتطبيق الأحكام التالية :

١ـإن الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال الحربية ، بما فيهم أفراد القوات المسلحة الذين ألقوا السلاح ، والأشخاص الذين أخرجوا من المعركة بسبب المرض ، أو الجراح أو الاعتقال ، أو أي سبب آخر إنما يعاملون ، في جميع الظروف ، معاملة إنسانية دون أي تمييز ذي طابع ضار قائم على العرق أو اللون أو الدين أو العقيدة ، أو الجنس ، أو المولد ، أو الثروة (أو أي معيار مماثل . وتحقيقاً لهذه الغاية . يحرم ، ويظل محرماً ، في كل زمان ومكان ، أن تقترف تجاه الأشخاص السالفي الذكر الأفعال التالية :

أ ـ الاعتداء على الحياة وعلى سلامة الجسم ، ولا سيما القتل في جميع صوره ، وبتر الأعضاء والمعاملة بالقسوة والتعذيب .

ب ـ أخذ الرهائن .

ج ـ الاعتداء على شرف الشخص ، ولاسيما معاملة الإذلال والحط من القدر .

د ـ الإدانات المنطوق بها والإعدامات المنفذة دون محاكمة مسبقة ، وحكم صادر عن محكمة منشأة ، بصورة قانونية تتوافر فيها جميع الضمانات القضائية ، التي تعدها الشعوب المتمدنة أمراً ضرورياً .

٢ ـ إن الجرحى والمرضى يجب إيواؤهم والعناية بهم .

وتستطيع منظمة إنسانية محايدة كجمعية الصليب الأحمر الدولية أن تقدم خدماتها لأطراف النزاع .

ومن جهة ثانية ، يعمل أطراف النزاع على تطبيق باقي أحكام هذه الاتفاقية كلاً أو بعضاً عن طريق اتفاقات خاصة . لا يكون لتطبيق الأحكام السابقة أي تأثير في الوضع القانوني لأطراف النزاع (باعتبار أن فرنسا لم تكن تعترف بالصفة القانونية لجبهة التحرير الوطني ، ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . واستمرت في التعامل مع الثوار الجزائريين على أنهم (فلاقة) عصاة ، خارجين على السلطة الفرنسية) . ورفضت فرنسا تطبيق هذه المادة التي كان يجب عليها تطبيقها من غير تدخل الهيئة الدولية . كما رفضت الحكومة الجزائرية تطبيقها . غير أنها تبنت ـ من طرف واحد ـ عدداً من التدابير التي لا تقتصر على تنفيذ مقترحات جمعية الصليب الاحمر الدولية ، وحسب ، وإنما تذهب الى مدى أبعد ، لاسيما في مجال التعامل مع الأسرى في حين استمرت فرنسا في تجاهلها للمتطلبات الإنسانية ، لا سيما فيما يتعلق بالخدمات الطبية والتعامل مع الجرحى .

٦ ـ الأسرى والجرحى

أكدت الحكومة الجزائرية رسمياً لمنظمة الصليب الأحمر الدولية ، أنها ستمتنع عن كل بادرة من شأنها أن تزيد الحالة سوءاً ، علماً بأنها ستجد نفسها مضطرة إلى استرداد حريتها في العمل إذا لم يبرهن الطرف الآخر في النزاع على تقيده بهذا النهج . تلك كانت خلاصة برقية أرسلتها جبهة التحرير الوطني إلى جمعية الصليب الأحمر الدولية في ١٩٥٨/٥/١٣ . أي قبل أسبوعين من تاريخ مذكرة الجمعية المشار إليها . وهذه البرقية أكدتها بعد ٢٨ أيار ـ مايو ـ عدة رسائل شفوية عن طريق المندوب الدائم للهلال الأحمر الجزائري لدى جمعية الصليب الأحمر الدولية ، تؤلف إلى حد ما شريعة الطرفين ، وهما الصليب الأحمر الدولي والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . وهكذا فقد قامت بين الطرفين المتحاربين هدنة (التوقف عن تنفيذ أحكام الإعدام) واستمرت قرابة خمسة أشهر . ولما عادت فرنسا إلى تنفيذ حكم الإعدام ، عمدت الحكومة الجزائرية إلى إنذار جمعية الصليب الأحمر الدولية عدة مرات ، اضطرت بعدها إلى استعادة حريتها في التصرف .

أصدرت الحكومة الجزائرية مرسوماً في ١٩٥٨/١٠/٤ ،

قضى بإطلاق سراح أسرى الحرب بلا قيد أو شرط . وكانت تأمل من وراء هذه المبادأة أن ترى الجانب الفرنسي يطبق المبادىء الإنسانية بصورة تدريجية على النزاع القائم . وأطلقت سراح خمسين فرنسياً على دفعات متتالية ـ تنفيذاً لهذا المرسوم . وقد أعلن هؤلاء الأسرى للعالم بأن قوانين الحرب مصونة الشرف على ذرى الجزائر الحرة .

وكانت النتيجة من الجانب الفرنسي أن المقاتلين الجزائريين الواقعين في الأسر ، لم يعاملوا بمقتضى (قانون أسرى الحرب) . ولم يكتف الجيش الفرنسي بذلك ، بل بذل غاية الجهد حتى يصطدم بالوحدات الجزائرية ، ويحاول الفتك بها عندما كانت تتجه بالأسرى الفرنسيين عبر الحدود التونسية أو المغربية ، لأن الحكومة الجزائرية كانت تعلن عن إطلاق سراحهم مسبقاً قبل عدة أيام ولكي تتقي الحكومة الجزائرية هذا الخطر ، اضطرت في بعض الحالات إلى العزوف عن الإعلان المسبق ، وآثرت أن يتم اطلاق سراح الأسرى بصورة مفاجئة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد وجه قادة الثورة عناية خاصة إلى حالة مؤلمة ، هي حالة الشبان الأجانب الذين كانت السلطات الفرنسية تجندهم في الفرقة الأجنبية بغير رضائهم التام .

وقد أثيرت فضيحة التجنيد التعسفي في الفرقة الأجنبية في كل من ألمانيا وبلجيكا ، حيث عبرت عنها حملة شديدة في الصحافة ، واستجوابات عديدة في البرلمان البلجيكي ، وتبع ذلك بذل مساع رسمية لدى ممثلي الحكومة الفرنسية لإيقاف هذه العملية . كما أثيرت الفضيحة ذاتها في سويسرا وفي المجلس الوطني الهلفيتي يوم ١٨/٦/١٩٥٦ . وقد عملت جبهة التحرير الوطني الجزائري من جانبها على تنظيم عدد من المكاتب واجبها إعادة هؤلاء الجنود الفتيان إلى أوطانهم . وفي ٢٣/٧/ ١٩٦٠ بلغ عدد هؤلاء المعادين

إلى أوطانهم عبر الحدود الغربية للجزائر وحدها (٣٢٩٩) جندياً . منهم (٢٠٧١ ـ ألمانياً) و (٤٣٩ ـ إسبانياً) و (٤٤٧ ـ إيطاليا) و (٨٧ ـ مجرياً) و (٤٢ ـ يوغوسلافياً) و (٤١ ـ بلجيكياً) و (٤٣ ـ سويسرياً) و (٢٩ ـ نمساوياً) و (١٧ ـ هولاندياً) و (١٦ ـ اسكندينافياً) و (٩ ـ إنكليز) و (٧ ـ من لوكسمبرغ) و (٥ ـ أمريكيين ، اثنان من الولايات المتحدة وثلاثة من أمريكا الجنوبية) و(٣ ـ يونانيين) وواحد من كوريا وواحد من بلغاريا .

لقد أجرت الحكومة الجزائرية عدة مخابرات واتصالات مع جمعية الصليب الأحمر الدولية ، أبلغتها بمقتضاها أن الحالة في الجزائر ، قد وصلت حداً من الخطورة ، يجعل طلب تطبيق المادة الثالثة من الاتفاقيات غير كاف ، ومتخطى . وقد اقترحت الحكومة الجزائرية إبرام اتفاق خاص بين المتحاربين تحت إشراف جمعية الصليب الأحمر الدولية ، من أجل تسوية مجموعة من المشاكل الإنسانية المتولدة عن حرب الجزائر. ولو أن الحكومة الفرنسية قبلت إبرام هذا (الاتفاق الخاص) لأدى ذلك إلى تنظيم عدة أمور منها :

ـ حظر أساليب الحرب غير الإنسانية ، وطرق الإكراه المعنوي (التعذيب ، النابالم ، الغاز ، غسيل الدماغ ، الخ . . .) .

ـ حماية السكان المدنيين « منع عمليات الجرف ، والقصف بالقنابل لإزالة القرى ، وتحريم ترحيل الأشخاص القسري جماعات أو أفراداً ، بمقتضى المادة (٤٩) من اتفاقية جنيف الرابعة ، وإلغاء معسكرات التجميع » .

ـ إسعاف الجرحى والمرضى[١] .

---

(١) غير خاف أن عدداً كبيراً من الجرحى والمرضى الجزائريين كانوا يهلكون في الأدغال =

ـ نظام المحاربين الواقعين في الأسر من كلي الطرفين .

إسعاف الأشخاص المعتقلين في المنظمات العاملة في الاعتقال والتعذيب وفي معسكرات الاعتقال . ولقد كررت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عروضها مرات عديدة من أجل إبرام اتفاق خاص من هذا النوع . ولكن جمعية الصليب الأحمر الدولية لم تتمكن من الحصول على موافقة الحكومة الإفرنسية على مثل هذا الإجراء . وأخيراً ، اتخذت الحكومة الجزائرية المؤقتة قرارها بالانضمام إلى اتفاقيات جنيف الأربع في ١٩٦٠/٦/٢٠ . ولقد دعت الضرورة حكومة الجزائر إلى أن تتحرى وسائل مختلفة من أجل حمل فرنسا على احترام قوانين الحرب . وقد تحقق هذا الغرض بانضمام الجمهورية الجزائرية إلى اتفاقيات جنيف . وأصبح بالإمكان اعتباراً من هذا التاريخ وضع الصراع الفرنسي ـ الجزائري وجهاً لوجه بين فريقين كلاهما موقع على اتفاقيات جنيف . ولكن ،

= لعدم وجود القدر الكافي من الأدوية بعد أن راحت الحكومة الفرنسية تمنع بيعها في الجزائر بقرارات أصدرتها عام ١٩٥٣ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ خلافاً لجميع القواعد الإنسانية . ويمكن الرجوع بصورة خاصة إلى القرار الصادر بتاريخ ١٩٥٥/١١/٢١ (بتنظيم ورقابة مختلف المستحضرات والمواد المتعلقة بالصحة العامة ـ الجريدة الرسمية للجزائر تصدرها فرنسا ١٩٥٥/١١/٢٥ ص ٢٢٢٤) والحقيقة أن القرار لا ينظم بل يحظر دون قيد أو شرط (المادتان ١ و ٢) شراء بعض الأدوية من خارج الجزائر وتخزينها في الجزائر ، ولا سيما المضادات الحيوية ، ومستحضرات السولفاميد والمصول واللقاحات والضمادات كالقطن المعقم الخ . . . مما تضمنه الجدولان الملحقان بالقرار . كما يمكن الرجوع أيضاً إلى القرارين الصادرين عن الحاكم العام في ١٩٥٥/١١/٢١ نفسه ص ٢٢٢٥ وكذلك أيضاً القرار المؤرخ ١٩٥٥/١٠/٢٤ في المصدر بشأن : (استيراد بعض الأدوية والمستحضرات الكيميائية والعقاقير البسيطة والضمادات إلى الجزائر) ١ الجريدة الرسمية للجزائر ١٩٥٥/١٠/٢٨ ص ٢٠٩٦) .

وعلى الرغم من ذلك . فقد استمرت فرنسا في ممارساتها الإجرامية . ولم تتوقف سلطاتها وقواتها عن متابعة أعمال التعذيب ، وإقامة معسكرات التجميع ، والإعدامات المختصرة من غير محاكمة ، وارتكاب الفظائع المختلفة . واستمرت أيضاً في التعامل مع (المسبلين - أو الأنصار) ومع (الفدائيين بالمدن) باعتبارهم إرهابيين ، لا تنطبق عليهم شروط أسرى الحرب . مع العلم أن المذكرة التي أصدرها المركز القانوني للأنصار خلال الحرب العالمية الثانية ، والتي صدرت على أثرها مذكرة عن جمعية الصليب الأحمر الدولية في ١٧/٨/١٩٤٤ إلى جميع المحاربين ، طلبت فيها اعتبار أمثال هؤلاء المقاتلين أسرى حرب ، مثلهم كمثل الجنود في القوات المسلحة سواء بسواء .

وبقيت الحرب الجزائرية نموذجاً فريداً بين الحروب ، في قسوتها ووحشيتها ، في بعدها عن كل القيم الحضارية والمفاهيم الإنسانية . لقد أرادتها فرنسا حرب مصير ووجود ، وقبل الشعب الجزائري وقيادته الثورية التحدي الثقيل ، بكل ما يتضمنه من جهود وتضحيات . وانتصر الشعب الجزائري في الرهان المصيري . غير أن طبيعة هذه الحرب الوحشية لم تمر دون أحداث مثيرة ، ولعل أبرز ما في إثارتها هو أنها اكتسبت أنصاراً لها ومؤيدين في وسط الأعداء ذاتهم .

٧ ـ ملحقات ضد الاستعمار وأساليبه الهمجية

لم تعدم الثورة الجزائرية ، منذ مراحلها الأولى ، أن تجد لها أنصاراً في وسط الشعب الإفرنسي . غير أن الاتجاه الاستعماري بقي هو المهيمن على السلطة ، فكانت أصوات الاحتجاج ضعيفة متخاذلة ، ثم أخذت في الانتظام والتعاظم حتى شكلت تياراً قوياً .

وكانت عدالة القضية في حد ذاتها ، ثم أساليب القمع الوحشية ، المثيرة لأبسط المشاعر الإنسانية ، وما يقابلها من صمود رائع أظهره مجاهدو شعب الجزائر فاكتسبوا إعجاب العالم الذي سيبقى أبداً مشدوداً إلى البطولات الأسطورية ، كل ذلك أحدث انشقاقاً في الرأي العام الفرنسي . وهو انشقاق سيستمر طويلاً محوراً للجدل والنقاش . وإذا كان من العسير عرض كل الشواهد المتوافرة في هذا المضمار ، والتي تعبر عن ظواهر الخير والشر في المجتمع الواحد .

فإن اللجوء إلى بعض القراءات (الملحقات) كافية لإبراز مثل هذه المواقف التي يمكن وصفها (بالإنسانية) أو وصفها أيضاً (بالنظرة البعيدة للتطور المتوقع ـ والرغبة في تبديل العلاقات الاستعمارية القديمة بعلاقات استعمارية متطورة) . وتبقى إرادة الشعوب هي الحكم في تقويم العلاقات الصحيحة والسليمة :

الملحق (أ)

شخصيات فرنسية ضد الهمجية الاستعمارية(*)

لقد كلف عدد كبير من شبابنا من جنود نظاميين ، أو ممن استدعوا للخدمة من الاحتياطي ، بالاشتراك في حرب الجزائر باسم الشعب الفرنسي . وهي كما ترون مهمة شاقة وعسيرة ، غير أننا قد تسلمنا منذ أكثر من عام عدداً كبيراً من المعلومات الصحيحة التي تستند إلى شهادات لا يرقى إليها الشك ، وهي تؤكد بأن هؤلاء الجنود الشبان قد أرغموا على الاشتراك في الأعمال العدوانية التي لا يمكن أن يقلبها أي ضمير إنساني .

إن الأمر لا يتعلق بحوادث، هي على الرغم من تعددها ، يمكن أن تعتبر حوادث فردية ، ولكن يتعلق بطريقة اتبعت على شكل واسع، ونعني بها اللجوء إلى تعذيب الأسرى الذين يتم إلقاء القبض عليهم وهم يحملون السلاح . فهم باعتبارهم (ثواراً) لا تطبق عليهم الضمانات التي تعترف بها معاهدة جنيف لجنود الأعداء ، ولا الحقوق التي تضمنها قوانيننا للمواطن الفرنسي . كما أن الأمر يتعلق أيضاً بتنفيذ الإعدام الفوري على الأبرياء ممن يؤخذون (رهائن) أو بأعمال القسوة والسلب والنهب وتدمير قرى بأسرها على سبيل التخويف والأخذ بالثأر .

* * *

ـ لقد وقع هذا البيان (٣٧٥) شخصاً من الشخصيات البارزة في

(*) صحيفة (لوموند) الفرنسية في ٢٢ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٧ .

المجتمع الفرنسي وكان من بينهم :

الدكتور لويس ، روجيه ميهل ، لوك أستانج ، جوزيف فوليبه أجولا بول فريس ، موريس دو جانديلاك ، الاب جولي ، رينيه جوليار موريس لاكروا ، اندريه لاتربيل ، الاب فاربيون ، لويس ماسينبيون فرانسوا مورياك ، مدام بوليت مونييه ، اندريه فيليب ، الأب ريتيف بول ريكور ، دافيد روسيه ، الأب اندريه مونييه ، الأب بيير تروكميه الأب فاريبون ، هوريس فوسار ، فيليب فياني .

الملحق (ب)

قرار عن الجزائر في اجتماع الكرادلة وكبار الأساقفة(*)

نشرت أمانة سر الأسقفية صباح اليوم القرار الآتي الذي تم الاتفاق عليه في اجتماع الكرادلة ، وكبار الأساقفة ، الذي انتهت آخر جلساته بعد ظهر الخميس في (باريس) .

« لقد تقرر بطريقة قاطعة الامتناع عن اتخاذ أي قرارات سياسية فيما يتعلق بالمشكلة الجزائرية . ويوجه مؤتمر الكرادلة وكبار الأساقفة نصيحته هذه إلى جميع من أصابتهم حوادث الجزائر المؤلمة في صميم أفئدتهم وأبدانهم ، فمنذ خريف عام ١٩٥٥ ،

---

(١) صحيفة (لوموند) الفرنسية في ١٦ ـ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٧ .

وجه أساقفة الجزائر خطاباً مشتركاً ، اتبع بقرار اتخذه جميع الكرادلة وكبار الأساقفة ، تعرض فيه للمبادىء التي يجب أن يستنير بها المسيحيون للحكم على الحوادث ، ويسترشدوا بها لاتباع الطريق السوي .

إن الآلام التي تنتج عن الخلاف القائم ، يخشى أن تؤدي إلى أوخم العواقب ، وأن تضر بكل محاولة لتسوية المشكلة بطريقة عادلة ، وقد يترتب عنها ، عند البعض ، فقدان تام للاحترام الواجب للكرامة الإنسانية ، كما يترتب عنها عند الآخرين اضطرابات وشكوك قد تؤدي إلى إعادة النظر في الواجبات المبدئية نحو الوطن .

إن الحقد لا يجب أن يجد له مكاناً في قلب المؤمن ، وهو بالأحرى لا يمكن أن يستعمل حجة للقيام بأعمال إرهابية عمياء ، يكون ضحاياها الأبرياء ، أو إلى القيام بمظاهرات دامية لمقاومة الإرهاب . إن هذه الطريقة الشنيعة المكروهة يخشى منها أن تخلق عوائق وعقبات لا يمكن التغلب عليها في الطريق المشروع الطويل الأجل الذي يقوم عليه مستقبل الجزائر . وما سبق للأسقفية أن أكدته مراراً ، وكما يشهد بذلك تدخلها المتكرر لدى السلطات المسؤولة ، فإن كلُ من تكون مهمته حماية الأفراد والأموال ملزم بأن يحترم الكرامة الإنسانية ، وأن يمتنع البتة عن كل إجراءات تحرمها الشريعة الطبيعية والقانون الإلهي . وهي إجراءات كثيراً ما اعترضت عليها السلطات العامة . وبالنسبة للأزمة الحالية ، فإننا جميعاً وكل منا على انفراد ، يجب أن يتذكر في كل وقت بأنه لا يمكن أن يسمح له بأي حال من الأحوال أن يستخدم طرقاً وأساليب مستهجنة في ذاتها ، ولو كان ذلك في سبيل قضية محمودة .

وفي وسط كل هذا الاضطراب والقلق ، ما زال هناك سبب كبير

للأمل، إن العلاقات الودية بين مختلف الطوائف لم تنقطع بعد ، والاتصـالات ما زالت عـديـدة بين المسيحيين والمسلمين والإسرائيليين ، وإن الجهود التي تبذل للتفاهم المشترك وروح التسامح عن الإهانة ، والرغبة في التعاون للمصلحة العامة المشتركة ، كل هذه فيها دلالة كافية وأكيدة على أن هناك محاولات حقيقية للتعاون والاتحاد .

إن كرادلة فرنسا وكبار أساقفتها ، يجددون نداءهم لتقديم صلوات حارة ، وابتهالات إلى الله حتى تتحد كلمة جميع ذوي النوايا الطيبة والأماني الحقيقية ، ويقوم سلام حقيقي على أسس عادلة مقبولة » .

الملحق (ج)
خطاب من الأستاذ رينيه إلى وزير التربية الوطنية الفرنسي[1]

سيدي الوزير !

علمت الآن عن طريق الإذاعة أن (علي بو منجل) قد انتحر بمدينة (الجزائر) بأن ألقى بنفسه من أعلى سطح إحدى العمارات حتى يتخلص من طريقة الاستجواب التي كان سيتعرض لها .

لقد كان (علي بو منجل) أحد تلاميذي في كلية الحقوق بالجزائر ، حينما كنت أدير حركة المقاومة في شمال أفريقيا .

وقد هزني خبر وفاته ، في مثل هذه الظروف ، وإن هذا الخبر

(١) صحيفة (لوموند) الفرنسية في ٢٦ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٧ .

ليؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ، وبطريقة مؤلمة ، ما قرأته منذ أيام في كتاب (هنري بيير سيمون ـ ضد أعمال التعذيب)

وطالما أن مثل هذه الطرق التي لم نتبعها قط حتى مع الأسرى الألمان في الحرب الأخيرة ، سوف يسمح باتباعها أو بتطبيقها ضد الجزائريين بمعرفة حكومة بلادي ، فإنه لن يكون في استطاعتي أن أستمر في التدريس بكلية الحقوق الفرنسية . وإني لذلك سأضطر إلى إيقاف تلقين الدروس فيها .

أقلني إذا رغبت في ذلك ، أو إذا استطعت ذلك ، إني سوف أتقبل بامتنان كل ما يمكن أن يؤدي إلى نشر اعتراضي على وقائع يمكن أن تدنس شرف فرنسا إذا ما اتخذت موقفاً سلبياً تجاهها .

رينيه كابيتان
أستاذ في كلية حقوق باريس
وزير المعارف السابق
في وزارة الجنرال (ديغول)

الملحق (د)

الجنرال (دو بولارديير) يستقيل من قيادته[1] ؟

طلب الجنرال (باري ـ دو بولارديير) الحامل لوسام جوقة الشرف بدرجة ضابط ، وزميل التحرير ، وقائد منطقة عمليات في الجزائر إعفاءه من مركز قيادته .

(*) صحيفة (لوموند) الفرنسية في ٢٩ ـ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٧ .

فبعد أن شرح أسباب القرار الذي دفعه إلى الوزير المقيم بالجزائر ، السيد (دوبير لاكوست) وإلى الجنرال (سالان) القائد العام . سلم الجنرال (دو بولارديير) قيادة منطقة الأطلس البليدي التي كان مسؤولاً عنها ، ورجع إلى فرنسا . وقد عجب كثير من الفرنسيين ذوي النيات الحسنة، وأبدوا استياءهم من البيانات التي قدمت لهم بطريقة رسمية على أنها حملة مغرضة من رجال الفكر والمسيحيين الذين يسهل إثارتهم والتأثير عليهم ، وإن لم يكن الأمر متعلقاً بتحريضات شيوعية . وعلى كل ، فإن النتيجة كانت واحدة في الحالتين الهبوط بالروح المعنوية للجيش والأمة لمصلحة الخطط الإجرامية لجبهة التحرير الوطني .

إلّا أن (رسالة القوات المسلحة) كانت تؤكد بأن بعض الضباط الذين يحاربون في الجزائر، من مختلف الطبقات ، ومن ذوي التاريخ الحربي المجيد ، قد أظهروا خيبة أملهم تجاه بعض عمليات البحث عن الإرهابيين . فقد جاء في هذه الرسالة (إن النخبة الممتازة من الضباط ذوي الماضي الأدبي يأنفون من أداء هذه المهمة الدنيئة وغير المجدية).

واليوم ! نرى رئيساً من بينهم، له ماض ساطع مشرف ، يحذر المسؤولين برفضه القاطع لتنفيذ الأوامر الصادرة إليه . واتباع الطرق التي يراها غير مقبولة في نظره . وقد أبدى غيره من قبل إلى الرؤساء المباشرين أراءهم بأن المشكلة التي تواجهها قوات المحافظة على الأمن ، هي مشكلة لا يمكن حلها ، ما لم تتوافر للقوات معاونة حقيقية وفعالة من قبل السكان ، وأن عمليات القمع الأعمى إن هي إلّا مجازفة سوف تؤدي بنا عاجلاً أو آجلاً إلى اتباع سياسة (إبادة الشعب الجزائري) أو (الاستسلام لمطالبه) .

إن الجنرال (باري ـ دو بولاردير) قد عمل حساباً لخطورة القرار الذي اتخذه ، وقدر ما سوف يترتب عليه من رد فعل عميق . وهذا القرار إنما يدل ببساطة أنه باستطاعة الإنسان أن يكون في وقت واحد (رجل حرب) وأن يرفض ، من أجل الوصول إلى نتائج قريبة وعاجلة ، التضحية بالقيم الأخلاقية التي تكون عظمة الجيوش ، وتضمن مستقبل المدنية التي هي حاميتها .

* * *

٨ ـ الكلمة الأخيرة

تثير الحروب بصورة عامة نوعاً من التخلخل الاجتماعي ، الذي بات معروفاً لعلماء النفس والاجتماع، فالتأرجح بين الضغوط العالية والاسترخاء أو الهمود المنخفض ، والعيش تحت ظروف التوتر الشديد ، يترك في النفس عصابات قد تصل إلى حدود مرضية خطيرة في أحيان كثيرة . يضاف إلى ذلك ويلات الحرب ومآسيها والقلق على المصير وفقد الأهل والأحباء ومعاناة الجوع والمرض ، وأهوال التخريب والدمار والتشرد ، كل ذلك مما يترك أشكالاً مختلفة من الجنوح غير السوي . فكيف الأمر بالحروب الاستعمارية التي تتعاظم في أهوالها ومصائبها على كل أشكال الحروب التقليدية ؟ ثم كيف الأمر بالنسبة للاستعمار الفرنسي بالذات ، والاستعمار الفرنسي للجزائر منه بصورة خاصة ؟

لقد أظهرت الصفحات السابقة بعض ملامح (المأساة الجزائرية) . وهي مأساة تبقى على الرغم من كل ما كتب عنها ، وعلى الرغم من كل ما أمكن معرفته عنها ، غامضة في كثير من جوانبها . وهنا ، لا بد من القول ـ على ضوء ما سبق عرضه ـ بأنه إذا ما كان من شأن الحرب ، وكل حرب ، إثارة اضطراب في تكوين

المجتمع وبنائه ، فإن الاستعمار الفرنسي قد زاد من عمق المأساة بتعمده إحداث هذا الاضطراب ، فانتهاك المحرمات ، وإشاعة الفواحش ، وتعهير المحصنات، ونقل كل مساوىء الحضارة الغربية وتعميمها ، كل ذلك قد تم في إطار محكم من التخطيط والتنفيذ. وترك ذلك كله بصمات عميقة على المجتمع الجزائري. وقد يكفي التوقف لحظة لتأمل الوجوه عند (نهج المصارف) أو في المجمعات عند بداية الطريق (للقصبة) حتى يصطدم الإنسان بكل معالم البؤس التي بقيت واضحة بعد ربع قرن من زوال الاستعمار الإفرنسي .

قد يكون من الطبيعي ، ومن المتوقع ، ظهور انحرافات مرضية تبتعد بالشعب عن أصالته ، ولا بد من فترة زمنية حتى يستعيد المجتمع توازنه المفقود . غير أن إعادة التوازن تتطلب عملاً مخلصاً دؤوباً ، وجهداً واعياً مستمراً . وتتزايد صعوبة إعادة التوازن ـ بدهياً ـ بتأثير عاملين :

أولهما وأخطرهما : استمرار الدور التخريبي الاستعماري ـ من خلال الاستطالات المرضية للاستعمار ورواسبه ، ومن خلال استمرار التحريض الخارجي .

ثانيهما : ظهور الصراع بين الأجيال ، الجيل التقليدي المحافظ والجيل الصاعد المتمرد . وصورة العاملين واضحة في رد **(الاستاذ أحمد طالب الإبراهيمي)** على رسالة فتاة وصلته وهو في سجنه في (فرين) بعد أربع سنوات ونيف من الاعتقال . واذا كانت رسالة الفتاة لم تطالعنا ، فإن الرد عليها كافياً لايضاح مضمونها[1] .

---

(١) رسائل من السجن (أحمد طالب الإبراهيمي) تعريب : الصادق مازيع ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٧٣ ص ١٩٧ ـ ١٩٩ .

وقد كان الرد هو التالي :

الى مناضلة جزائرية ،
فرين ، ٢٧ جويلية ١٩٦١ ،
أختي العزيزة ح . . .

إن حالة الأرق ، وهي الأليفة الوفية لي ، تهيب بي أن أكاتبك ، وأن أقول لك أنني انشرحت لقراءة رسالتك .

وإنه ليبهجني أن قد حظيت بلقيا ذويك (وخاصة والدتك) بعد طول البعاد . ويقيني أن عودتك هذه إلى أحضان الأسرة ستروح عنك ، مهما كان من الصدمات الحاصلة بموجبها .

وقد أشرت إلى مدى الهوة بينك وبين أسرتك ، وهو أمر لا محيد عنه ، فإنك لتعلمين حق العلم انتسابك إلى ذلك الجيل الانتقالي الذي كثيراً ما فرض عليه الصمود في واجهتين . ولعمري إن النزاع لمعقد كل التعقيد : ذلك أن جيل والدك قد اضطلع بكفاح جدير بإعجابنا للحفاظ على شخصيتنا القومية ، وهو الكفاح الذي ما كان يتسنى بدونه تصور اندلاع الثورة ، ولا إبرازها إلى الوجود . وباعتبار الظروف التاريخية السائدة آنذاك ، اتخذ الكفاح في جوهره شكلاً دفاعياً . وأمعن فوق ما يجب في تقديس ما هو في حد ذاته شيء رمزي ، أي شكلي صرف . وإن أبناء ذاك الجيل لمصيبون في تنبيههم الشبان إلى الأخطار المهددة لهم من جراء مسخ الشخصية وطمس معالمها .

على أنهم يعمدون إلى ذلك في غير ما لباقة ، ولربما في أسلوب شرس . ولا غرو ، فإن موقفهم ذلك لينم في الوقت نفسه عن حنقهم وغيظهم لعدم المساهمة في (حركة التحرير) . وعن شبه الشعور بالخيبة والإفلاس : فهم يدركون ما كان من عجزهم عن تلقين

أبنائهم هذه الحقيقة ، وهي أن تفتحنا للعالم المعاصر لنا لن يكون ذا جدوى ، ولن يكون مأمون العقبى إلاّ على شرط أن نبقى أوفياء للصميم ، والخلاصة من ذاتيتنا .

وإذا ما سلمنا بهذا أصبح من الضروري القيام بتنازلات من الطرفين ، بغية التقريب من مسافة الخلف بينهما . ولقد أحسنت صنعاً من جانبك إذ قبلتها ، ولن تندمي على موقفك هذا ، فلسوف تعلمين يوماً أن لا شيء يضارع حب الوالدين في نفاسته وعلو قدره . فهو الحب الوحيد البالغ صلابة الصخر .

وهذا هو نفس ما خاطبت به عشية اليوم صديقاتك الأربع ، حيث أسعفني الحظ بالتعرف عليهن ، وأتيح لي من خلال التحادث معهن أن أقدر من جهة مبلغ الشوط الذي قطعته امرأتنا ، وأن أدرك من جهة أخرى وإلى أقصى حد أن لقب (الجيل الانتقالي) إنما هو مجاز خلاب لتغطية مفهوم (الجيل المضحى به) وقد تعرضت في رسالتك ، بلهجة التأثر لمباهج حياة الأكواخ ، وما حفها من الدعة والاطمئنان . وكم بودي أن لا يخمد على الدهر في قلب كل مناضل ومناضلة ، ذلك التوق إلى الكوخ . وذلك التشوق الحالم إلى السعادة . مهما كان من عدم تحققها في واقع الأمر . ولا غرو ، فالثورات ليست بمنجاة عن تجريد البشر من إنسانيتهم ، فلربما خلقت أمساخاً مشوهة ، ونماذج آلية صرفة ، فتعين إذن مواصلة الكفاح تفادياً للتحجر الذاتي .

* * *

إلى هنا وتنتهي رسالة الأستاذ (أحمد طالب الإبراهيمي) . وهي في الواقع رسالة لا تطرح مشكلة (المرأة) في فجر استقلال ، وإنما تطرح مشكلة اجتماعية ـ سياسية تأخذ أبعادها في

حينها .وتطل منها على أفق المستقبل .

عند هذه الرسالة تظهر مشكلة (العالم العربي - الإسلامي) كله .

الذاتية . مشكلة المحافظة على قواعد الصمود في عصر تتعاظم التحديات ضد الدول (حديثة العهد بالاستقلال) وفي طليعتها بدهياً دول العالم العربي - الإسلامي، وهي المتميزة - بصورة خاصة - بإرث حضاري متقدم ، وأصالة ذاتية عريقة وأصيلة حفظها لها الإسلام .

لم تحمل مجاهدة الأوراس السلاح ، ولم تفتح فتاة وهران والجزائر صدرها للنار، حتى تأتي صورتها مشوهة في أعمال (لوكور بوزييه) كنموذج لا يمت إلى فتاة الجزائر الطاهرة بصلة قرابة على الإطلاق[1] فأين صورة المجاهدة ، ترتدي عباءتها (برنسها) وتحمل السلاح تخفيه في طيات ثيابها من هذه الصورة العارية البشعة . وليست هذه على كل حال هي الصورة الوحيدة التي تصدم المسلم المجاهد ، والمسلمة المؤمنة التقية الورعة .

في نشرة (المرأة الجزائرية[2]) صورة لعرض فتيات كتب تحتها (العمل على انجاح الاختيار الاشتراكي للبلد) . لو تأمل الإنسان الصورة، بالصدور البارزة،

---

(١) في مجلة تاريخ وحضارة المغرب (كلية الآداب - الجزائر) يناير 1968 - العدد ٤=4 تحقيق عن (لوكور بوزييه: LE CORBUSIER) عن نساء الجزائر ص ٥٠ - ٦٦. وبه صور فاضحة - على طريقة (بيكاسو) . ولو صدرت هذه الدراسة في عهد الاستعمار لأحدثت ثورة .

(٢) المرأة الجزائرية - وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر - ١٩٧٦ ص ٥٨ - ٥٩ .

والسيقان العارية لأنكر أن يكون لهذا الجيل علاقة (بفاطمة) و(عائشة) و(جميلة) و(مليكة) وأخواتهن من عشرات آلاف المجاهدات .

عند هذه النقطة تبرز مجموعة من الأسئلة ، ومرة أخرى ، فالمشكلة ليست مشكلة خاصة (بالجزائرية) ولو أن (النموذج الجزائري) يبرز التناقض الحاد للمشكلة .

- ترى هل انتصر العربي - المسلم على العدو الخارجي ، ليهزم من داخله ؟ .

- وهل انتصرت المرأة العربية المسلمة على كافة التحديات طوال أربعة عشر قرناً لتهزم خلال جيل واحد ؟ .

إن ذلك يبرز قوة المحرض الخارجي من جهة ، واستمرار عمله من جهة ثانية .

مثال ذلك : لم تهزم الجيوش العربية - عسكرياً - في الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة (١٩٧٣) غير أن عدم هزيمتها خارجياً تحول إلى هزيمة داخلية ، والمشكلة معروفة .

مثال آخر : نحتفل بذكريات الشهداء - وفاء لأرواحهم الطاهرة - ونرقص على أجداثهم ونهرق الخمور أيضاً . . .

تلك هي مأساة العالم العربي - الإسلامي . وهي سبب التفجرات التي تطفح على سطحه باستمرار . إنها البراكين الثائرة التي تجثم فوقها قوى هائلة لتمنعها من الانعتاق . عودة إلى (مشكلة المرأة الجزائرية) .

لقد ظهرت هذه المشكلة ، وجيل الثورة ، الأمين على تراثها ، لا زال ممسكاً بالسلطة والحكم ، فكيف سينتهي الأمر بعد جيل من

الزمن ؟ وهل ستصبح الثورة مجرد ذكريات في متحف (المجاهدين) لا يلتفت إليها أحد ، ولا يتوقف عندها إنسان .

إذن فستدفن قيم الثورة أيضاً وعندها يقال (وإذا المؤ ودة سئلت بأي ذنب قتلت) .

هنا تظهر الحاجة لإعادة تقويم (أساليب التعليم والتربية) و(ازدواجية التعليم) .

إن المرأة التي تحدت (لاكوست) يوم حاول إرغامها على رفع الحجاب : قد تعرت طواعية بحكم تقليد الضعيف للقوي . ولكن :

هل يمنع الاحتشام المرأة من الحرية ، حرية التعلم ، وحرية العمل .

المسؤ ولية عامة ومشتركة ، وإعادة التقويم ، والنقد الذاتي ، كافيان حتى يضطلع كلّ بمسؤ وليته لحل هذه المشكلة .

لقد ناضلت الفتاة لرفع الحجاب ، وآن لها بعد إعادة التوازن للمجتمع ، أن تجاهد للعودة إلى آداب اللباس .

وكم هو رائع ، للطبيبة المسلمه في عيادتها ، والمهندسة المسلمة في مكتبها ، والمعلمة المدرسة في محراب العلم المقدس ، والموظفة في عملها . وكل واحدة تمارس دورها وهي في زيها الإسلامي ـ المتحجب ، المحتشم .

ليست موعظة ، وما أكره الموعظة على النفس .

إنما هي وفاء لأرواح الشهيدات ، ودعماً لقواعد الصمود ، ومحافظة على الأصالة الذاتية .

وليست القضية قضية تقليد ، أو عادات ، إنها قضية ترتبط بجوهر الدين ، فالقضية أعمق من أن تكون قضية **شكل** ، وإنما هي

قضية مضمون . (مضمون المرأة المسلمة) .

انتهت الحرب ، ولا زالت الحرب مستمرة .

والشواهد كثيرة ، يعرفها كل إنسان بحكم ممارسته .

إن (المجاهدة الجزائرية) التي انتصرت على ذاتها ، وانتصرت على غيرها ، مدعوة اليوم ، وأكثر من أي يوم مضى . لإبراز المضمون الحقيقي (للمجاهدة العربية المسلمة)وعندئذ (ستشرق الشمس من الغرب) .

قـراءات

١ ـ من منهج وادي الصومام ـ في موضوع الحركة النسائية.

٢ ـ من توصيات المجلس الوطني للثورة الجزائرية لتحرير المرأة.

(١)
من منهج الصومام في موضوع الحركة النسائية

وضعت مقررات مؤتمر وادي الصومام (في ٢٠ آب ـ اوت ـ ١٩٥٦) الأساس للعمل الثوري ، ولبناء المجتمع الجزائري الجديد . وقد تضمنت تلك المقررات في موضوع الحركة النسائية ما يلي :

و ـ الحركة النسائية

توجد في الحركة النسائية إمكانيات واسعة تتزايد وتكثر بصورة مستمرة . وإنا لنحيي بإعجاب وتقدير ذلك المثل الباهر الذي تضربه في الشجاعة الثورية الفتيات والنساء المتزوجات والأمهات . ذلك المثل الذي تضربه جميع أخواتنا المجاهدات اللائي يشاركن بنشاط كبير ـ وبالسلاح أحياناً ـ في الكفاح المقدس من أجل تحرير الوطن . ولا يخفى أن الجزائريات قد ساهمن مساهمة إيجابية فعالة في الثورات الكثيرة التي توالت وتجددت في بلاد الجزائر منذ سنة (١٨٣٠) ضد الاحتلال الفرنسي .

وإن الثورات الرئيسية كثورة أولاد سيدي الشيخ في سنة (١٨٦٤) بالجنوب الوهراني ، وثورة القبائل في سنة (١٨٧١)

وثورة سنة (١٩١٦) في الأوراس وناحية معسكر ، قد تركت لنا صوراً حية خالدة لوطنية الجزائريات اللائي ضحين بأنفسهن في كثير من المناسبات . والمرأة الجزائرية اليوم موقنة أن الثورة الحالية ستنتهي لا محالة بالحصول على الاستقلال .

وإن المثل الذي ضربته أخيراً تلك الفتاة القبائلية التي رفضت الفتى الذي تقدم لخطبتها لأنه ليس من المجاهدين ، لهو دليل رائع على ما تمتاز به الجزائريات من الروح المعنوية السامية ، والمشاعر النبيلة .

وعلى هذا ، فإنه من الممكن في هذا الميدان أيضاً تنظيم وسيلة من أخطر وسائل الكفاح وأكثرها جدوى وفائدة بطرائق خاصة مناسبة لعادات البلاد وتقاليدها الخاصة ، وذلك :

أ ـ بمؤازرة المحاربين والمقاومين مؤازرة أدبية .

ب ـ بتقديم المعلومات (الأخبار) والمشاركة في الاتصالات والتموين وإعداد الملاجىء وتهيئتها .

ج ـ مساعدة عائلات وأبناء المجاهدين ، والأسرى المعتقلين[1] .

---

(١) ملفات وثائقية (٢٤) وزارة الإعلام والثقافة ـ الجزائر ـ اوت (آب) ١٩٧٦ ص ٢٢ .

(٢)

من توصيات المجلس الوطني للثورة الجزائرية لتحرير المرأة

عقد المجلس الوطني للثورة الجزائرية مؤتمراً له في (طرابلس ـ ليبيا) في جوان (حزيران) ١٩٦٢ . والجزائر على أبواب الاستقلال ، وذلك بهدف وضع أسس لمجابهة قضية بناء الجزائر في عهد الاستقلال (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) وقد وضع المجلس الوطني مشروع برنامج (لتحقيق الثورة الديموقراطية الشعبية) وقد صادق المجلس على هذا البرنامج بالاجماع ، وتضمن فيما يتعلق بالمرأة ما يلي :

٥ ـ تحرير المرأة

لقد خلقت مشاركة المرأة في كفاح التحرير ، الظروف الملائمة لكسر الكابوس القديم الذي كان يحيط بها ويقيدها ، ولإشراكها إشراكاً كاملاً في تسيير الشؤون العامة وتنمية البلاد . وينبغي للحزب أن يقضي على كل العوائق التي تعترض تطور المرأة وتفتحها . وأن يدعم عمل المنظمات النسوية ، ولسوف يكون عمل الحزب ناجحاً في هذا الميدان . ولن ننسى أن مجتمعنا لا يزال إلى يومنا هذا لديه عقلية سلبية بشأن دور المرأة ، فكل شيء يساعد ، وبأنماط

مختلفة ، على نشر فكرة نقص المرأة وعجزها . وبلا غلو ، نجد هذه العقلية البائدة متفشية في أوساط النساء . ولن يتسنى للحزب أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام ، ما لم يساند دوماً محاربة الأحكام الاجتماعية المسبقة والمعتقدات الرجعية ، ولا يمكنه أن يكتفي بالمواقف المبدئية فقط . بل عليه أن يجعل من تطور المرأة واقعاً لا رجعة فيه وذلك بواسطة تخويل النساء مسؤوليات حزبية[1] .

(١) ملفات وثائقية (٢٤) وزارة الإعلام والثقافة ـ الجزائر . أوت (آب) ١٩٧٦ ص ٤٦

الفهرس

الفصل الثالث

قراءات